

أندريه بلاتونوف

الحفرة

ترجمة: خيري الضامن

رواية

أندريه بلاتونوف

الحفرة

رواية

ترجمة: خيري الضامن

دار سؤال ؟

رواية «الحفرة»

"Котлован"

(повесть)

تنشر بدعم معهد الترجمة في روسيا الاتحادية

ИНСТИТУТ ПЕРЕВОДА

الطبعة الأولى، 2016

عدد الصفحات: 224

القياس: 14.5 × 21.5

دار سؤال للنشر

لبنان - بيروت

الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس

ص.ب: 58-360-11

هاتف: 740437 1 00961

www.darsoual.com @darsouall2014

dar_souaal@outlook.com Dar Soual

ISBN: 978-614-8020-23-0

لوحة الغلاف للفنان الروسي بافل فيلونوف (1883-1941)

في أدب بلاتونوف

بقلم د. عبد اللّه حبه

يوصف الكاتب أندريه بلاتونوف بـ«كافكا الروسي» لسبب واحد هو أن قصصه ورواياته مترعة بالأحداث الشبيهة بالكوابيس والأحلام المرعبة. ويطلق عليها البعض، وحتى الكاتب نفسه، توصيف الخيالية. لكنها، بعكس أعمال فرانز كافكا، ذات توجّهات مجازية أكثر واقعية من الواقع نفسه، إن صح التعبير. إنها تعكس المجريات التي عايشها الكاتب شخصياً في فترة الحرب الأهلية الدامية.. وفترة تصفية البرجوازية كطبقة اجتماعية حينما أحرق الأخضر واليابس.. وكذلك فترة المجاعة التي اجتاحت بعض مناطق الاتحاد السوفيتي في مطلع الثلاثينيات وما رافقها من فظائع تقشعر لها الأبدان، كإقدام أب تتري على ذبح ابنه الأكبر من أجل إطعام أطفاله الآخرين بلحمه. إن هذا الكاتب الذي عانى من المضايقات في أيام ستالين بينما رفعه النقاد في السبعينيات والثمانينيات إلى الذروة وأصبح اليوم من الأدباء الروس الكلاسيكيين قد واصل في الواقع بعض تقاليد الأدب

الروسي الخيالي كأعمال جوجول في «ليلة عيد الميلاد» و«الجنية فيي» و«الأنف»، وكذلك رواية سالتيكوف شيدرين «قصة مدينة»، ورواية بولغاكوف «المعلم ومرجريتا»، وفي أيامنا هذه رواية زخار بريليبين «القرد الأسود» وغيرها. ولم تكن أعمال بلاتونوف نابعة من مرض جسدي أو نفسي كما كانت الحال لدى معاناة كافكا المتأتية عن قسوة أبيه والمرض. ومشكلة بلاتونوف أنه ظهر في فترة تأريخية غير مناسبة له، حيث لم يجد من يتفهّم أفكاره الفلسفية الداعية إلى الرفق بالإنسان بعد أن تعرّض لصنوف العذاب في المجتمع الذي بناه البلاشفة بعد ثورة أكتوبر 1917. فبالرغم من مقولة ماركس «الإنسان أثمن رأسمال» كان عامة الناس الذين عايشهم بلاتونوف مهانين ومسحوقين ومحرومين من أبسط الحقوق بسبب الحكم الاستبدادي وتداعياته وغياب التعددية الفكرية ووجود أعداء خارجيين أقوياء يتربصون بالدولة الاشتراكية الفتية، مما جعل السلطة تتذرع بالخطر الخارجي لتبرير كل انتهاك لقيمة الإنسان وكرامته.

ونحن إذا أردنا معرفة حقيقة الوضع في الاتحاد السوفيتي بعد قيام ثورة أكتوبر فلا بدّ من اللجوء إلى ما كتبه كبار المبدعين في تلك الفترة وما بعدها مثل شولوخوف وبولغاكوف وماياكوفسكي وأخماتوفا وفالنتين راسبوتين وأيتماتوف وغيرهم. وقد لجأ بعضهم إلى أدب الخيال بغية التهرب من ملاحقة السلطات وقيودها على الإبداع بمختلف أشكاله. سالتيكوف - شيدرين، على سبيل المثال، صوَّر روسيا في العهد القيصري بروايته «قصة

مدينة» أبدع تصوير بأسلوب خيالي، بينما كتب راديشيف روايته «رحلة من بطرسبورغ إلى موسكو» دون أن يتعرّض للحكم القيصري بصورة مباشرة. لكن القيصرة يكاترينا الثانية اعتبرتها إدانة صارخة للنظام وحُكِم على الرجل بالإعدام ثم استُبدل الحكم بالنفي إلى سيبيريا وفيما بعد انتحر. وعموماً كان الصراع على أشدّه في الاتحاد السوفيتي أيام حكم ستالين بين الأدب الحزبي والأدب اللامنتمي. وكان يتقرر فيه هل يكون الأديب موظفاً لدى السلطة الحزبية أم شخصية مستقلة؟ وقد استطاع بلاتونوف الحفاظ على مواقفه ولم تتمكن السلطة من كسر شوكته. فقد واصل الكتابة بالرغم من عدم نشر أعماله. وكتب أكثر قصصه ورواياته ومسرحياته وحكاياته للأطفال بأسلوب الخيال الأدبي في محاولة منه للتهرب من ملاحقة الموظفين الحزبيين المسؤولين عن القطاع الأدبي الذين كانوا ينقلون التقارير السرية إلى الكرملين. وكان يؤمن بمقولة دوستويفسكي: إن خلاص العالم يتمّ ليس بالعنف بل بالتضحية. وقد عانى من ذلك غيره من المبدعين السوفيت وقدّموا التضحيات، وحتى التضحية بالنفس، مثل ماياكوفسكي ويسنين وتسفيتايفا وأخماتوفا وأسييف وشولوخوف وألكسي تولستوي وميخائيل بولغاكوف، بل وحتى مكسيم غوركي القريب من الكرملين. فقد أُرغِم شولوخوف على تغيير شخصيات روايته «الأرض البكر» بغية أن تعطى البطولة فيها إلى سكرتير المقاطعة الحزبي، كما أُرغِم ألكسي تولستوي على إعادة كتابة روايته «اختراع المهندس جارين» بإدخال شخصية رجل

المخابرات السوفيتية فيها. واضطر غوركي إلى إجراء تغييرات كبيرة في شخصيات مسرحياته لكي ترضي الرقابة الحزبية. وجرى تعديل مسرحيات بولغاكوف مراراً لدى عرضها في مسرح موسكو الفني لكي ترضي الموظفين الحزبيين الساعين إلى تحويل العمل المسرحي إلى خدمة أهداف الحزب اليومية. وتطوَّع بعض النقاد المقرّبين من الأجهزة الأمنية لشنّ الهجمات على كل من يخرج عن «الأحكام» المقررة في مكاتب اللجنة المركزية. علماً أن اختيار الأعمال المعروضة في المسارح والسيناريوهات في السينما كان يتم على هذا الأساس أيضاً. والطريف أن زعيم الحزب جوزف ستالين نفسه كان غالباً ما يتدخل في الأمر ويقرأ النصوص قبل نشرها أو السماح بعرضها، أو يرتاد المسارح ويشاهد الأفلام السينمائية ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام في هذا المضمار. كتب ستالين لدى قراءة قصة بلاتونوف «ماكار المتشكك» المنشورة في مجلة «كراسنايا نوف» عام 1931 يقول: «كاتب موهوب.. لكنه وغد!». لأن القصة تضمّنت نقداً مبطناً للّجان الحزبية المشغولة باجتماعات متواصلة تُبحث فيها أمور غالباً ما تكون سخيفة تتعلق بالحياة الشخصية لأعضاء الحزب من قبل أفراد جالسين في غرفة مغلقة وسط سحب دخان السجاير بدلاً من القيام بعمل مثمر. هذه القصة تشبه من حيث المحتوى قصيدة لماياكوفسكي عن الذين «أطالوا وأكثروا من الاجتماعات»، حازت في حينه على إعجاب لينين. وعندما نشر بلاتونوف قصة «تاكير» لدى عودته من جولة في آسيا الوسطى مع فريق من

الكتّاب انتقدتها جريدة «البرافدا» بشدّة. وبعدها مُنعت أكثر قصص بلاتونوف ورواياته من النشر في الصحف ودور النشر السوفيتية، واتهمه ألكسندر فادييف سكرتير اتحاد الكتّاب السوفيت آنذاك بأنه يكتب تلفيقات عن المجتمع السوفيتي. واستُثنيت من تلك التهمة تحقيقاته الصحفية من الجبهة حين كان مراسلاً عسكرياً لصحيفة «النجم الأحمر» في فترة الحرب العالمية الثانية. ويقال إن ستالين سمح بذلك لإعجابه بأسلوب بلاتونوف في الكتابة.

وفي الحقيقة إن سياسة الحزب في المجال الثقافي بقيت في عهد جوزف ستالين ومن جاء بعده من القادة السوفيت كما حددها البلاشفة منذ قيام الثورة في أن تكون الثقافة وسيلة للدعاية لسياسة الحزب، أما حرّية الأديب والفنان في الإبداع فهي مسألة ذاتية. ولهذا جرى التركيز على وجوب إبراز «البطل الإيجابي» والمآثر البطولية، وعندما يصور الكاتب شخصية مسحوقة في المجتمع السوفيتي تشبه أكاكي أكاكيفيتش لدى جوجول في العهد القيصري فإنه يُعتبر «ملفقاً» و«داعية إلى نقد النظام» وهلمجرا. لكن بلاتونوف، ابن عامل السكك الحديد، شاهد بأم عينيه معاناة الفلاحين بعد إرغامهم على الانضمام إلى الكولوخوزات التعاونية وسلبهم الغلال والماشية، وتصفية طبقة الفلاحين كلها بتحويلهم إلى عمال أجراء، كما شاهد معاناة عمال السكك الحديد والمصانع وإرغامهم على العمل فوق طاقتهم في فترة القحط والجوع، ناهيك عن ملاحقة المهندسين والمعلمين

والأطباء بتهمة الانتماء إلى «البرجوازية» الواجب تصفيتها معنوياً وجسدياً.

* * *

ظهر أندريه بلاتونوف (1899-1951) في الساحة الأدبية الروسية بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية عام 1917 فجأة كالإعصار الذي ينبثق بين البرودة والحرارة والنور والظلام والجفاف والرطوبة، وكان ذلك بمثابة تجسيد لتحديات الثورة والطرق التي سلكها الثوار البلاشفة الذين ينتمي أكثرهم إلى الكادحين المعدمين. ويشير كاتبو سيرته إلى أن الطاقة الروحية العظيمة التي تراكمت في روسيا على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين قد وجدت منفذاً لها في أدب بلاتونوف بالذات.

لكن الكاتب بقي فترة طويلة منسياً وعمدت السلطات السوفيتية آنذاك بكل السبل إلى عدم نشر أعماله والتعتيم على الأفكار التي تضمّنتها. هذا بالرغم من أن الباحثين في روسيا اليوم يضعونه إلى جانب غوركي وشولوخوف وبولغاكوف باعتباره من أكبر الروائيين الروس في القرن العشرين. كما أن بلاتونوف غير معروف، ويا للأسف، في العالم العربي أيضاً. الأدب الروسي عموما غير معروف في العالم العربي بوجهه الحقيقي حتى الآن، لأنه لم يترجَم عن لغة الأصل، بل غالباً ما تتم الترجمة عبر اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وما يرافق ذلك من أخطاء كثيرة في الترجمة عن لغة ثالثة. كما لم تترجَم حتى الآن أعمال رئيسية

للأدباء والشعراء الروس. وتبقى غير معروفة بصورة جيدة أشعار بوشكين وروايات ومسرحيات جوجول وليف تولستوي وسالتيكوف - شيدرين وتشيخوف وجوركي وبلوك وبونين وغيرهم وكذلك أعمال الأدباء والشعراء المبدعين حقاً في الفترة السوفيتية ومنهم أندريه بلاتونوف. أما المترجَم منها فهو بشكل بائس في غالب الأحيان ويشكّل إهانة للكاتب نفسه. ونشير إلى أن دار «التقدّم» السوفيتية كانت تنشر تراجم أعمال الأدباء الذين وجدوا الدعم لدى السلطات الحزبية وجُلّهم من أدباء المرتبة الثانية والثالثة الذين لا يمكن القول إنهم تركوا أثراً في تأريخ الأدب الروسي مثل أناتولي ريباكوف وإيليا إهرنبورغ وغيرهما. فيما بقي أندريه بلاتونوف، أحد أبرز كتّاب روسيا في القرن العشرين، غير معروف في العالم العربي.

* * *

ولد أندريه بلاتونوفيتش كليمنتوف (وهذا هو اسم بلاتونوف الحقيقي) في 28 آب عام 1899 في بلدة يامسكايا سلوبودا بمحافظة فورونيج في عائلة عامل سكك، ومارس نفسه العمل منذ سن 16 عاماً في إحدى محطات القطار. ولهذا كان يفتخر دوماً بأصله العمالي، وتجسّد ذلك في أشعاره المنشورة آنذاك. عاشت الأسرة في بيت مستأجَر وكان الأطفال ينامون على الأرض سوية تحت لحاف واحد بعد تناول وجبة عشاء تتألف من الخبز الأسمر يرش عليه الملح لإكسابه مذاقاً خاصاً والشاي المعمول من الجزر

المجفف. وهكذا عرف أندريه معنى الفقر منذ نعومة أظفاره وكتب عنه في قصصه المبكرة التي كانت في الواقع تصويراً صادقاً لأيام الطفولة. وحصل الصبي على التعليم الابتدائي في مدرسة تابعة للكنيسة، لكنه اضطر لترك المدرسة بعد اختتام المرحلة المتوسطة في عام 1914، وكان قد بلغ سن الخامسة عشرة، من أجل العمل لكسب الرزق. فمارس الخراطة في معامل السكك الحديد حيث عمل والده على مدى 40 عاماً، وبعد ذلك انتقل للعمل في مصنع للأنابيب باختصاص سبّاك. وروى لاحقاً في قصة «سريوجا وأنا» صعوبة العمل في ورش المصنع «حيث يصبح البشر رغم أنفهم مغتاظين ينفجرون لأي سبب». وعندما قامت الثورة في أكتوبر عام 1917 تحمّس لها أندريه وانخرط في العمل الثوري. وفي عام 1918 التحق بمعهد السكك الحديد بمدينة فورونيج بغية الحصول على شهادة مهندس ميكانيكي. وفي عام 1920 قدَّم طلباً للانضمام إلى الحزب البلشفي.

كان بلاتونوف يكره الحرب، وقد وقف ضد الحرب العالمية الأولى باعتبارها حرباً إمبريالية يصبح الجنود أبناء الفقراء فيها لحوما للمدافع. ولم يغيّر موقفه لاحقاً حين عمل في جبهات الحرب العالمية الثانية مراسلاً حربياً. فإن مجرد أن يقتل الإنسان أخاه الإنسان مهما كانت جنسيته يُعتبر برأيه عملاً وحشياً. وكتب في إحدى قصصه المبكرة، «حارة يامسكايا» يقول على لسان أحد أبطالها: «ليست هناك أية بطولة وأي مبررات للقتل.. إن الحمقى - الشياطين يريقون الدماء هناك...». ولم يلتحق أندريه

بالجيش في عام 1914 بل نسب للعمل في قاطرة كمساعد سائق ومن ثم أنقذته ثورة 1917 من الذهاب إلى الجبهة. وكتب يقول: الثورة هي قاطرة التاريخ، وقد تحولت لديّ إلى شعور غريب وطيب.. وفيما بعد باتت مفردة القاطرة تولّد لديّ إحساساً بالثورة.

وقد تزامنت الثورة والحرب الأهلية في روسيا في الفترة حين تتجاوب روح الإنسان بكل حدّة ورهافة مع الأحداث الجارية حوله. كتب بلاتونوف لاحقاً في قصة «أفروديت»: «سيأتي زمن سعيد حين يتطابق التطور التأريخي للعالم لدى الناس مع وجيب قلوبهم». وقد تجاوب بلاتونوف مع الأحداث الثورية وآمن بأن المستقبل سيكون نيّراً، وهو في هذا يختلف مع معاصريه من الكتّاب مثل بونين وبريشفين وبولغاكوف وألكسي تولستوي وغيرهم ممن لم يجدوا في البداية فيما جرى بروسيا من أحداث أي شيء «موسيقي متناغم»، فهناك فقط الدم والقسوة والظلم، واعتبروا ذلك مأساة وكارثة، ولو أن بعضهم قد غيَّر رأيه لاحقاً.

ومهما يكن من أمر فقد مارست الثورة دوراً مغايراً في مصير بلاتونوف، حيث كتب في وصفها يقول: «حوّلتني الثورة في لحظة خاطفة من طفل إلى رجل بالغ دون أن أمرّ بمرحلة الصبا. قبلها كنت صغيراً وبعدها لم يتوفر الوقت لكي أصبح فتى، ووجب عليّ أن أصبح رجلاً عبوساً وأن أكافح.. آنذاك كنت في مفترق طرق التأريخ والحياة الشخصية: فقد بلغت سن 19 عاماً أي بعمر القرن العشرين يومئذ، وقد ولدت مع ولادة قرني الذي ينمو مع

نمو الإنسان. وكانت تغمرني قوة وعنفوان الفتوة وحدّة المصير الشخصي، بينما تجري الثورة في الوقت نفسه في العالم».

بدأ بلاتونوف نشاطه الإبداعي من نظم الشعر، وأرسل قصائده المبكرة في عامي 1914 و1915 إلى إحدى المجلات الأدبية في بطرسبورغ ولم تنشرها، لكنه تلقّى رسائل تشجيع له على مواصلة التأليف لأنه يتمتع بموهبة. غير أنه فيما بعد قوبل بالترحاب في الأوساط الأدبية باعتباره شاعراً وكاتباً واعداً نبع من رحم البروليتاريا، وتنبأ له الجميع بمستقبل باهر. وفي عام 1918 نشر أولى قصصه «القرط»، ثم نشرت في العام نفسه قصيدته «إلى فتى بروليتاري» في مجلة «الظلال»، حيث دعا بلاتونوف الشباب إلى تجنّب الغلو في العواطف والإكثار من التأمل وتحكيم العقل. ومن ثم نشرت له عدة قصائد أخرى بروح الثورة البلشفية. إلا أن بلاتونوف يُعرف الآن بصفته ناثراً أكثر منه شاعراً، لا سيما أن النقاد لم يرحّبوا بالأفكار والصور الشعرية التي تميل إلى الرمزية في قصائده، واتهموه بالانضمام إلى المستقبليين. ويبدو أن إلهة الشعر لم تكن تلازمه دائماً. وفي عام 1919 نشر مقالته «إلى الشعراء والكتّاب البروليتاريين المبتدئين» التي أشار فيها إلى أن الثورة في مجال الفن هي «جزء من ثورة الروح التي يضرم فيها البروليتاري النار في جسد البرجوازية وفنّها الميت ويزيل من وجه الأرض البشاعة والشرور والحقارة ومخلّفات الماضي المعادية للحياة ويطهّر المكان من أجل بناء صرح كل ما هو جميل وخير. وبعد مرحلة الهدم تبدأ مرحلة البناء».

في يوليو عام 1919 أُوفد بلاتونوف في مهمة حزبية إلى بلدة نوفوخوبيرسك من أجل الدعاية للنظام السوفيتي الجديد والدعوة إلى غزو الكرة الارضية بأسرها لنشر الشيوعية وتمجيد الكومسمول (منظمة الشبيبة الشيوعية) والجيش الأحمر المظفر. ووجب عليه العمل هناك وسط البراري المجدبة في الصيف حيث نشطت فصائل الحرس الأبيض المعادية للثورة. وتركت هذه الرحلة انطباعاً عميقاً في نفسه، فالناس هناك لا يفهمون أقواله ودعواته لصالح الثورة، وكان جل همّهم ينصبّ على البحث عن القوت وليس على سماع الدعاية الأيديولوجية. وقد انعكست أحداث تلك الفترة لاحقاً في روايته الطويلة «تشيفينغور». ويلاحظ في تلك الفترة رفض بلاتونوف لفكرة الحب باعتباره مضيعة للوقت في زمن الثورة، وتأثره بأفكار نيتشه («هكذا تكلم زرادشت»). كتب في مقالته «أكتوبر المستقبل» يقول: «المجتمع الشيوعي يتألف في غالبيته من الرجال.. أما مساواة الرجل بالمرأة فهي من الأعمال الخيرة للاشتراكيين، وليست حقيقة - ولن تكون هذه المساواة حقيقة أبداً. لقد حان الوقت لمعالجة هذه القضية نهائياً. إن البشرية رجالية ذكورية، وليست تجسيداً للجنس المتمثل في المرأة». لا أحد يعرف سبب موقف بلاتونوف آنذاك من المرأة ولماذا اتخذ هذا الموقف منها. إلا أن موقفه تغيّر جزئياً حين وقع في غرام امرأة أصبحت زوجته المتيَّم بها. ويبدو أنه تأثر في شبابه بالفيلسوف الروسي نيقولاي فيودوروف الناسك الذي لم يعرف المرأة في حياته ولعب دوره في تشكيل أفكار

بلاتونوف من هذه الناحية. في أعمال أندريه بلاتونوف مشاهد كثيرة تصور موقف ومعاناة أبطاله من الحاجة الطبيعية إلى الجنس والتي كان هو يعتبرها من مظاهر البرجوازية. وفيما بعد غيّر الكاتب موقفه تجاه المرأة كلياً، حين طرأ تغيُّر كبير على موقفه من الثورة ومن مستقبل البشرية الغامض في ظل الاشتراكية.

جميع أعمال بلاتونوف تتسم برؤية للعالم يسودها الخوف والفزع وانتظار وقوع الكارثة. وغالباً ما يلقى أبطاله حتفهم في نهاية القصة أو الرواية والكثيرون عنده يموتون قبل أن يبلغوا النهاية. فالموت حاضر في كل ما كتب. الأمر الذي كان يثير حفيظة المسؤولين عن الثقافة في الحزب الشيوعي السوفيتي. وعندما نشر قصته «تشوديك ويبيشكا» في صحيفة «جيش العمل» بمدينته فورونيج، والتي وصف فيها موقف الناس من حريق شبّ في القرية وموت طفلة البطل ثم انتحاره نفسه، انهال عليه النقاد بالتجريح لكونه لا يصوّر سوى الجانب القاتم من الحياة ويتناسى الجمال. وردّ عليهم بالقول: عن أي جمال تتحدثون؟ إنني مشيت فوق الأرض طوال عشرين عاماً ولم ألتقِ الجمال الخالص الذي تشيرون إليه. وأنا لم أضلّ الطريق في هذا المضمار، بل أبحث عن عالم أفضل... وسيكون هذا البحث، من المواقع العمالية وفي دولة العمال، بشكل مريح أكثر.

وكان يردّد قول بوشكين:

أقرأ سفر حياتي بنفور وازدراء،
وأرتعش، فأوزع اللعنات،

وأطلق الشكوى بمرارة،
وأذرف الدموع بغزارة،
لكنني لن أمحو بها سطوري الحزينة.

لقد حالف الحظ بلاتونوف حين تعرَّف على المسؤول الحزبي غيورغي ليتفين - مولوتوف، رئيس تحرير صحيفة «فورونيجسكايا بيدناتا» (فقراء فورونيج) الذي أعجب بموهبة الكاتب الأدبية وساعد على نشر أعماله المبكرة. وارتبط الرجلان بعلاقة صداقة حميمة نظراً لتقارب أفكارهما وحبهما للفلسفة وعلم النفس. وفيما بعد ترأس ليتفين - مولوتوف هيئة تحرير صحيفة «فورونيجسكايا كومونه» ودعا بلاتونوف للعمل معه فيها. كما انضم بلاتونوف العامل - الصحفي إلى الاتحاد الشيوعي للصحفيين في المدينة. وساعده ليتفين - مولوتوف على نشر أول كتيب له بعنوان «الكهربة»، الذي تناول فيه برنامج كهربة البلاد باعتباره السبيل الوحيد لإنقاذها من التخلف والفقر والخراب. وعندما حاول بلاتونوف نشر كتابه هذا في موسكو قوبل بالرفض بحجة «أن الكاتب استخدم أسلوب طلاب المدارس الكنسية وارتكب أخطاء نحوية وما إلى ذلك». وبالرغم من ذلك لم يرفضوا ترشيح ليتفين - مولوتوف صديقه بلاتونوف لعضوية الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) في عام 1920. لكن فترة الانتماء إلى الحزب والتعلق بالأصل البروليتاري لدى الكاتب لم تدم طويلا. فإن بلاتونوف ولج عالم الأدب واضعاً نصب عينيه مهمة أن يكون صادقاً مع ذاته في حمل الرسالة الإبداعية. ولا أحد

يعرف بالذات سبب القطيعة مع الحزب لاحقاً. حصل ذلك لدى نقله إلى كراسنودار في عام 1921 بمهمة حزبية. ويبدو أنه انضم إلى حزب يفترض أن يكون ثورياً، فوجد نفسه، بعد عام واحد، في حزب آخر تسوده البيروقراطية. وبالرغم من أن بلاتونوف أصبح مهندساً مختصاً بالإصلاح الزراعي وانشغل ببناء السدود ومحطات توليد الكهرباء فإن الأدب بات جزءاً لا يتجزأ من حياته. إنه مثل تشيخوف الذي قال: «مهنة الطب زوجتي وحرفة الأدب عشقيتي».

وكانت كارثة الجفاف والمجاعة في مناطق الفولغا من الأحداث المهمة التي أثّرت في حياة الكاتب. فكان على رأس المتطوعين في تقديم أعمال الإغاثة لسكان المناطق المنكوبة. ووجَّه في الصحف نداء «لإنقاذ الملايين من إخواننا الفلاحين الروس الذين يهلكون بسبب الجوع». وقال إن الجياع بحاجة إلى الدعم وليس إلى الكلام والبيانات.. فالكلمة الحلوة لن تطعم الجائع. وربما ان هذا الحدث بالذات جعل الكاتب يتحول إلى العمل كمهندس إصلاح زراعي قام ببناء محطات لتوليد الكهرباء في المناطق الريفية. وواصل هذا العمل على مدى ست سنوات لم ينس خلالها الشعر والكتابة رغم عدم توفر الوقت الكافي. وكتب يومذاك: «لنكن أبطالاً في العمل والفكر والنضال. ولنكن نحن البشرية كلها وليس أفراداً متفرقين في الواقع».

وقابل بلاتونوف العبارة الواردة في الكتاب المقدس: «في البداية كانت الكلمة» بعبارة: «في البداية كان العمل». وفي تلك

الأيام قرر الكاتب الانسحاب من الحزب البلشفي بعد أن شاهد عجز النظام عن تفادي المأساة في مناطق الفولغا لانشغال الموظفين الحزبيين في معالجة الشؤون البيروقراطية اليومية وإهمال آلام الناس. كما وجد أن المنظمات الحزبية تنفق الكثير من الوقت في الثرثرة بلا طائل بينما كان هو يتطلع إلى العمل والتغيير العاجل وكهربة البلاد ولاسيما القرى. وكتب آنذاك يقول: «إن السلطة السوفيتية هي مرحلة فقط في الطريق إلى الشيوعية. وقريباً ستنتقل السلطة إلى الجماهير مباشرة دون المرور بوسطاء.. نحن نقف عشية زحف الجماهير، الجماهير نفسها، بدون وسطاء، بدون أحزاب، بدون شعارات». أي العودة إلى فكرة المدينة الفاضلة. وعبَّر بلاتونوف مثل غيره من المثقفين الثوريين آنذاك عن خيبة الأمل من الحزب بعد المجاعة التي حصدت أرواح 25 مليون إنسان حسب بعض الإحصائيات. علماً أن السلطات الرسمية حاولت بكل السبل التعتيم على ما حدث ولم تنشر الصحف إلا النزر اليسير عن واقع الحال في المناطق المنكوبة ومنعت الحديث عن هذا الأمر أصلاً واعتبرته تخريباً. لكن بلاتونوف لم يفقد الأمل نهائياً في إصلاح النظام، والتحق في صيف عام 1921 بالدورة الدراسية للعمال والفلاحين في جامعة فورونيج. وأعرب في هذه الفترة عن عدم رضاه عن الوضع في الحزب، فكتب مقالة بعنوان «المستقبل الشيوعي» دعا فيها إلى تطهير الحزب من الطفيليين والعناية بالحياة المعيشية للشيوعيين للحؤول دون هبوط مستواهم مادياً ومعنوياً.

بعد ذلك قرر بلاتونوف العمل في الريف والتحق في عام 1922 بلجنة الإصلاح الزراعي. وهناك عاش حتى عام 1926 مع الفلاحين الذين وجّهت إليهم الثورة أشد ضربة بعد فرض نظام الكولخوزات (المزارع التعاونية) ومصادرة الغلال والماشية منهم. واستمد من حياة الفلاحين مواضيع عدة قصص مثل «مدينة غرادوف» و«ماكار المتشكّك» و«البقرة» وغيرها مما تعرّض لانتقادات شديدة في الصحافة الحزبية. وشهد الكاتب أيضاً كيف كان يجري تخريب منشآت الإصلاح الزراعي وإحراق محطات توليد الكهرباء الصغيرة التي شيدت بإشرافه. وكتب عن هذا كله في قصصه المبكرة. كما انعكست هذه المواضيع في ديوانه الشعري «العمق الأزرق» المنشور عام 1922 وفي قصص «شيطان الفكر» و«مغامرات باكلاجانوف» و«دانيلوك» و«أبناء الشمس» التي تعكس تراجع الكاتب عن الحماس الثوري.

* * *

في عام 1923 تعرَّف بلاتونوف على الحياة الأدبية بموسكو في إحدى زياراته لها، ونشر لاحقاً عدة مقالات نقدية تتسم بالنزعة «المتياسرة» المتشددة حيال أعمال ألكسي تولستوي وخوداسيفيتش وأندريه بيلي وغيرهم من معاصريه كشفت موهبته كناقد أدبي. كما شارك في مسابقة أدبية نظمتها مجلة «كراسنايا نيفا» في عام 1924 بإرسال قصته «بوتشيلو». واعتبرتها لجنة التحكيم واحدة من أفضل عشر قصص شاركت في المسابقة.

وتتحدث القصة عن مصير رجل بعد الثورة وصلابة مواقفه وشعوره بالوحدة والتيتم لدى عمله كحارس بعد عودته من جبهات الحرب الأهلية. وبالنسبة له سواء كانت هناك ثورة أم لم تكن، إلا أن حياته ذهبت سدى مع الريح. وكانت هذه القصة أول نصر أدبي حقّقه بلاتونوف الشاب في العاصمة. وفيما بعد ذكر الكاتب شكلوفسكي «أن بلاتونوف كاتب كبير لكن الوسط الأدبي لم يهتم به ،لأنه لم يجد مكاناً له في الخزائن التي يحفظ فيها الأدب. الطريق لإدراك حقيقة روسيا شاق طويل. وبلاتونوف كان يعرف جميع الأحجار والمنعطفات فيه. ونحن جميعاً مقصّرون بحقه. . . وأعتقد أنه كان بحاجة إلى قارئ آخر».

في شباط 1926 انتُخب بلاتونوف بموسكو عضواً في اللجنة المركزية لاتحاد الزراعة وشؤون الغابات تقديراً لإنجازاته في مجال استصلاح الأراضي ومنها انشاء بحيرة اصطناعية وحفر 315 بئراً وتجفيف 7600 هكتار أو يزيد وإرواء 30 هكتاراً من الأراضي وبناء 3 محطات لتوليد الكهرباء وعدد من الجسور والسدود وشق الطرق وغيرها من الأعمال التي يبدو أن لا علاقة لها بالأدب. ولكن في الواقع استمد بلاتونوف جميع مواد قصصه ورواياته من حياة الناس في هذه الميادين. ولم يبق الكاتب بموسكو طويلاً وانسحب من اللجنة المذكورة بعد عدة أسابيع لأنه كان «مبدئياً» جداً في موضوع التمسك بالديمقراطية، علاوة على مشكلة توفير السكن له وعدم استلامه الراتب بانتظام، مما جعله يبيع كتبه حين مرض ابنه ووجب أن يوفر له الطعام والعلاج. وبلغ

به الأمر حتى التفكير بالانتحار عندما طالبه المسؤولون بإفراغ الغرفة التي يسكنها مع عائلته في القسم الداخلي التابع للاتحاد الزراعي.

وقد أفاده وجوده بموسكو في التقرب من الأوساط الأدبية. وكان ولعه بالكتابة أقوى من العمل في استصلاح الأراضي.. كتب في عام 1926 مقالة ساخرة حول الوضع في الأوساط الأدبية بعنوان «مصنع الادب» تناول فيها ما يجري في اتحاد الكتّاب السوفيت. وأشار إلى أن وتيرة الحياة تمضي بسرعة ولا يلحق بها الكتّاب الذين يحاولون دخول معتركها. ودعا الكاتب إلى استعمال اللغة الحية المستقاة من أفواه الناس وعدم تكرار الصيغ الجاهزة المأخوذة من الكتب القديمة. واقترح الكاتب بين الجد والهزل استحداث مكتب يوزع المهام بين الكتّاب والنقاد والإداريين في مجال الإنتاج الأدبي.

* * *

يورد الباحثون عدة أعمال روائية باعتبارها من أفضل ما أنتجته قريحة بلاتونوف وجلبت له الشهرة بعد وفاته بكونه أحد أعمدة الأدب الروسي، وهي «الحفرة» و«بحر الصِّبا» و«الأشباح» و«موسكو السعيدة» و«تشيفينغور».

ويعتبر النقاد «تشيفينغور» التي هي أطول روايات بلاتونوف قمة في الأدب الروسي في القرن العشرين، وصنّفوها في عداد «الدون الهادئ» و«الحرس الأبيض» و«الدكتور جيفاغو». وكانت

هذه الرواية سبباً لأول اصطدام سافر وغير متوقع للكاتب مع نظام الحكم السوفيتي ولأول ضربة يتلقاها الرجل من هذا النظام. وهي رواية مثيرة حقاً وملفعة بالألغاز، ولا تزال حتى اليوم تطرح الكثير من التساؤلات. والحقيقة فالرواية عبارة عن عدة روايات متداخلة يصعب القول إن بطلاً رئيسياً واحداً ينتظمها، رغم وجود مثل هذا البطل (ساشا دفانوف). ذلك لأن النابض المحرك لأحداثها ليس حياة البطل ومصيره، بل المكان والزمان. المكان الذي يراد له أن يحتضن بناء الشيوعية، ثمرة الثورة التي يقول عنها أحد أبطال الرواية «إنها سلطة الحمقى». والزمان هو الشاهد على تدمير تشيفينغور بأيدي مسلحين من القوزاق، كما دمرت قرطاجنة في حينه. وبفضل هؤلاء المسلحين واجهت المدينة موتاً كريماً مكللاً بالأمجاد. وإلا لكانت، في جميع الأحوال، ستموت قريباً أرذل ميتة، بعد أن افتقدت كل مقوّمات الحياة. وسقطت الشيوعية هناك. تصوروا: أندريه بلاتونوف يكتب في عام 1928 (عام تأليف الرواية) عن سقوط الشيوعية! معظم مؤلفات الكاتب تتحدث، بالمجاز أحياناً وبالمعنى الحرفي للكلمة أحياناً أخرى، عن فشل التجربة الشيوعية. إلا أن ذلك لا يعني أبداً أنه مسرور لهذا الفشل أو راغب فيه، كما هو حال الرافضين والموتورين. فهو لم يرفع راية النضال في سبيل الإطاحة بالنظام، ولم يطرح شيئاً بمثابة البديل عنه. كل ما كان يشغل باله هو الرفق بالإنسان، بالفرد المستضعف المهان، (خصوصاً في «الحفرة» و«الأشباح»).

تتناول رواية «تشيفينغور» (والكلمة مختصر لتسمية منطقة

طوارئ عسكرية اتخذها الكاتب رمزاً لمركز الكون المتهاوي في ظل الشيوعية) فترة مجاعة وقحط استغرقت خمسة أعوام في الاتحاد السوفيتي حين لجأ أهالي الريف إلى الغابات والمدن بحثاً عن الطعام، بينما بقي زخار بافلوفيتش، بطل الرواية، وحيداً في القرية، وكان بدون أسرة ولا مسكن. وحدث مرة أن سمع ليلاً صوت قاطرة قادمة من بعيد وسط هسيس زخات المطر الذي طال انتظاره. وفي الصباح جمع حاجياته وتوجّه إلى المدينة وأفلح في الحصول على عمل في مرآب القطارات وقرر البقاء هناك.

وفي أسرة بروخر دفانوف، أحد أبطال الرواية، ولد ستة عشر طفلاً لم يبق منهم على قيد الحياة سوى سبعة. وهناك طفل ثامن تبنّاه دفانوف هو ساشا ابن صياد سمك غرق في النهر عندما دفعه الفضول إلى ملاقاة الموت لمعرفة ما يحدث للإنسان بعد أن يفارق الحياة. وساشا قرين أحد أولاد الأسرة واسمه بروشكا. وعندما ولدت الأم في عام الجفاف توأمين واشتد عوز الأسرة، خاط بروخر كيساً من الجنفاص وأعطاه إلى ابنه المتبنى ساشا وتركه يتسوّل في الشوارع. وقال بروخر لزوجته وأطفاله الآخرين: «كلنا همج وأنذال». فيما مضى الصبي أولاً إلى قبر أبيه ليودّعه، وفكر بأنه حالما يجمع ما يملأ الكيس من الخبز يحفر قبواً جنب قبر والده لكي يقطن هناك ما دام لا يوجد لديه بيت.

أما صاحبنا زخار بافلوفيتش فقد طلب من بروشكا أن يبحث عن ساشا مقابل روبل لكي يتبناه هو ويأخذه إلى بيته، فقد كان

يحب الأطفال علاوة على أنه كان وحيداً بلا أسرة. وتم العثور على ساشا وتبنّاه زخار وشبّ الفتى ذكياً فطيناً والتحق بالعمل متدرباً في مرآب القطارات. وكان في الأمسيات يقضي الوقت في المطالعة ومن ثم بالكتابة. بيد أنه شعر بالخواء الروحي وأن الحياة تمضي عبثاً. وكان زخار يحاول طمأنته ويدعوه أن لا يعذب نفسه بمثل هذه التأملات.

ونشبت الحرب العالمية الأولى وأعقبتها الثورة. وفي إحدى ليالي أكتوبر قال زخار مخاطباً ساشا حين سمع لعلعة الرصاص في الشارع: «ها هم الحمقى يستولون على السلطة، فهل تغدو الحياة أكثر عقلانية يا ترى». وفي الصباح توجّه الاثنان إلى المدينة للبحث عن الحزب المناسب والأكثر أهمية من أجل الانضمام إليه. دخلا دار البلدية حيث تتواجد مكاتب الأحزاب. لكن زخار لم يجد هناك أحداً يتحدث معه. واخيراً لمح شخصاً جالساً في نهاية الرواق أخبره أن الجميع توجّهوا للاستيلاء على السلطة، وأن الأحداث ستنتهي قريباً وستطبق الاشتراكية بعد عام واليوم يجري التعامل مع المؤسسات فقط. فطلب زخار من الرجل أن يسجلهما في الحزب. وفي البيت قال زخار لأبنه: «يجب أن يكون البلشفي فارغ القلب لكي يؤوي الجميع فيه».

بعد ستة أشهر التحق ساشا بدورة لعمال السكك الحديد، ومن ثم التحق بمعهد البوليتكنيك. لكنه لم يكمل الدراسة، ذلك لأن الحزب قرر إرساله إلى جبهات الحرب الأهلية.. إلى مدينة نائية وسط البراري. وسافر إلى هناك، لكن سرعان ما جاءت

برقية من المركز لتكليفه بمهمة في مدينته، وكان طريق العودة شاقاً جداً. وعندما رجع إلى بيته أصيب بالتيفوئيد. وفقد والده الأمل في شفائه، فصنع نعشاً في انتظار موته. لكنه شفي من المرض بعد أسابيع. وزارته الجارة صونيا. ففكر الأب بتحويل النعش إلى مهد. لا بدّ أن يتزوج ابنه من صونيا عاجلاً أو آجلاً.

ويكلَّف ساشا بمهمة حزبية أخرى هي التجول في أرجاء المحافظة «للبحث عن بذور الشيوعية... بين السكان القادرين على العمل». فيقع في قبضة الفوضويين، لكن فصيلة من الحرس الأحمر تنقذه ويتعرف على قائدها كوبينكين الذي يخبره أنه شخصياً يحارب فقط لخاطر الثورية الشيوعية الألمانية روزا لوكسمبورغ التي يكنّ لها مشاعر المودة. ويتعرف في أثناء الجولات على تشيبورين رئيس اللجنة الثورية في تشيفينغور حيث توجد حسب قوله الاشتراكية الحقيقية. ويقرر ساشا الذهاب إلى مدينة الأحلام هذه. فوجد أن أهالي المدينة يستيقظون في وقت متأخر عند الضحى للمزيد من الراحة، فهم يستحقون ذلك بعد قرون من المعاناة والقهر البرجوازي. وعندما سأل عن عمل الناس في المدينة أجابه تشيبورين أنهم يعالجون «روح الإنسان» وهذه مهنتهم الرئيسية. أما منتوج مهنتهم فهو الصداقة والأريحية الرفاقية. وقال أيضاً إنه يجب ألا يكون كل شيء جيداً تماماً في المدينة، فلا بد أن يعاني الناس قليلاً من المحنة، ذلك لأن الشيوعية يجب أن تكون ذات مرارة ليغدو مذاقها طيباً. ويتم تشكيل لجنة طوارئ تعد قائمة بأسماء البرجوازيين الباقين على قيد

الحياة بعد الثورة. ويتولى رجال الأمن إعدامهم والتخلص منهم. وبعد إطلاق النار عليهم يقول تشيبورين: «الآن كل شيء على ما يرام» ويطلب من زوجات البرجوازيين القتلى عدم البكاء عليهم. ثم ينصرف نفسه للنوم بعد يوم العمل المضني. علماً أن كوبينكين قائد فصيلة الحرس الأحمر لا يشعر مع هذا، وبعد تصفية البرجوازيين، بوجود الشيوعية في تشيفينغور. وعندئذ يأخذ رجال الأمن بالبحث عن أنصاف البرجوازيين. فيتم جمعهم ويجري نفيهم إلى السهوب. أما البروليتاريون الموجودون في المدينة وغيرهم من الذين جرى استدعاؤهم من قبل الشيوعيين فيلتهمون كل مخزون الغذاء المتبقي في بيوت البرجوازيين ويجهزون على جميع الدجاج. وكان تشيبورين ينتظر أن تتحقق السعادة النهائية في الحياة من تلقاء ذاتها بدون إزعاج البروليتاريا، لأن السعادة في الحياة واقع وضرورة. أما كوبينكين فيتجول في المدينة مجرداً من السعادة، وينتظر وصول ساشا دفانوف لكي يعرف رأيه في الحياة الجديدة. لكن هذا جاء إلى المدينة، فلم يجد أثراً للشيوعية، ولربما أنها اختبأت في بواطن الناس. وصار يخمن السبب الذي يجعل البلاشفة في تشيفينغور يتمنّون الشيوعية بمثل هذه الرغبة الشديدة، بينما هي تعني نهاية التأريخ، ونهاية الزمن، والزمن يمضي فقط في الطبيعة، بينما يعاني الإنسان من الكآبة. ويخترع ساشا جهازاً يحوّل ضوء الشمس إلى كهرباء. ولهذا الغرض جرى انتزاع زجاج جميع النوافذ وكافة المرايا في المدينة. لكن الجهاز لم يعمل لسبب ما. وتم إنجاز مشروع آخر،

فقد شيد برج في أعلاه شعلة نار لإرشاد الضالين في السهوب. لكن أحداً لم يأت للاهتداء بنور البرج من البراري. ثم وصل من موسكو الرفيق سربينوف في مهمة تفقدية لمعرفة إنجازات سكان تشيفينغور، فوجد أن عملهم كله لا نفع منه. وقال تشيبورين شارحاً الأمر: «نحن لا نعمل من أجل المنفعة، بل من أجل بعضنا البعض». فكتب سربينوف في تقريره إلى الجهات العليا: «في تشيفينغور كثير من الأشياء البهيجة، ولكن لا نفع منها».

وقررت السلطات في نهاية الأمر إرسال نساء إلى تشيفينغور من أجل مواصلة النسل. لكن شباب المدينة لم يضاجعوهن. كانوا يجدون الدفء في أحضانهن فقط، لأن الجو برد مع اقتراب فصل الخريف.

وجاء رسول إلى المدينة لإبلاغ سكانها بزحف قوات القوزاق عليها. وجرت معركة بين القوزاق والأهالي قُتل فيها أكثرية البلاشفة. وهرب ساشا مع كوبينكين الجريح إلى البراري ومن ثم فارق الأخير الحياة. وامتطى ساشا جواد زميله المسمى «قوة البروليتاريا» وانطلق به في البراري ومرّ بقريته دون أن يتوقف فيها حتى وصل إلى بحيرة موتيفو التي غرق فيها والده منذ وقت بعيد. وشاهد على الضفة عدة صيد السمك التي تركها هناك في طفولته. فأرغم «قوة البروليتاريا» على النزول إلى البحيرة ومن ثم قفز من السرج إلى الماء ليبحث عن الدرب الذي سلكه والده في حينه عندما دفعه الفضول لمعرفة ما يحدث للإنسان بعد الموت. فيما وصل زخار بافلوفيتش إلى تشيفينغور ليبحث عن ولده بالتبنّي

ساشا، ولم يجد سوى الصبي بروشكا جالساً عند عتبة بيت شبه مهدم، فقال له: «سأعطيك روبلاً آخر، فابحث عن ساشا من أجلي». وأجابه الصبي: «سآتي به بلا مقابل!» ، وانطلق للبحث عن ساشا. . .

كتب بلاتونوف هذه الرواية ذات المغزى الفلسفي العميق، والتي تجسد عبث تضييع الوقت في بناء مجتمع مثالي بدون توفر المقوّمات اللازمة، في فترة تالية (عام 1928) من حياته الإبداعية، حين بدأ شيئاً فشيئاً النضوج الفكري الأيديولوجي للكاتب، وقد أدرك، وهو الإنسان المثالي الحالم بتغيير المعمورة كلها، أن الكثير من شعارات الحزب طوباوية وغير قابلة للتطبيق في ظروف البلاد آنذاك واعتبر أن السلطات تخدع الناس. علماً أنه نفسه تأثر أيضاً بالفلاسفة المثاليين الروس مثل فيودوروف صاحب دعوة الإخاء بين البشر وبيرديايف صاحب «الفكرة الروسية» التى التزم بها كذلك فيودور دوستويفسكي. لكن بلاتونوف حاول المزج بين هذه الفكرة والتجربة الثورية - البلشفية. فأبطال قصصه ورواياته يسعون إلى تحقيق مُثُلهم العليا بجهد جهيد، لكنهم يصطدمون بالواقع وبما هو غير ممكن التحقيق. وفي النهاية يستسلمون للكآبة ولا يجدون مخرجاً لوضعهم سوى الانطلاق بعيداً على صهوة جواد أو المشي السريع مثل أحد أبطال «تشيفينغور» الذي آمن بأن الشيوعية هي الحركة المستمرة والتجول في أنحاء البلاد. ولهذا أطلق بلاتونوف نداءه: «هيا إلى الدرب. . لنمشي!». ظلت هذه الرواية منسية عشرات

السنين في حياة الكاتب وبعد وفاته ولم تنشر إلا في عام 1972. وكانت في الواقع مزيجاً من المأساة والملهاة والخيال والغيبيات والتحليل السياسي. كانت نوعاً جديداً من الإبداع الأدبي لم يستطع هضمه حتى مكسيم غوركي الذي امتدح الرواية، لكنه لم ينصح بنشرها، لأن الجمهور العادي لن يتقبلها حسب رأيه.

* * *

وجدير بالذكر أن الرواية الأخرى «الحفرة» التي تعتبر من خيرة أعمال بلاتونوف أيضاً والتي كتبها في عام 1930 ولم تنشر إلا في عام 1987 تروي أحداثاً تتعلق ببناء منشأة سكنية لتكون صرح الشيوعية في المستقبل. لكن الخلاف الناشب بين العمال والفلاحين يؤدي إلى فشل المشروع برمّته حيث تتحول الحفرة معنوياً إلى قبر جماعي. والرواية تتضمن إدانة للطوباوية في النظام القائم وتجسيداً لانهيار الأفكار الشيوعية التي تتجاهل واقع الحياة، وتأكيداً على أن النظام الاشتراكي لا يمكن بناؤه إلا على أساس مراعاة واقع المجتمع وظروف البلاد.

ولعل القارئ المعاصر يستشف من رواية «الحفرة» بدايات بناء الاتحاد السوفيتي ككيان دولي وفداحة التجاوزات التي اقترفت آنذاك، وتدفعه الفظائع المرعبة التي يتضمّنها السرد إلى التساؤل: أليست تلك البدايات الرهيبة هي ما قاد هذا الكيان إلى الزوال في النهاية؟

يقول كاتب سيرة أندريه بلاتونوف، مدير معهد غوركي للأدب

العالمي، ألكسي فارلاموف: «إن قارئ هذه الرواية يتحيّر بين شعورين متعاكسين: هكذا كانت الأحداث بالفعل، ويستحيل أن تكون هكذا بالفعل. يستحيل أن تكون الأحداث على هذا النحو لأن ما يرويه المؤلف إنما هو خارج إطار المعقول. إلا أن تلك الأحداث وقعت بالفعل لأن الذباب السمين المتطاير من جيف الخيول بين نتف الثلج البيضاء لا يمكن وصفه من المخيلة وحدها، ولا بدّ للكاتب أن يكون قد رآه في واقع الحال في القرى الروسية عندما كان الفلاحون ينحرون ماشيتهم في سورة من الجنون قبيل إشاعة التعاونيات الفلاحية خوفاً من المصادرة والتأميم».

ويضيف فارلاموف في معرض حديثه عن «الحفرة»: «بلاتونوف ألّف واحداً من أفظع الكتب المدوّنة باللغة الروسية. «الحفرة» رواية في منتهى الكمال الفني، لكن هذا الكمال مرعب يثير الفزع والهلع في نفس القارئ».

لقد واصل بلاتونوف منذ مطلع الثلاثينيات الكتابة، فيما تظل أعماله في درج مكتبه، بعد أن غضب ستالين عليه في أعقاب نشر قصته «للتخزين» (1931) ومنع نشر جميع أعماله ومقالاته النقدية وأغلقت مجلة «النقد الأدبي» التي كانت تنشر كتاباته. وحتى قصته المعادية للفاشية «رياح القمامة» (1934) أدينت لما تضمّنته من روح السخرية «ولبُعدها عن الواقع»، كما ادّعت الرقابة. ولهذا السبب أيضاً لم تنشر آنذاك روايتاه «موسكو السعيدة» و«بحر الصِّبا» ومسرحيته «صوت الأب» ومقالاته عن بوشكين وغوركي وأخماتوفا وهمنغواي وتشابيك وباوستوفسكي وجرين. وفي هذه

الفترة ابتعد بلاتونوف عن معالجة القضايا الاجتماعية وأخذ يكتب عن المعاناة الروحية للانسان وعن موضوع الحب بنكهة فلسفية. كما كتب قصص «نهر باتودان» و«فرو» و«أفردويت» و«بيت من الطين في بستان البلدة»، وفيها جميعاً يبرز العامل السيكولوجي في وصف الشخوص.

ولم يتوان النقاد الرسميون في مهاجمة الكاتب. معظم الانتقادات الموجهة إلى أدب بلاتونوف من قبل الأدباء الرسميين هي عين الحقيقة. وفي غضبة أولئك النقاد الموالين للنظام تجسيد دقيق لحركة فكر بلاتونوف من الشيوعية التي كانت تدبّ في الأرض إلى الحرية القابعة في بطون المستقبل البعيد «وراء الجبال، وراء المدافن الجديدة»، على حد تعبيره. الحياة والموت متداخلان في كتابات بلاتونوف بمعادلة عجز عن تجاوزها في كل ما كتب. الشيوعية التي يتحدث عنها هنا وهناك بلغة التهكم المجازي مجرّد وهم طوباوي يلوح على أرض الواقع بشكل كاريكاتير ضاحك باكٍ. كتب أحد نقاده (ف. يرميلوف) يقول: «لا تزال رواياته مسكونة بشعوب وأقوام حزينة وشخوصها بُلْهٌ لا يمتّون بصلة إلى الواقع. ولا وجود في ذلك الواقع للحزب الشيوعي الذي هو أهم مكوناته. فبدلاً من الحزب نرى هناك ممثليه الحمقى الأغبياء الغريبي الأطوار، رغم مخزون الحماس الذي يمتلكونه».

* * *

رواية «بحر الصِّبا» مكرّسة للسوفخوزات، أي الاستثمارات

الزراعية الحكومية السوفيتية البائسة، لكنها ليست من طراز ما يسمّى بالروايات المهنية النقابية أو الإنتاجية. وقد يصح اعتبارها حكاية عن الزراعة السوفيتية في ذاك الزمان. والرأي السائد أن بلاتونوف كتبها في مطلع الثلاثينات. ولم تر النور إلا بعد نصف قرن، حيث نشرت في الغرب عام 1980، وفي الاتحاد السوفيتي عام 1986، في عهد المصارحة والتغيير (ميخائيل غورباتشوف).

من خلال بطلة الرواية، مديرة السوفخوز ناديجدا بوستالويفا، يصوّر بلاتونوف، بلغة تهكمية مريرة، بؤس الحياة السوفيتية وتنظيمها اللامعقول والمنافي للنزعة الإنسانية. بوستالويفا المليحة «تطعم بناء السوفخوز بجسدها»، كما قال أحد النقاد، وترشي المسؤولين السوفيت بالمغازلة، بل وحتى بالمضاجعة (والإجهاض الاصطناعي)، لتحصل على صندوق مسامير للاستثمارة التي تديرها. وقد أراد الكاتب لروايته ان تأتي متفائلة بجهود المهندس نيكولاي فيرمو وابتكاراته الرامية إلى الوصول إلى بحر الصِّبا ومياهه العذرية العذبة في أعمق أعماق الأرض، ولكن، ورغم النهاية السعيدة للرواية (فيرمو وبوستالويفا يستقلان الباخرة إلى أميركا للدراسة)، إلا أنها جاءت، كما هو شأن كل مؤلفات بلاتونوف، حزينة أليمة على العموم. ذلك لأن اهتمام الكاتب بالمعذبين وبضحايا الأحلام الطوباوية الاشتراكية كان يزداد مع تزايد الجهود المبذولة لتحقيق تلك الأحلام مع أنها كانت تبتعد أكثر فأكثر.

* * *

في فترة 1933-1935 كتب بلاتونوف بعد رحلته إلى تركمانيا رواية «الأشباح» (عنوانها الأصلي: «الجان»)، وبطلها نزار شاغاتايف موفد إلى الصحراء لإنقاذ قومه من الهلاك.

كتب الشاعر الروسي المخضرم يفغيني يفتوشينكو عن هذه الرواية يقول: «جاءت رواية الأشباح استجابة حية من الكاتب على أحداث الواقع السوفيتي في العشرينات والثلاثينات. وهي تجسّد مسيرة شعوب آسيا الوسطى المتخلفة آنذاك نحو الاشتراكية واتخذت عند بلاتونوف صيغة بحث عن السعادة يقوم به شعب خرافي مكوّن من أناس يتامى حُرموا إرادة الحياة وأنهكتهم العبودية والظلام. والوضع الذي يعيشه هذا الشعب يشبه الوقوف على حافة الهاوية، حيث تكفي بلوى أخرى جديدة، في عداد المصائب الكثيرة، لتودي به. وكل ما يملكه هذا الشعب المغلوب على أمره هو «القلب وحده عندما ينبض في الصدر»».

ويضيف يفتوشينكو: «تبدأ الأشباح كرواية سيكولوجية، وبالتدريج تتصاعد فيها عناصر الأسطورة، فكان من نتيجة هذا الامتزاج بين الأسس الاجتماعية-السيكولوجية والرمزية-الفلسفية أن ظهر إلى الوجود واحد من أفضل أعمال بلاتونوف عن مسيرة شعب إلى الحياة، إلى النور».

لقد ظهر بلاتونوف في بدايات القرن العشرين حين نضجت الظروف للثورة الروسية. ومعروف أن تلك الأعوام شهدت بزوغ مواهب متألقة أبدعت خيرة الأعمال الأدبية مثل «الدون الهادئ»

لشولوخوف و«أيام أسرة توربين» و«الحرس الأبيض» لميخائيل بولغاكوف و«روسيا المخضبة بالدم» لآرتيوم فيسيولي و«جيش الفرسان الأحمر» لإسحاق بابل وقصيدتي «حسناً» لماياكوفسكي و«المرأة المجهولة» لألكسندر بلوك وغيرها. وتجسّدت في أعمال بلاتونوف الأدبية روح العصر المأساوية والسخرية من الواقع المعاش مع التطلع إلى المستقبل المشرق في آن واحد. إلا أن بعض النقاد يشددون على رمزية بلاتونوف البعيدة عن التلميح إلى ذلك المستقبل. فيقارنون موضوعات رواياته بما ورد في الكتاب المقدس، ويرون أن «تشيفينغور»، مثلاً، ترمز إلى نهاية العالم، و«الحفرة» ترمز إلى برج بابل، فيما ترمز رواية «بحر الصِّبا» إلى الطوفان. وطوال عام 1950 عكف بلاتونوف، وهو طريح الفراش، على تأليف مسرحية «سفينة نوح»، إلا أن المنيّة عاجلته قبل أن يكملها.

* * *

في عام 1938 عانى أندريه بلاتونوف من مأساة عائلية أليمة، حيث اعتُقل ابنه (البالغ من العمر 15 عاماً) بتهمة ملفّقة سببها رسالة بدون توقيع أُرسلت إلى أجهزة الأمن حول تآمر الفتى لإسقاط النظام السوفيتي! وعُرف فيما بعد أن كاتب الرسالة أحد زملائه الذي كان ينافسه في حب فتاة تدرس معهما في المدرسة وأراد التخلص منه بهذه الوسيلة. وحاول بلاتونوف بكل السبل إنقاذ ابنه بوساطة معارفه، ومنهم ميخائيل شولوخوف، ولم يفرج

عنه إلا بعد مرور ثلاثة أعوام حين عاد الفتى إلى البيت مصاباً بالسل. وصار بلاتونوف يرعى ولده المريض حتى أصيب نفسه بالسل، فتوفّي بعده في عام 1951.

رواية الحفرة

في تمام الثلاثين من العمر، في هذا الشوط القصير من حياته الشخصية، فُصل فوشيف من مصنع الأدوات الميكانيكية، مورد الرزق الوحيد الذي يكفل له أسباب العيش. استندت حيثيات الفصل إلى مبرّرين لا ثالث لهما: قوى الرجل البدنية تدهورت، وصار يميل إلى التأمل في أثناء العمل منطوياً على نفسه شارد الذهن.

جمع فوشيف حاجياته في كيسٍ متواضع وترك الشقة إلى الخلاء، ليفكر في مصيره ويفهمه بشكل أوضح في الهواء الطلق. إلا أن الهواء الطلق فارغ خاوٍ، والأشجار الساكنة تحنو برفق على سخونة القيظ المعشش بين الأوراق، والغبار يستقرّ ضجراً كئيباً على الطريق الخالي من السابلة. تلك هي حال الطبيعة آنذاك. ولم يكن فوشيف يعرف إلى أين يتيمّم. فاستند بمرفقه إلى سياج واطئ لبناية في طرف المدينة يدرّبون فيها اليتامى والمنبوذين على العمل والمنفعة. عندذاك الحد تنتهي المدينة وينقطع امتدادها فجأة. فليس هناك سوى حانة للعمال الموسميين وذوي الدخل المحدود قائمة، شأن الدوائر الرسمية، بلا باحة ولا سور. وخلف الحانة تلة ترابية تنتصب عليها شجرة معمّرة تعاني من

الوحدة في صحو النهار. جرجر فوشيف قدميه حتى بلغ الحانة، ودخلها على مهل، تستدرجه أصوات بشرية منطلقة على السليقة. وجد أناساً أفلتوا زمام الروح وأطلقوا لها العنان منساقين وراء النسيان ليُغرقوا فيه تعاستهم. فهان الأمر عليه وتنفّس الصعداء بين هؤلاء التعساء، وأمضى الوقت في الحانة حتى المساء، إلى أن هبّت ريح تبدل لها الطقس وساءت أحوال الجو. اقترب من النافذة المفتوحة ليشهد بواكير الليل، فلمح الشجرة على التلة الترابية تتمايل بفعل الريح وتتلوى أوصالها بخفر وحياء. وفي مكان ما، ربما في بستان تعاونية باعة الحوانيت، تنبعث موسيقى رتيبة كئيبة من جوقة الآلات النحاسية، وتحملها الريح إلى الطبيعة عبر الخلاء المحيط بالمنخفض. الريح نادراً ما تحظى بمثل هذه الفرحة، وليس بوسعها أن تبتدع ما يضاهي الموسيقى، ولذا تقضي أوقات المساء راكدة بلا حراك. حل السكون بعد أن هدأت الريح، وتلفَّع الجو بظلام أكثر هدوءاً. جلس فوشيف أمام النافذة يحدق في ظلام الليل الرقيق وينصت إلى شتى الأصوات الحزينة ويعذب قلبه المطوق بعظام صخرية متصلبة.

- يا ساقينا - شق صوتٌ سكون الحانة الثقيل - أعطنا قدحين من البيرة لنبلل حناجرنا.

كان فوشيف قد لاحظ منذ حين أن الناس يترددون على الحانة أزواجاً كالعريس والعروس، وأحياناً يأتون إليها زرافات، كمواكب زفاف تناغيها الألفة والمودة.

إلا أن صاحب الحانة لم يقدّم البيرة للرجلين هذه المرة، فمسح كل منهما فمه المتحشف بطرف مئزره.

- يا لك من بيروقراطي متكبر! أليس من واجبك أن تخدمنا، نحن العمال، بمجرد الإشارة؟

لم يدخل صاحب الحانة في جدل مع عاملي البناء، فهو يحرص على قواه ولا يبددها أثناء الخدمة، محتفظاً بها لحياته الشخصية.

- خلاص، يا شباب، الحانة تغلق أبوابها. فاقضوا باقي أوقاتكم في بيوتكم.

التقط العاملان من الطبق كسرتي خبز مجفّف مملّح وانصرفا وهما يمضغانه. فيما ظل فوشيف لوحده في الحانة.

- يا هذا، كل ما طلبته هو قدح واحد، وتريد أن تبقى جالساً أبد الآبدين؟ لقد دفعت ثمن الشراب لا ثمن المكان.

أخذ فوشيف كيسه ومضى إلى ظلام الليل. السماء الفضولية تنور فوق رأسه بضوء نجومها المعذب، فيما أطفئت أضواء المدينة، وعانق النوم أولئك الذين توفرت لهم فرصة النوم بعد العشاء. هبط فوشيف إلى المنخفض في بقايا الأرض ورقد هناك منبطحاً على بطنه ليغفو ويفارق نفسه. لكنّ النعاس لا يراود المرء إلا إذا كان خالي البال، واثقاً من الحياة، قوي العزيمة في مواجهة النوائب، بينما انبطح فوشيف متوتر الذهن والأعصاب، ناشف الدماغ، لا يدري هل العالم بحاجة إليه أم لا موجب لوجوده أصلاً، والأمور سائرة بدونه على خير ما يرام؟

هبّت الريح من جهة مجهولة كيلا يختنق البشر بغيابها، وتناهى نباح واهن مرتاب من كلب في الضاحية أراد أن يذكّر الناس بوجوده وبأنه يؤدي واجبه حسب الأصول.

- الكلب هو الآخر يشعر بالملل. إنه يعيش، مثلي، بحكم ظهوره إلى الوجود.

تراخى بدن فوشيف من التعب، وأحس بالبرد ينتاب جفونه، فأطبقها على عينيه الدافئتين.

عندما استيقظ في الصباح كان صاحب الحانة قد فرغ من تنظيف كل ما يحتاج إلى تنظيف. وتململت الرياح والأعشاب في كل مكان مستبشرة بنور الشمس. فتح فوشيف عينيه البليلتين مكتئباً، وتذكّر من جديد أنه ينبغي أن يعيش ويحصل على الطعام ليعيش. فمضى إلى اللجنة النقابية في المصنع كي تدافع عنه وعن عمل لا حاجة لأحد به هناك. وقالوا له:

- الإدارة تدّعي أنك كنت تفكر أثناء العمل. فيمَ كنت تفكر يا رفيق فوشيف؟

- كنت أفكر في خطة الحياة.

- المصنع يعمل وفقاً لخطة إنتاجية جاهزة، أما خطة الحياة الشخصية فيمكنك أن تعالجها في النادي مثلاً.

- كنت أفكر في خطة الحياة العامة وليس الشخصية. أنا لا أخشى حياتي الشخصية، فهي ليست لغزاً.

- وماذا كنت تريد أن تفعل بهذا الخصوص؟

- كان بوسعي أن أبتدع شيئاً من قبيل... السعادة، فتزداد الإنتاجية بفعل نعيم الروح.

- السعادة، يا رفيق فوشيف، تأتي من المادية وليس من نعيم الروح. لا يمكننا أن ندافع عنك. أنت قليل الوعي. ولا نريد أن نكون ذيليين نزحف في مؤخرة الجماهير.

همّ فوشيف أن يلتمس منهم ولو أدنى فرصة للعمل تسدّ رمق العيش، ويتعهد لهم بأنه سيمارس التفكير في أوقات الفراغ فقط. إلا أن الالتماس يفترض توفّر الاحترام، ولم يشعر فوشيف بأنهم يحترمونه.

- تخافون الذيل لأنه طرف يمكن أن يبتر، ولذا تربّعتم على الرقبة.

- الدولة، يا فوشيف، منحتك ساعة إضافية للتفكير. كنت تعمل ثماني ساعات، ومدة العمل باتت الآن سبع ساعات. أليس الأجدر بك أن تسكت؟ لو أخذنا نفكر جميعاً، دفعة واحدة، فمن الذي سيعمل إذن؟

- لا جدوى من العمل بدون تفكير - قال فوشيف متأملاً.

ترك مقر اللجنة النقابية دون أن يحصل على عون. سار في طريقه وسط الصيف. وعلى جانبي الطريق يجري العمران وتشيد بنايات ومنازل سيقيم فيها بصمت أولئك الذين لا يزالون بلا مأوى. بدن فوشيف لم يعد يهتم بأسباب الراحة، فهو قادر على العيش بسهولة في العراء، في أي مكان مكشوف، بعد أن أثقل عليه الشعور بالتعاسة أثناء الشبع والاستقرار في شقته السابقة. مرّ من جديد جنب الحانة في تلك الضاحية، ثم ألقى نظرة على مكان مبيته الذي ظل فيه شيء من ذاته. ووجد نفسه في فضاء ليس أمامه سوى الأفق، فيما تداعب الريح الوجه المحدق في الأرض.

على مسافة كيلومتر تقوم دار مفتش المرور. كان هذا يتشاجر مع زوجته ويقرّعها بصوت مرتفع، فهو متعود على الصياح في الأماكن الخالية، فيما جلست المرأة عند النافذة المفتوحة وطفلها

في حضنها، وهي تردّ على زوجها بفاحش الكلام. أما الطفل فكان يمصّ صامتاً طرف قميصه، وهو يفهم ما يقال دون أن يقول ما يُفهم.

انتعش فوشيف وتحمّس للطفل الصبور. فقد رأى الوالدين منفعلين لا يدركان مغزى الحياة، بينما يعيش ابنهما بصفاء ونقاوة ويترعرع لمواجهة الآلام. وهنا عزم فوشيف على جمع شتات روحه، ولم يبخل بالبدن لتحريك الذهن، حتى يعود بعد قليل إلى منزل المفتش ويكشف للطفل النبيه عن سر الحياة الذي يتناساه والداه. ففي تقدير فوشيف: «بدناهما تائهان الآن، يتخبطان خبط عشواء، لعجزهما عن تحسّس جوهر الحقيقة».

- يا ويلكما، كيف لا تشعران بجوهر الحقيقة؟ - أطل فوشيف من النافذة إلى الداخل - الطفل ينمو وأنتما تتشاجران طول الوقت. لقد ولد هذا الطفل ليكمل العالم.

تطلّع الزوج والزوجة إلى شاهد العيان وغاص ضميرهما هلعاً ليختفي وراء وجهيهما الغاضبين.

- إذا لم يكن لديكما مبرر للعيش والاستقرار فاحترما ابنكما على الأقل، ذلك أفضل لكما وأهون عليكما.

- وما شأنك أنت؟ - سأله مفتش المرور بحقد دفين، وأضاف: - كنتَ ماشياً فامشِ، اللّه معك. لأمثالك عبّدنا الطريق...

توقف فوشيف في قارعة الطريق متردداً. والأسرة الصغيرة تنتظر، كاظمة غيظها، حتى ينصرف.

- كنت سأذهب، ولكنني لا أدري إلى أين. هل المسافة بعيدة إلى أقرب مدينة أخرى، أية مدينة؟

- كلا. إنْ لم تبق واقفاً في مكانك! - أجابه المفتش. - الطريق نفسه يقودك. من سار على الدرب وصل.

- احترما طفلكما. - قال فوشيف. - فهو سيبقى عندما تفارقان الحياة.

تفوّه بهذه الكلمات ومضى. وحينما ابتعد عن دار المفتش قرابة كيلومتر جلس على حافة الساقية. وسرعان ما انتابته شكوك في مغزى حياته، وشعر بخَور في بدنه لغياب الحقيقة. فهو عاجز عن المواصلة والسير على الدرب دون إلمام بالنظام الدقيق لبناء العالم كله، ودون معرفة بالوجهة التي يتعيّن عليه أن يصبو إليها. أثقلت عليه التأملات، فرقد على أعشاب الطريق المغبرة، والجو قائظ في ريح الضحى، وصياح الديكة يتناهى من القرية. كل شيء يعيش بلا هموم، سوى فوشيف الذي انعزل عن الأشياء ولاذ بأذيال الصمت. ورقة ذاوية ميتة حطت جنب رأسه. حملتها الريح من شجرة بعيدة وحكمت عليها الأقدار بالفناء على الأرض. التقط فوشيف الورقة اليابسة ودسّها في الجيب التحتاني لكيسه مع سائر الأشياء التعيسة المنبوذة والمهملة التي اعتاد على الاحتفاظ بها هناك. وفكر بشيء من العطف والمشاطرة: «لم يكن لحياتك معنى يا وريقة، ارقدي هنا. أما أنا فسأحاول أن أعرف السبب في وجودك وهلاكك. ما دمتِ متروكة في هذا العالم ولا أحد بحاجة إليك فسأحتفظ بك وأتذكرك».

- الكل يعيش في هذه الدنيا صابراً دون أن يدرك من أمورها

شيئاً، حتى لكأن أحداً أو زمرة من الناس جردتنا من الإيمان وسلبت مشاعرنا. - قال فوشيف على حافة الطريق ونهض ليواصل السير وسط الوجود الشمولي الصابر.

سار على الدرب حتى ألمّ به التعب. وقد ألمّ به التعب سريعاً، حالما تذكرت روحه بأنها لم تعد تعرف الحقيقة.

إلا أن المدينة لاحت من بعيد. الدخان يتصاعد من مخابزها التعاونية، والشمس الغاربة تنير الغبار المتراكم على السطوح من أثر تحرك السابلة. أول ما صادفه فوشيف في تلك المدينة ورشة حدادة انهمك عاملها في تصليح سيارة متداعية بفعل وعورة الدروب. كان رجل مترهل معوّق يقف جنب مربط الخيل. قال للحداد:

- يا ميخائيل، أعطني قليلاً من التبغ، وإلا انتزعت القفل من جديد في الليل.

لم يردّ عليه الحدّاد الممدد تحت السيارة. فلكزه المعوّق بالعكاز في عجيزته.

- ميخائيل، الأفضل أن تتوقف عن العمل وتعطيني تبغاً، وإلا ستكون الخسارة أفدح.

اقترب فوشيف من الرجل المعوّق ووقف جنبه. لفظت أعماق المدينة طابوراً من الكشافة الصغار تحدوهم موسيقى متعبة.

- أعطيتك أمس روبلاً كاملاً - أجابه الحدّاد - فاتركني وشأني أسبوعاً على الأقل. وإلا سَينفد صبري وأطعم نار الفرن بعكازيك.

- لا مانع - وافق المعوق. - سينقلني الشباب عندئذ بالعربة وأقتلع سقف ورشتك.

كفّ الحدّاد عن العمل عندما رأى الأطفال، واكتنفه شعور من الطيبة، فنثر في كيس سعوط المعوّق قليلاً من التبغ:

- خذ، يا حرامي.

لاحظ فوشيف أن الرجل مبتور الساقين، إحداهما بالكامل، والأخرى عبارة عن بديل خشبي مركب على جذمورها. وهو يقف مستنداً إلى العكازين وإلى خشبة البديل على بقية الرجل اليمنى. فمه يخلو من أسنان استهلكت كلها في مضغ الطعام. وبالمقابل انتفخ وجهه الغليظ وترهل ما تبقّى من بدنه. عيناه البنّيتان المتفتحتان على غير سخاء تنظران إلى العالم الغريب عليهما بجشع التشرد والإملاق وكآبة الرغبات المكبوتة. وفي فمه الأدرد تتلاطم اللثتان ناطقتين بأفكاره الصامتة.

ابتعدت جوقة الكشافة وهي تعزف مارش الفتيان. ومرّت البنات جنب ورشة الحدادة حافيات الأقدام بإيقاع دقيق وإدراك لأهمية المستقبل الذي ينتظرهن. أجسادهن الضعيفة الناشئة ملفعة بقمصان البحارة، وعلى رؤوسهن المتأملة المتنبهة طاقيات حمراء تستقر دون عناية، وسيقانهن مكسوّة بزغب الصبا. كل بنت تسير على نسق اصطفاف صويحباتها وتبتسم لشعورها بأهميتها وإدراكها لجدّية الحياة وما تتطلبه استمرارية الصف وقوة المسير. وقد ولدت كل بنت من هؤلاء الكشافة عندما كانت الحقول تغص بجيف أفراس الحرب الأهلية. ولم تظهر كل بنت إلى الوجود في بشرة طبيعية ساعة الميلاد، ذلك لأن أمهاتهن لم يجدن من القوت

سوى احتياطي أبدانهن. ولذا ظلت منطبعة على وجوه بناتهن مصاعب عجز الحياة المبكرة وشحة البدن وندرة جمال التعبير. لكنّ سعادة الصداقة في الطفولة وتحقيق عالم المستقبل في ألعاب الفتوة وفي الاعتزاز بالحرّية الشخصية الصارمة قد رسمت على وجوه الأطفال فرحة متباهية عوّضت عن جمال المحيّا وعن عدم اكتناز البدن في كنف الأسرة والحياة المنزلية.

وقف فوشيف وجلاً مرتبكاً من نظرات طابور الكشافة المسلطة عليه وهو لا يعرفهم. شعر بالخجل لأنهم ربما يدركون ويتحسّسون أكثر منه، لأنهم أطفال في عمر ينضج داخل البدن الطري. أما هو، فوشيف، فإن الفتوة النشيطة المستعجلة تزيحه وتبعده إلى سكون المجهول، ومجاهل السكون، شأن محاولات الحياة لبلوغ هدفها دون جدوى. شعر بالخجل وبفورة من الطاقات جعلته يرغب حالاً في الكشف عن مغزى الحياة الشامل المديد ليعيش في طليعة الأطفال ويتحرك بأسرع من سيقانهم السمراء التي تنضح رقّة وصلابة في آن.

ركضت بنت من صفوف الكشافة إلى حقل الجودار الملاصق لورشة الحدادة كي تقطف سنابل منه. انحنت تلك الصبية الغضّة فتعرّت شامة على جسدها البض، ثم عادت إلى الطابور لتختفي على عجل مخلّفة الحسرة في عيون فوشيف والرجل المعوّق. تطلّع الأول إلى الثاني، فرأى وجهه محتقناً بدم لا منفذ له، وقد ندت عنه آهة كالأنين وهو يحرك يده في أعماق جيب بنطاله. ظل فوشيف يراقب معاناة المعوّق الجبار، لكنه شعر بالارتياح لأن أطفال الاشتراكية لن يقعوا أبداً في أحضان وريث الإمبريالية

المشوّه هذا. غير أن المعوّق شيّع موكب الكشافة بنظراته حتى النهاية، ما جعل فوشيف يشعر بالخوف على عفاف البنات.

- حبّذا لو حوّلت أنظارك عنهن. الأفضل أن تتنشق سعوطك.

- اغرب عني يا هذا - زعق الرجل المبتور الساقين. لكن فوشيف لم يتزحزح من مكانه.

- هل أنت أطرش؟ - ذكّره المعوّق - أم أنك تريد أن تنال مني جزاءك؟

- كلا. - أجابه فوشيف - خشيت أن تقول شيئاً بخصوص تلك البنت أو تفعل ما لا يليق.

طأطأ المعوّق رأسه الكبير تحت ثقل الألم المعتاد:

- ماذا أستطيع أن أقول للطفلة يا نذل؟ أنا أتطلع في الأطفال للذكرى، فسأموت قريباً.

- يبدو أنك أصبت في معارك الرأسمالية، أليس كذلك؟ - تمتم فوشيف - ولكن المعوّقين أيضاً يمكن أن يعيشوا طويلاً. فقد رأيت بينهم معمّرين.

سلّط المعوّق نظرة على فوشيف، وكانت في عينيه قساوة العقل والحكمة، حتى أنه لاذ بالصمت في بادئ الأمر من شدة الغضب، ثم قال بلهجة قاسية متأنية:

- يصادف أن نجد معمّرين من هذا النوع، ولكن لا وجود لحمقى من أمثالك.

- إنني لم أشارك في حرب حقيقية. - قال فوشيف - ولو شاركت فيها لعدت، أنا أيضاً، ناقصاً مبتوراً.

- واضح أنك لم تشارك في الحرب. وهذا هو سبب بلاهتك. فالرجل الذي لا يرى الحرب يغدو كالمرأة التي لم تلد، ويعيش أبله طول عمره. أما أنت فالغباوة تنز من قشورك.

- آه. . .- تنهّد الحداد وأضاف:- انظر إلى الأطفال فتشتد بي الرغبة لأهتف: «يعيش أول أيار!».

التقطت موسيقى الكشافة أنفاسها لحظة، ثم عزفت أنغام المسيرة من بعيد. فيما ظل فوشيف يعاني من الضجر، ومضى إلى تلك المدينة ليعيش.

جاب الشوارع صامتاً حتى المساء وكأنه ينتظر من العالم أن يتفتح ويغدو واضحاً للجميع. لكن الغموض ظل كالسابق يسود الدنيا كلها في اعتقاده، فتلمّس في قرارة بدنه وأعماقه الحالكة موضعاً هادئاً خالياً لا شيء فيه يُعيق بدايات الصيرورة والنشوء.

كان فوشيف يتمشى جنب الناس، وكأنه يعيش على الهامش، ويتحسس قوة الذهن الكئيب المتصاعدة باطراد، فينسحب أكثر إلى الوحدة المحاصرة بالضيق والاختناق والأحزان.

في تلك الأثناء لاح أمامه وسطُ المدينة والعمران القائم فيه. مصابيح المساء الكهربائية تنير معدات البناء والإعمار. إلا أن ضوء الحقول الساكنة وعبق النعاس الذاوي وصلا إلى هنا من محيط الفضاء، وظلا معلّقين في الهواء دون أن تمسّهما يد. وفي البقعة المنارة بالكهرباء، بمعزل عن الطبيعة، أقبل الناس على العمل يشيدون أسيجة الطابوق ويسيرون حاملين الأثقال وسط

هذيان أخشاب البناء. ظل فوشيف أمداً طويلاً يراقب تشييد البرج المجهول. رأى العمال يتحركون بتوازن وتناسق دون تشنّج ولا هزّات، وكان البناء يرتفع ليقترب من نهايته.

- ألا ينخفض شعور الناس بحياتهم عندما ترتفع المباني؟ - تساءل فوشيف متشككاً. - يبني المرء منزلاً، لكنه ينفعل وتسوء حاله: فمن الذي سيعيش في ذلك المنزل يا ترى؟

ترك مركز المدينة إلى أطرافها، فيما خيّم الظلام المقفر، ولا أحد يسكن الطبيعة وليلها البهيم سوى المياه والريح. لا أحد سوى الأطيار تتغنى وتترنم تمجيداً لكآبة هذه المادة العظمى. فهي تحلّق من علٍ، وحالها أهون من حال الجميع.

خاض فوشيف في المكان الخالي حتى عثر على وهدة دافئة تصلح للمبيت. هبط إلى هذا المنخفض الأرضي ورقد متوسداً الكيس الذي جمع فيه كل الصغائر للذكرى والانتقام. وغفا مكتئباً. إلا أن شخصاً جاء إلى المكان يحمل مِحَشّاً، وأخذ يحشّ الأعشاب التي تنمو هنا من غابر الزمان.

عند منتصف الليل بلغ الرجل مقام فوشيف وأمره بالنهوض ومغادرة ما سمّاه بالساحة.

- ماذا دهاك؟- سأله فوشيف على مضض - عن أية ساحة تتكلم؟ هذا مكان مهجور لا أحد بحاجة إليه.

- ساحة البناء. سيغدو من الآن ساحة لبناءٍ من حجر. تعال في الصباح وانظر إلى هذا المكان المهجور، وإلا سيختفي قريباً، وإلى الأبد، تحت جنح العمران.

- وأنا ؟ إلى أين ألتجئ؟

- يمكنك أن تنام في العنبر. اذهب إلى هناك ولا تخشَ شيئاً. نم حتى الصباح، وعندئذ تنجلي الأمور أمامك.

مضى فوشيف حسب نصيحة الرجل، وسرعان ما لمح برّاكة أو عنبراً خشبياً أشبه بالقاووش أو الثكنة، وفي الداخل سبعة عشر أو عشرون شخصاً يغطون في النوم على ظهورهم، والقنديل الذاوي ينير الوجوه البشرية الغافية. كل النيام هزالى كالموتى، والمجال الضيق بين البشرة والعظام في كل بدن من تلك الأبدان محشو بعروق يدل انتفاخها على كثرة ما تضخه من دم أثناء العمل المضني. قماش القمصان يعلو وينخفض ليجسّد حركة القلب المنعشة البطيئة، ونبضاته الملاصقة لتلك القمصان، في ظلمة البدن الناعس الخاوي. تفرّس فوشيف في وجه أقرب النائمين ليرى هل يعبّر عن السعادة المتفانية لإنسان قانع بمصيره؟ لكن النائم مسجى كجثة هامدة. اختفت عيناه بكآبة وأسى في أعماق محجريهما، وتمدّدت قدماه الباردتان خائرتين في سروال العمل البالي. لا يُسمع في العنبر أي صوت سوى الأنفاس. ولم يرَ أحد من النائمين أحلاماً ولم يتلفظ بالذكريات. كل منهم متواجد في الحد الأدنى من الحياة دون أية زيادة. لم يبقَ على قيد الحياة أثناء النوم سوى القلب الذي يحرس الإنسان. شعر فوشيف ببرد التعب، فحشر نفسه بين اثنين من العمال النائمين طلباً للدفء. واستولى عليه النوم وهو غريب على هؤلاء الناس. أغمض عينيه مرتاحاً لوجوده بينهم. وظل نائماً، غائباً عن الحقيقة، حتى الصباح الوضاء.

* * *

في الصباح تململ دماغ فوشيف غريزياً. فاستيقظ، وراح يستمع، مغمض العينين، إلى أقوال غريبة تتناهى إليه عن كثب.

- إنه ضعيف.

- قليل الوعي.

- لا يهم. الرأسمالية خلقت الحمقى من بيننا، وهذا أيضاً من بقايا عصر الظلمات.

- ليته يناسبنا في منحدره الاجتماعي.

- يبدو من مظهره وبدنه أنه من طبقة فقيرة.

تفتّحت جفون فوشيف على ضوء النهار في تردّد وارتياب. نيام البارحة تحلّقوا حوله أحياءً ينظرون إليه هو العاجز الواهن. وسأله رجل تباطأت لحيته في النمو من شدة التعب:

- ما الذي جعلك تجوب هذه الأنحاء؟ لماذا تتواجد هنا؟

- أنا لا أتواجد هنا. - تفوّه فوشيف مستحياً من كثرة الحضور الذين يشعرون الآن بوجوده - إنني هنا أفكر لا غير.

- ولماذا تفكر وتعذّب نفسك؟

- بدني يعاني ويخور لغياب الحقيقة، ولا أستطيع أن أعتاش على العمل. كنت أفكر وأتأمل أثناء الدوام، ولذا فصلوني...

خيّم الوجوم على العمال وظلوا جميعاً صامتين قبالة فوشيف بوجوه ضجرة لاأبالية. إلا أن فكرة هزيلة، ومتعبة أصلاً، خطرت ببالهم وأنعشت نظراتهم الجامدة. فقال الرجل الذي تكلم قبل قليل:

- أين وصلت في البحث عن الحقيقة؟ أنت لا تعمل ولا تعايش مادة الوجود، فمن أين تغترف الأفكار؟

- وما حاجتك إلى الحقيقة؟ - سأله رجل آخر لعق شفتيه الناشفتين من طول الصمت. - ذهنك وحده يرتاح من الداخل في البحث عنها، أما ظاهرك ففي حال يرثى لها.

- يبدو أنكم تعرفون كل شيء. أليس كذلك؟ - سأل فوشيف معللاً نفسه بأمل خجول ضعيف.

- كيف لا؟ نحن نوفّر مستلزمات وجود كل المؤسسات. - أجابه الرجل قصير القامة الذي تباطأت لحيته في نموّها حول شفتيه المتحشفتين من شدة التعب.

في تلك الأثناء فتح الباب ودخل الرجل الذي حش الأعشاب في الليل حاملاً إبريق التعاونية. ماء الإبريق تسخن لحد الغليان على الفرن في باحة العنبر. وكان ذلك يعني أن دقائق النهوض من النوم انقضت وحان موعد الفطور استعداداً لمجهود النهار...

على الجدار الخشبي ساعة ريفية يخطو عقرباها صابرين مدفوعين بفعل رقّاص حديدي ثقيل. وعلى رقعة الساعة زهرة وردية اللون تبعث السلوى في نفس كل من يرى الوقت بأم العين. جلس العمال في صف على امتداد المائدة وراح الرجل الذي حش أعشاب الليل، وهو المسؤول عن تدبير شؤون السكن في العنبر، يقطع الخبز بالسكين ويقدّم لكل رجل كسرة يضيف إليها شريحة من لحم البقر البارد المتبقي من يوم أمس. انكبّ الرجال على تناول الطعام كالمعتاد، ولكن دون تلذذ ظاهر. وكانت وجوههم متجهّمة نحيلة تنمّ عن التعب والإرهاق بدلاً من الهدوء

والاطمئنان مع أنهم يدركون مغزى الحياة ويفترض، لهذا السبب، أن يتمتعوا بالسعادة الأبدية.

راح فوشيف يراقب هؤلاء الناس بأمل ضئيل وخوف من الضياع. فهم يعيشون الحياة بحزن ويستطيعون الحفاظ على الحقيقة في نفوسهم بدون زهو أو خيلاء. وكان فوشيف مرتاحاً لأن الحقيقة في هذه الدنيا كامنة في بدن شخص تحدّث معه للتو، وجهاً لوجه، ويكفيه أن يتواجد جنب ذاك الشخص حتى يتسامح تجاه نوائب الدهر ويجد القدرة على العمل.

- تعال، كلْ معنا. - ناداه العمال وهم يأكلون.

نهض فوشيف ومضى مستحياً متردداً ليتناول الطعام، دون أن يتأكد بالكامل من ضرورة العالم على العموم.

- لماذا أنت منكمش إلى هذا الحد؟ - سأله أحدهم.

- لا أدري بالضبط. - أجاب فوشيف - أنا أيضاً أريد أن أعمل الآن في مادة الوجود.

أثناء فترات الارتياب في صواب الحياة نادراً ما يأكل فوشيف باطمئنان، فهو دوماً يتحسّس روحه المتململة.

لكنه تناول الطعام هذه المرة ببرود أعصاب. وبعد الفطور قال له أنشط العمال، الرفيق سافرونوف، إنه ربما يصلح للعمل الآن، فالأيدي العاملة غدت ثمينة مثل مواد البناء. ومنذ عدة أيام يجوب مسؤول النقابة أطراف المدينة والأماكن الخالية بحثاً عن الفقراء غير المستخدمين ليشكّل منهم شغيلة دائمين، لكنه قلما يجد أحداً، فالناس جميعاً مشغولون بالحياة والعمل.

شبع فوشيف ونهض واقفاً بين الجالسين. فسأله سافرونوف:

- لماذا نهضت؟

- ذهني يعتكر في وضعية الجلوس وأفكاري لا تتطور ولا تتبلور. الأفضل أن أظل واقفاً.

- كما تشاء. يبدو أنك من المثقفين. فأولئك لا يهمّهم سوى التفكير.

- عندما كنت قليل الوعي عشت على العمل اليدوي، وفيما بعد لم أر مغزى الحياة، فخارت قواي البدنية.

جاءت إلى العنبر جوقة موسيقية عزفت أنغاماً حيوية متميزة ليس فيها أي معنى، لكنها تنطوي على حدس بهيج جعل بدن فوشيف ينتفض فرحاً وحبوراً. أنغام المفاجأة الموسيقية المثيرة أنعشت ضميره، فرأى أنها تنادي بالحرص على الحياة واجتياز درب الأمل حتى نهايته ليعثر المرء هناك على منابع هذا الإنشاد المؤثر ولا ينتحب أمام الموت كمداً من العبث واللاجدوى.

توقفت الموسيقى، فانهالت الحياة على الجميع بكلكلها القديم.

دخل مسؤول النقابة، وقد صار فوشيف على معرفة به، عنبر العمال وطلب منهم جميعاً أن يقوموا بمسيرة عبر المدينة القديمة ليروا أهمية العمل الذي سيبدأ، حالما تنتهي المسيرة، في الساحة الخالية التي سبق وحُشَّت أعشابها.

خرجت فرقة العمال بكاملها من العنبر وتوقفت مرتبكة قبالة الموسيقيين. تنحنح سافرونوف بافتعال، خجلاً من التكريم البهيج

الذي قوبل به في صورة الموسيقى. وراح الحفّار شيكلين يتطلع بدهشة وترقُّب، فهو لا يعرف لنفسه مناقب وخدمات تستحق هذا التكريم، إلا أنه راغب في سماع أنغام المسيرة المهيبة مرة أخرى، لذا تراه مبتهجاً بصمت. أما الآخرون فقد تدلت أيديهم بصبر واستحياء.

بسبب كثرة المشاغل والنشاطات لم يعد مسؤول النقابة يتذكر نفسه أو يتحسّسها. وهذا أسهل عليه. ففي معمعان العمل الرامي إلى رص صفوف الجماهير وتنظيم الأفراح الإضافية للعمال نسي تلبية حاجاته الشخصية وغدا نحيلاً هزيلاً ينام الليل في سبات عميق. ولو قلل من هموم عمله وتذكّر احتياجات أسرته وداعب في الليالي بدنه الذي تقلص وشاخ لشعر بالخجل من الاعتياش على بدلات الاشتراك النقابية الكئيبة. لكنه لا يستطيع أن يتوقف ليتأمل ويفكر.

تقدّم مسؤول النقابة إلى الأمام، باندفاع صادر عن إخلاصه للشغيلة واهتمامه بهم، لكي يعرض على العمال المؤهلين معالم المدينة الموزعة بشكل دورٍ وعزبٍ متناثرة. فهؤلاء العمال سيشرعون اليوم بتشييد العمارة الموحدة التي ستقيم فيها طبقة البروليتاريا المحلية بكاملها. وستعلو تلك العمارة شاهقة لتطل على كل الدور والعزب والباحات والأحواش، وستخلو المنازل الفردية الصغيرة من أهلها، فيغطيها عالم النبات بكساء كثيف، وتتوقف هناك بالتدريج أنفاس أبناء العهد البائد المنسي.

التحق بعمال العنبر عدد من البنّائين المشغولين في تشييد مصنعين جديدين. وتوترت أعصاب مسؤول النقابة بسبب إعجابه

باللحظات الأخيرة قبيل مسيرة عمال البناء في المدينة. وقرّب الموسيقيون أبواقهم من شفاههم، إلا أن جمهور العمال لا يزال يقف موزعاً غير مستعد للمسير. ولاحظ سافرونوف أمارات الجد الزائف على وجوه العازفين وشعر بالغيظ والأسف للموسيقى المهانة فقال غاضباً:

- ما هذه الألعوبة التي ابتدعتها النقابة؟ ما الداعي للمسيرة، وماذا يمكن أن نرى في المدينة؟

اختفت علائم الاستعداد والحماس من وجه مسؤول النقابة وشعر بخلجات نفسه، فهو يتحسّسها دوماً عندما يتعرض للإهانة.

- يا رفيق سافرونوف، المكتب النقابي في الناحية هو الذي أراد أن تطلع فرقتكم النموذجية الأولى على معالم الحياة القديمة المزرية في المدينة وعلى مختلف المساكن البائسة والظروف الكئيبة التي يرثى لها، وكذلك المقبرة التي دُفن فيها الكادحون بعد أن قضوا نحبهم قبل الثورة دون أن يذوقوا طعم السعادة. وعندذاك سترون هذه المدينة الميتة التي تتواجد في سهول بلادنا وتدركون في الحال ضرورة وجود بيت البروليتاريا المشترك الذي ستبدأون بتشييده بعد المسيرة. . .

- لا تداهن. - اعترض عليه سافرونوف - ما هذا الضحك على الذقون؟ أتظن أننا لم نر المنازل الصغيرة التي تقيم فيها الشخصيات الكبيرة؟ خذ جوقتك الموسيقية إلى منظمة الأطفال، أما نحن فسنبني العمارة بوعينا وحده.

- تقول إنني مداهن؟ - تفوّه مسؤول النقابة مرتعباً، وهو

يتفهم الموقف بمزيد من الوضوح - عندنا في المكتب النقابي شخص متملّق يتزلّف إلى الجمهور، وأنا، في رأيك، وصوليّ مداهن؟

شعر بوخزة في القلب، فمضى إلى مقر النقابة ولحقت به الجوقة الموسيقية.

روائح الأعشاب الميتة ورطوبة الأماكن المتعرية تفوح في الفسحة الخالية. وتنجلي بكل وضوح كآبة الحياة وضجر العبث واللاجدوى. سلّموا فوشيف رفشاً أمسكه بكلتا يديه وضغطه بشدة وكأنما يريد أن يستخلص الحقيقة من رفات الأرض. انصاع هذا المشرّد ووافق حتى على غياب مغزى الوجود. إلا أنه يريد أن يراقبه ويبحث عنه في هيولى بدن إنسان آخر على مقربة منه. ولكي يتواجد جنبه كان مستعداً أن يضحي، في سبيل العمل، ببدنه هو، الخائر المرهق بالفكر واللافكر، بالمعنى واللامعنى. وسرعان ما لاح ذاك الإنسان.

في الفسحة الخالية وقف مهندس ليس كهلاً ولا طاعناً في السن، إلا أن الشيب وخط شعره من مصائب الدهر وعوادي الزمن. إنه يتصور العالم كله جثة هامدة، ويحكم عليه من خلال الأشلاء التي يحوّلها إلى بنايات. وفي كل مكان يتواجد فيه ينصاع العالم، المكان، لذهنه الفطين وتصوره الواسع الذي لا يحدّه شيء سوى تحجّر الطبيعة. المادة تنصاع دوماً إلى دقّة الحساب والصبر والتحمل، لأنها ميتة جامدة وخالية قفراء. لكن الإنسان كائن حي يشغل مكاناً لائقاً بين سائر الجمادات الكئيبة. ولهذا بالذات ترى المهندس الآن يبتسم للعمال بتأدب ولياقة.

لاحظ فوشيف أن وجنتي المهندس مورّدتان، ولكن ليس لاكتناز البدن، بل لشدة نبض القلب، ولذا شعر بالإعجاب بهذا الرجل المنفعل. فبين جوانحه قلب ينبض.

وأفاد المهندس، وهو يخاطب الحفّار شيكلين، أنه وزع قطاعات العمل وعلّم أبعاد حفرة الأساس، ثم أومأ إلى الأوتاد المغروزة في الأرض وأضاف: يمكن الشروع بالحفر الآن.

استمع شيكلين إلى كلام المهندس وتأكد من توزيعاته إضافياً بالذهن والتجريب. فهو في الحفريات يترأس فريقاً من العمال، وحفر التربة أفضل مهنة يجيدها. وعندما يحين موعد وضع حجر الأساس ينتقل للعمل تحت إمرة سافرونوف. وقال شيكلين للمهندس:

– الأيدي العاملة قليلة. والعمل مرهق للغاية. ولن ننتفع إذا طال الوقت.

– بورصة العمل وعدت بإرسال خمسين شخصاً مع أنني طلبت مئة. – أجاب المهندس – لكنكم تتحملون المسؤولية كاملة عن متانة الأساس، وأنا أتحملها معكم، فأنتم الفريق القيادي.

– لن نقود أحداً، سنجعل الجميع على مستوانا، المهم أن يصلوا.

ما إن فرغ شيكلين من هذا الكلام حتى غرز رفشه في القشرة الأرضية العليا اللينة، وغرز معه وجهه في تركيز تأملي لاأبالي. وطفق فوشيف، هو الآخر، يحفر أعماق التربة ضاخاً كل طاقاته من خلال الرفش. فهو واثق الآن من إمكانية ترعرع الأطفال وتحوُّل الفرحة إلى فكرة، وسيجد إنسان المستقبل الهدوء

والاطمئنان في هذه العمارة المتينة ليتطلع من نوافذها العليا إلى العالم الفسيح الذي ينتظره. أباد فوشيف نهائياً وإلى الأبد آلافاً من الحشائش والجذور وملاجئ الديدان والحشرات الترابية الكدودة وواصل عمله في تلافيف الطين الكئيب. إلا أن شيكلين سبقه، فقد ترك الرفش من زمان، والتقط المخل الحديدي ليفتّت به الصخور المكبوسة في الأعماق. لقد شطب شيكلين نظام بناء الطبيعة العريق وألغاه دون أن يفهمه.

أسرع شيكلين في تفتيت التربة الأزلية انطلاقاً من إدراكه لقلّة عدد أفراد فريقه. وحوّل حياة بدنه كله إلى ضربات ينهال بها على الجمادات. قلبه ينبض كالمعتاد وظهره النحيف الصبور ينضح عرقاً، وليس تحت بشرته أية طبقة دهنية واقية. عروقه وبواطنه الشائخة تكاد تطفح على السطح، وهو يتحسس العالم المحيط به بدقّة لا تحتاج إلى الحسابات المتعمدة الواعية. كان في زمن ما أصغر سناً من الآن، وكانت الفتيات متيّمات به لتعطشهن إلى جسده المتين الذي يلبّي أي طلب بمنتهى التفاني من أجل الجميع. كان الكثيرون بحاجة إليه آنذاك ينشدون الحماية والاستقرار في دفئه وإخلاصه، لكنه كان يريد أن يحمي الكثيرين ليحتمي هو أيضاً ويشعر بالدفء والاطمئنان. وعندذاك هجرته النساء والأصحاب بسبب الحسد والغيرة، فصار يخرج في الليالي إلى ساحة السوق ضجراً مكتئباً، فيعبث بموجودات الساحة ويقلب أكشاك الباعة أو يحملها إلى أماكن أخرى حتى زُجّ به في السجن، وأخذ ينشد الأغاني من هناك في أماسي الصيف الزاهية الموشحة بلون الكرز.

عند الظهر غدت جهود فوشيف أقل مردوداً. وصار ينفعل من حفر التربة، فتخلّف عن سائر أفراد الفريق. ولم يكن يحفر أبطأ منه سوى عامل نحيل واحد. كان هذا الرجل النحيل المتواجد خلف فوشيف عابساً ضئيل البدن. عرق الضعف والخور يقطر على الطين من وجهه الكالح المتجهّم الذي تطوّقه دائرة من شعيرات متباعدة. كان أثناء رفع التراب من الحفرة يسعل ويتنحنح ليتخلص من البلغم، ثم يهدأ ويغمض عينيه وكأنه راغب في النوم.

- يا كوزلوف - صاح به سافرونوف - هل تعبت من جديد؟

- تعبت - أجاب كوزلوف بصوته الطفولي الواهن.

- في الليل تداري نفسك كثيراً تحت البطانية.- قال سافرونوف - سنجعلك تنام على الطاولة، تحت المصباح، لتشعر بالخجل.

سلَّط كوزلوف على سافرونوف عينين رماديتين محمرّتين ولاذ بالصمت اللاأبالي لتعبه الشديد.

- علامَ يلومك؟ - سأله فوشيف.

دسّ كوزلوف إصبعه في أنفه المعروق واستخرج منه قذىً، ثم أشاح بوجهه وتطلّع في جهة بعيدة وكأنه يشعر بحنين شديد إلى الحرّية، لكنه في الواقع لا يشعر بأي حنين. وأجاب وهو يداري غيظه بصعوبة:

- يقولون ليس عندي امرأة، ولذا أمارس الاستمناء في الليل ولا أصلح للعيش والعمل في النهار بسبب خواء البدن. إنهم، في الحقيقة والواقع، عارفون بكل شيء.

انهمك فوشيف من جديد بحفر التربة المتجانسة، ولاحظ أن كمّيتها، مع الأرض عموماً، لا تزال كبيرة، ولا بدّ من العيش طويلاً للتفوّق بالجهد والنسيان على هذا العالم الرابض تحت والذي يخبئ في ثنايا ظلماته حقيقة الوجود. وفكّر: ربما كان الأفضل ابتداع مغزى الحياة في الذهن. أفليس بالإمكان اكتشافه صدفة ولمسه بالإحساس العادي الحزين؟

- يا سافرونوف - قال فوشيف بعد أن خارت قواه من طول الصبر والتحمل - الأفضل أن أفكر بدون عمل. فمن المستحيل، على أي حال، حفر الدنيا كلها حتى القاع.

- لن تتمكن من التفكير عندئذٍ. - أفاد سافرونوف دون أن يلتفت - فلن تبقى لديك ذاكرة المادة، وستغدو مثل كوزلوف، تفكر في نفسك وتبتدعها كالحيوان.

- لماذا تئنّ وتتأوّه يا يتيم؟ - جاء صوت شيكلين من الأمام - انظر إلى الرجال وعشْ ما دمتَ ولدت.

تطلّع فوشيف إلى الرجال وقرر أن يعيش في كل الأحوال، ما داموا هم يعيشون صابرين: لقد ولد مع الناس ومعهم سيموت حين يوافيه الأجل.

- يا كوزلوف انبطح على بطنك لتستعيد أنفاسك - قال له شيكلين، وأضاف:- مسكين. إنه يسعل ويئنّ ويتأوّه باكتئاب. بهذه الصورة تُحفر القبور وليس أسس المباني والدور.

لكنّ كوزلوف لا يعير بالاً لإشفاق الآخرين. مسّد صدره الأصم البالي من تحت إبطه دون أن يلاحظه أحد، وظل يحفر

التربة المستعصية المتماسكة. فقد كان لا يزال يؤمن بعودة الحياة بعد تشييد العمارات الضخمة، ويخشى ألا يقبلوه في تلك الحياة إذا قدّم نفسه كعنصر طفيلي لا يعرف غير التذمّر والشكوى. بيد أن شعوراً واحداً ينتابه كل صباح. فهو يحس بأن أنفاسه تتعسر ونبضات قلبه تتعثر، ومع ذلك يأمل بالعيش في المستقبل، وإنْ ببقية ضئيلة من قلبه، لكنه بسبب ضعف القفص الصدري يمسّد أثناء العمل أحياناً مواضع فوق الضلوع ويقنع نفسه، هامساً، بأن تتحلى بالصبر والسلوان.

حلَّت الظهيرة ثم انقضت، لكنّ البورصة لم تبعث حفارين جدداً. استيقظ الرجل الذي حش الأعشاب ليلة البارحة، بعد أن شبع من النوم، فأنجز طهي البطاطس وكسر عليها بيضاً ونقعها بالزبدة وأضاف إليها شيئاً من عصيدة الأمس وزيّنها بعشبة الشبنت، وحمل هذا الطعام الخليط في قِدر إلى فريق العاملين ليدعم ما تهاوى من قوى أفراده.

تناولوا الطعام بصمت دون أن ينظروا بعضهم إلى بعض. أكلوا بلا جشع من غير أن يعترفوا للطعام بقيمة، وكأن قوى الإنسان تأتي من الإدراك وحده.

راجع المهندس، كعادته يومياً، مختلف الدوائر المعنية، ثم جاء إلى موقع حفرة الأساس. تنحّى جانباً حتى يأتي الرجال على ما تبقّى في القِدر، ثم قال:

– الاثنين سيأتينا أربعون شخصاً آخرون. واليوم سبت، حان موعد الانتهاء من العمل.

- كيف؟ لماذا؟ - سأل شيكلين - سنحفر متراً مكعباً آخر أو أكثر، ولا موجب لإنهاء العمل قبل ذلك.

- لا بدّ من إنهائه. - أصر المهندس - عملتم أكثر من ست ساعات، والقانون لا يسمح بذلك.

- هذا القانون للعناصر المتعَبة - اعترض عليه شيكلين - وعندي بقية من قوة حتى موعد النوم. ما رأيكم يا شباب؟ - خاطب الجميع.

- المساء بعيد - أفاد سافرونوف - فما الداعي لتضييع الوقت. الأفضل أن نعمل. نحن لسنا بهائم، ويمكننا أن نعيش على الحماسة وحدها.

- ربما تمنّ الطبيعة علينا ببعض أسرارها هناك تحت - قال فوشيف.

- وفي ذلك خير لنا. - عقّب أحد العمال.

أطرق المهندس برأسه، فهو يخشى أوقات الفراغ التي يقضيها في المنزل دون جدوى، ولا يعرف كيف يعيش وحيداً.

- إذن سأذهب أنا أيضاً لأرسم بعض التخطيطات وأحسب من جديد أبعاد ثقوب المساند.

- طيب، احسب من جديد، ولا ضير في كثرة الحسابات. - وافقه شيكلين - سنظل نحفر على أية حال، فالملل قتّال. عندما ننتهي سنعيش ونرتاح.

مضى المهندس على مهل. تذكّر طفولته عندما كانت الخادمة تغسل الأرضية قبيل الأعياد وترتب أمه أثاث الغرف، والجو

معتكر والمياه السائبة تسيل في الشارع، وهو، الصبي، لا يدري ماذا يفعل، فينتابه الملل والاكتئاب وينساق وراء التأملات. تعكر الجو الآن أيضاً، وزحفت فوق السهل غيوم الغسق البطيئة، وفي كل أرجاء روسيا يغسلون الأرضية استعداداً لعيد الاشتراكية. الوقت لا يزال مبكراً، فلا موجب للمتعة والارتياح، الأفضل أن يفكر ويتأمل ويخطط جزءاً من دار المستقبل.

شعر كوزلوف بالفرحة بعد أن شبع، فازداد ذكاءً وقال:

- يقال عنهم إنهم أسياد العالم، ومع ذلك لا يشبعون من الطعام. الأسياد يشيدون بيوتهم دفعة واحدة، أما أنتم فستموتون في أرض خلاء.

- أنت بهيمة يا كوزلوف - أكد له سافرونوف - ما حاجتك إلى البروليتاريا إذا كان بدنك هو كل ما يفرحك؟

- وما شأنك بما يفرحني؟ - أجابه كوزلوف - هل أحبني أحد مرة؟ يقولون لي انتظر حتى تموت الرأسمالية العجوز، وقد ماتت، ومع ذلك لا أزال أعيش وحيداً تحت البطانية، أليس ذلك سبباً وجيهاً للحزن؟

أشفق فوشيف على كوزلوف بسبب مودّته له وقال:

- لا تعبأ بالأحزان يا رفيق كوزلوف، فهي تعني أن طبقتنا تتحسّس العالم بمجمله، أما السعادة فهي بعيدة المنال في كل الأحوال... السعادة تجعل المرء يخجل من نفسه أمام تعاسة البؤساء.

وبعد ذلك نهض فوشيف والآخرون للعمل من جديد. كانت

الشمس لا تزال في أعالي السماء والأطيار تغرد باكتئاب في الجو المنير دون أن تتباهى أو تفتخر، فهي تبحث عن طعام في الفراغ. والسنونو تمرق واطئة فوق الحفارين بقاماتهم المنحنية، أجنحتها متلاصقة من التعب، وعرق القحط والفاقة ينزّ تحت الزغب والريش. إنها تحلّق منذ الفجر دون أن تكفّ عن تعذيب النفس من أجل إشباع صغارها وأمهاتهم. رفع فوشيف ذات مرة طيراً لقي حتفه في الجو وهوى على الأرض. كان الطير غارقاً في العرق، وعندما نتف فوشيف ريشه ليرى بدنه لم يبقَ بين يديه سوى كائن ضئيل يثير الشفقة نفق بسبب الإجهاد. وعندذاك لم يبخل فوشيف بالجهود لاقتلاع التربة المتلاصقة. ففي هذه الحفرة ستقوم عمارة يحتمي الناس فيها من تقلّبات الطقس وينثرون فتات الطعام من النوافذ للأطيار التي تعيش في العراء.

شيكلين ينهال بآخر قواه على التربة، يفتّت صخورها بالمخل دون أن يرى الأطيار والسماء ودون أن تخطر بباله أية أفكار، حتى هزل بدنه في الحفرة الطينية، لكنه لم يكتئب من شدة التعب، فهو يعلم أن هذ البدن سيمتلئ من جديد في سبات الليل.

جلس كوزلوف متعباً على الأرض وراح يهشم بالفأس طبقة متعرّية من الكلس. كان يعمل دون التفات إلى الزمان والمكان، ويصبّ بقايا قواه الدافئة على الحجر الذي يهشّمه، والحجر يتسخن فيما يبرد بدن كوزلوف بالتدريج. وكان يمكن أن ينتهي على هذه الصورة ويقضي نحبه دون أن ينتبه إليه أحد، بينما يغدو حجر الكلس هذا تركة بائسة يخلّفها للأجيال القادمة. تهدّل بنطاله من كثرة الحركة، ومن خلال البشرة نتأ عظما الساقين مقوّسين

حادّين كسكّينين مسننتين. وانفعل فوشيف لرؤية العظمين الناتئين واكتأب متوقعاً أن يبقرا جلد كوزلوف الرقيق ويبرزا إلى الخارج. فلمس ساقيه هو في ذينك الموضعين وقال للجميع:

- خلاص، حان موعد الانتهاء من العمل، وإلا ستهلكون. فمن يحل محل البشر بدلاً عنكم إذا نفقتم؟

لم يتلقَّ فوشيف الجواب. فقد اقترب المساء وارتفع في الأفق حجاب الليل الأزرق واعداً بالنوم والأنفاس الهادئة. وهوت على الأرض، كالأحزان، قبة السماء الموات. ظل كوزلوف يحطم الكلس في باطن الأرض دون أن يحيد ببصره عنه، ولعل قلبه المنهك الواهن ينبض بملل واكتئاب.

غادر المهندس المشرف على أعمال تشييد بيت البروليتاريا مكتب التصاميم تحت جنح الظلام. وكانت حفرة الأساس خالية. وغفا العمال في العنبر صفاً متراصاً من الأبدان، ولا يتسرب من شقوق الجدران الخشبية سوى بصيص من قنديل خافت بقي ينير المكان تحوّطاً لأية حادثة مؤسفة أو لأي شخص قد يرغب فجأة في قدح من الماء. اقترب المهندس بروشيفسكي من العنبر وحدّق في داخله من خلال ثقب في خشب الجدار خلّفه أصل غصن قديم. شيكلين راقد جنب الجدار، يده المنتفخة من الإجهاد تستقرّ على بطنه، والبدن كله يضجّ في السبات الذي يغذيه. كوزلوف حافي القدمين ينام وفمه مفتوح وحنجرته تبقبق وتزمجر وكأن الشهيق والزفير يخترقان دماً ثقيلاً قاتماً، وفي عينيه الشاحبتين شبه المغمضتين تترقرق دمعتان لعلهما نتيجة لحلم يراه في المنام أو لكآبة لا علم لأحد بها.

أبعد بروشيفسكي رأسه عن ألواح الجدار وطفق يفكر. على مسافة من هذا المكان تُبدِّد المصابيح الكهربائية ظلام مبنى مصنع هناك. لكن المهندس يعرف أن ذاك المبنى خالٍ إلا من مواد إنشائية هامدة ورجال متعبين لا يفكرون أصلاً. ولذا ابتدع فكرة الدار البروليتارية المشتركة بدلاً من المدينة القديمة التي يسكنها الناس حتى الآن في منازل صغيرة مسيّجة. وبعد عام يترك البروليتاريا مدينتهم المجزأة ليقيموا في العمارة الجديدة الضخمة. وبعد عشرة أعوام أو عشرين يشيد مهندس آخر في قلب العالم برجاً يأوي إليه شغيلة المعمورة جمعاء في إقامة أبدية سعيدة هانئة. كان بوسع بروشيفسكي أن يتصور الآن نتاج الميكانيكا الإنشائية المتميز بالفن والمنفعة والذي ينبغي أن يشيد في قلب العالم. لكنه لم يتمكن من استشفاف بناء الروح لدى نزلاء الدار المشتركة التي تشيد حالياً في هذا السهل، ناهيك عن تصور أهالي برج المستقبل في قلب العالم. فكيف سيكون، والحال هذه، بدن الفتى وبأية قوة مؤثرة سينبض قلبه ويفكر عقله؟

كان بروشيفسكي يريد أن يعرف هذه الأمور الآن بالذات، كيلا تقوم جدران عمارته على الرمال. فالدار ينبغي أن تكون مأهولة بالسكان، والناس ينبغي أن يكونوا مفعمين بدفء الحياة العميق الذي سمّي ذات مرة بالروح. كان يخشى تشييد البنايات الخالية، تلك التي يقيم فيها الناس بسبب سوء الطقس لا غير.

شعر بروشيفسكي ببرودة الليل وهبط إلى حفرة الأساس، حيث يسود الهدوء. جلس بعض الوقت في قاع الحفرة تطل عليه صخرة وإلى جانبه ملتقى طبقتين طينيتين مقشوطتين تستقر بينهما

تربة ليست ناشئة عنهما. هل ينشأ بناء فوقي من كل بناء تحتي؟ وهل يوفر إنتاج المادة الحيوية، أياً كان، روحاً للإنسان كمنتوج إضافي؟ وإذا أمكن تحسين الإنتاج حتى يبلغ منتهى التوفير فهل يعطي منتجات ثانوية غير متوقعة؟

منذ الخامسة والعشرين صار المهندس بروشيفسكي يشعر بضيق الوعي ونهاية فهم الحياة، وكأن جداراً قاتماً انتصب أمام إحساسه وعقله. ومنذ ذلك الحين يتعذب متململاً أمام هذا الجدار ويعلل نفسه، على سبيل التهدئة، بأنه أدرك في الواقع نظام الأشياء الحقيقي الوسطي الذي يقوم عليه العالم والبشرية. فالعلوم الضرورية والفاعلة تتواجد أمام جدار وعيه. وليس وراء هذا الجدار سوى موضع ممل لا موجب للسعي من أجل بلوغه. ومع ذلك يتملّكه الفضول ليعرف هل اجتاز أحدٌ هذا الجدار الأصمّ وتقدّم إلى الأمام؟

اقترب بروشيفسكي من ألواح جدار العنبر وتطلّع عبرها، محني الظهر، إلى الجهة الأخرى، إلى أقرب النيام ليرى فيه شيئاً ما غير معتاد في الحياة. لكن الرؤية هناك باتت سيئة بعد أن تضاءل كيروسين القنديل. وتناهت إليه أنفاس بطيئة غائرة. فترك العنبر ومضى ليحلق ذقنه عند حلاق الورديات الليلية، فهو يحب أن تلمسه يد ما عندما يستولي عليه الضجر.

بعد منتصف الليل عاد بروشيفسكي إلى منزله، وهو عبارة عن جناح منفصل في بستان الفاكهة. فتح النافذة على الظلام وجلس برهة. النسيم الخفيف يداعب الأوراق أحياناً، لكن الهدوء يخيّم بعده من جديد. ووراء البستان تناهت أغنية يترنم بها شخص ما،

لعله المحاسب في طريق عودته من أشغال المساء أو عابر سبيل يطرد الملل والسهاد.

نجمة واهية تضيء معلّقة دون أمل في الخلاص. وهي بعيدة ولن تقترب أبداً. تطلّع إليها المهندس عبر غشاوة في الهواء، والوقت يمضي، وهو يفكر متحيراً:

- هل يتعيّن عليَّ أن أموت؟

لم يكن يعرف بالضبط ما الذي يحتاج إليه بقدر يحتم عليه أن يحافظ على نفسه ويبعد الموت. لم يبقَ لديه من الأمل سوى ما يدعوه إلى الصبر والسلوان. وفي ساعة ما، بعد تعاقب الليالي وتساقط أوراق الأشجار وازدهارها ثم موتها من جديد، بعد أولئك الذين التقاهم وفارقهم إلى الأبد، سيحين حينه فيرقد على السرير ويدير وجهه صوب الجدار ويلفظ أنفاسه دون أن يتمكن من البكاء. ولا يخلّف وراءه في هذه الدنيا سوى شقيقته. لكنها ستلد طفلاً وتحنو عليه، فيغدو عطفها على الرضيع أقوى من حزنها على أخيها الراحل إلى العدم.

- الأفضل أن أموت. - فكر بروشيفسكي - الجميع يستفيدون مني ولا أحد منهم يفرح لمقدمي. غداً أحرر آخر رسالة إلى أختي وأشتري طابعاً في الصباح.

رقد على السرير، بعد أن شد العزم على الانتحار، وغفا بسعادة اللامبالاة إزاء الحياة. وقبل أن يتحسس تلك السعادة كاملةً أفاق، بسببها، في الثالثة بعد منتصف الليل. أنار الغرفة وجلس في الضوء والسكون، محاطاً بأقرب أشجار التفاح، حتى

طلوع الفجر. عندذاك فتح النافذة ليستمع إلى تغريد الأطيار ووَقْع أقدام السابلة.

ما إن استيقظ الحفارون حتى دخل عليهم العنبر شخص غريب لا يعرفه أحد من العمال سوى كوزلوف بسبب خصوماته القديمة. إنه الرفيق باشكين رئيس المجلس النقابي في الناحية. احديداب ظهره وأمارات وجهه تدل على الكهولة التي داهمته ليس بسبب طول العمر فقط، بل لثقل الأعباء الاجتماعية أيضاً، ولذا فهو يتكلم بلهجة الآباء في حرصهم على الأبناء ويعرف أو يقرأ ما في النفوس والصدور.

كان يقول، عادة، عند النوائب والملمات: «طيب، ستأتي الفرحة والسعادة تاريخياً على أية حال»، ويطأطئ رأسه بخنوع واكتئاب، فلم يعد لديه ما يفكر فيه.

وقف باشكين أمام حفرة الأساس يتطلع إلى التربة كما يتطلع إلى أية مؤسسة إنتاجية. وقال للعمال:

- وتيرة العمل بطيئة. لماذا تبخلون بزيادة الإنتاجية؟ الاشتراكية يمكنها أن تستغني عنكم، أما أنتم فستموتون بدونها بعد أن تعيشوا حياة لا نفع فيها.

فقال له كوزلوف:

- نحن عادة نبذل قصارى جهدنا، يا رفيق باشكين.

- أين ثمرة جهدكم؟ لم تحفروا وتكدسوا سوى كومة واحدة.

لاذ العمال بالصمت متأثرين بتقريع باشكين. فقد رأوا أن الرجل على حق: ينبغي الإسراع في حفر التربة وتشييد العمارة،

وإلا سيموتون قبل أن ينجزوا المشروع. لا يهمّ أن تنقضي الحياة، كما تتوقف الأنفاس، ولكنْ مع إنجاز المشروع يمكن تنظيمها بشكل نافع لسعادة المسقبل الأكيدة وللأطفال.

جال باشكين ببصره في السهول والمنخفضات الأبعد. فمن هناك تبدأ الريح وتنشأ الغيوم الباردة ويتكاثر البعوض ومختلف الحشرات وتنتشر الأمراض، وينشط الأثرياء من أهالي الريف ويغفو المتخلفون، فيما يعيش البروليتاريون وحدهم في هذه الفسحة المقفرة الموحشة، وهم ملزمون ببذل قصارى الجهود، نيابة عن الآخرين، ليصنعوا بأيديهم مادة الحياة الطويلة ومستلزمات العمر المديد. ولذا أشفق باشكين على كل نقاباته واكتنفته الطيبة والعطف على الشغيلة، فقال:

- سأخصص لكم، يا رفاق، بعض التسهيلات على حساب النقابة.

- من أين لك بالتسهيلات؟ - سأله سافرونوف - ينبغي أن نوفّرها نحن أولاً، ونسلّمك إياها ثم تخصصها لنا.

سلّط باشكين على سافرونوف نظرة ثاقبة من عينين كئيبتين ومضى قاصداً دائرته في داخل المدينة.

لحق به كوزلوف وبادره قائلاً:

- يا رفيق باشكين، التحقَ بنا فوشيف وليس لديه ترخيص من بورصة العمل. والمفروض أن تعيدوه رسمياً بعد الفصل من الخدمة كما تقتضي الأصول.

- لا أرى في ذلك ما يسيء. فنحن بحاجة إلى البروليتاريين الآن.- حسم باشكين الأمر دون أن يلبّي طلب كوزلوف.

وفي الحال تدهور لدى هذا الأخير إيمانه البروليتاري وأراد أن يمضي إلى داخل المدينة ليحرر هناك عرائض اتهام ويثير المشاغبات لتأمين الانضباط التنظيمي.

سارت الأمور على ما يرام حتى الظهر. فلم يأتِ إلى حفرة الأساس أحد من المسؤولين التنظيميين أو الفنيين. ورغم غيابهم كانت التربة تتعمق وتتراجع أمام الرفوش ولا تعير بالاً إلا لقوة الحفارين وصبرهم. كان فوشيف ينحني أحياناً ويلتقط حصاة أو غيرها من الفرائد ويحتفظ بها في جيوب سرواله. فقد أفرحه وشغل باله تواجد الحصى الأبدي بين طيات الطين وفي غياهب الظلام. ما يعنى أن لها قصداً من البقاء هناك، وبالتالي فمن الأحرى بالإنسان أن يعيش.

بعد الظهر كاد كوزلوف يختنق. حاول جاداً أن يستنشق ويعبّ من الهواء بعمق، لكن الهواء لا يتغلغل في الجسم حتى البطن كالسابق، بل يفعل فعله بصورة سطحية. جلس الرجل على التراب المكشوف ولمس وجهه المتعظم. فسأله سافرونوف:

- أصابك الإجهاد؟ لا بدّ لك من ممارسة التمارين البدنية حتى يتقوى جسمك، لكنك مولع بالخصومات، إنك متخلّف التفكير.

في تلك الأثناء كان شيكلين يعالج بالمخل الحديدي صخرة صلدة دون أن ينتابه الكلل أو يفكر في شيء أو يطمح في تحسين المزاج، فهو لا يعرف الغرض من الحياة على نحو آخر، وإلا قد يتحوّل إلى لصّ أو يتطاول على الثورة لا سمح اللّه. وبادره سافرونوف قائلاً:

- خارت قوى كوزلوف من جديد. أظنه لن يعيش حتى قيام الاشتراكية، ففي بدنه عيب وظيفي.

بعد هذا الكلام أخذ شيكلين يفكر. فما كان أمام حياته مخرج طالما انتهى امتدادها في الأرض. مال بظهره البليل على جدار الحفرة، وتطلّع إلى بعيد متظاهراً بأنه يستعيد الذكريات. فلم يكن بوسعه أن يفكر أكثر من ذلك.

في المنخفض المتاخم للحفرة تنمو الحشائش على مهل الآن وتستقر الرمال التافهة جامدة لا تتحرك. والشمس التي لا تفارق هذه البقاع تضحّي ببدنها وتوزعه في سخاء على كل صغيرة وكبيرة في حياة هذه المنطقة الواطئة. وهي نفسها التي حفرت المنخفض في سالف الزمان بفعل سيول الأمطار الدافئة، لكن المنخفض لا يزال خالياً من أية منفعة للبروليتاريا. ولكي يتأكد شيكلين من قابلياته الذهنية مضى إلى المنخفض وقاسه بخطواته المعتادة وهو يتنفس بتوازن واعتدال كيلا يخطئ الحساب. كان المنخفض صالحاً تماماً لحفرة الأساس. ولا يتطلب الأمر سوى تخطيط المنحدرات والميلان وحفر القاع حتى مستوى المياه الجوفية. وعندما عاد شيكلين قال لرفاقه:

- مرض كوزلوف لا يهم. لن نواصل حفر التربة هنا. سنغرز العمارة في المنخفض، ونبني أعاليها هناك. وسيعيش كوزلوف حتى الاشتراكية.

توقف الكثيرون عن حفر التربة بعد سماع هذا الكلام وجلسوا ليلتقطوا أنفاسهم. إلا أن كوزلوف كان قد استعاد قواه بعد

التعب، وهمّ بالذهاب إلى بروشيفسكي ليخبره بأن الرجال لن يحفروا المزيد ويجب اتخاذ الإجراءات اللازمة للحفاظ على الانضباط. وعندما عزم كوزلوف على تقديم هذه الخدمة التنظيمية شعر بالفرحة والنقاهة مسبقاً. إلا أن سافرونوف أوقفه عند حدّه حالما خطا أول خطوة:

- إلى أين يا كوزلوف؟ هل أنت ذاهب إلى المثقفين؟ ها هم يهبطون بأنفسهم إلى جماهيرنا.

فعلاً. كان بروشيفسكي متجهاً إلى الحفرة في مقدمة أشخاص غرباء. بعث رسالته إلى أخته، وأراد أن يواظب الآن على العمل والاهتمام بمجريات الأمور ويشيّد أية بناية لمنفعة الغير بشرط ألا يعكر شيء صفو ذهنه الذي غرس فيه لاأبالية رقيقة فريدة تتواءم مع الموت ومع الشعور بالتيتم إزاء الناس الباقين على قيد الحياة. وهو يتحسّس حالياً عواطف رقيقة للذين ما كان يحبهم في السابق لسبب ما، أما الآن فيكاد يعتبرهم المفتاح الرئيسي لفك لغز حياته، فراح يتفرّس في الوجوه الغبية، الغريبة والقريبة، متأثراً منفعلاً دون أن يفهم شيئاً.

اتضح أن الغرباء عمال جدد بعثهم باشكين لتأمين وتيرة العمل وفقاً لمتطلبات الدولة. لكن القادمين الجدد لم يكونوا عمالاً في الحقيقة. فقد أدرك شيكلين رأساً، وبدون إمعان نظر، أنهم مجموعة من مستخدمي المدينة الذين دُربوا بالمقلوب ومن بعض الهائمين على وجوههم في السهوب ومن القرويين الذين اعتادوا السير على مهل وراء الأفراس الكادحة في فلاحة التربة. ولم يلاحظ في أبدانهم أي دليل على موهبة العمل البروليتارية، فهم

يصلحون أكثر للرقاد على الظهور أو الاستلقاء بوضيعة مريحة أخرى.

طلب المهندس من شيكلين أن يوزع العمال الجدد في حفرة الأساس ويدرّبهم. فمن اللازم التعوّد على العيش والعمل مع الناس الموجودين في هذه الدنيا على علّاتهم.

- ليس هذا صعباً علينا - علّق سافرونوف - سنحوّل تخلّفهم إلى همّة ونشاط في الحال.

- عين الصواب - تفوّه بروشيفسكي واثقاً ومضى خلف شيكلين إلى المنخفض.

قال شيكلين إن المنخفض عبارة عن حفرة أساس جاهزة لأكثر من النصف، ومن خلاله يمكن الحفاظ على ضعاف الأبدان لأجل المستقبل. ووافقه بروشيفسكي، فهو على أية حال سيموت قبل أن ينتهي البناء.

وقال سافرونوف، وقد ظهرت على وجهه غضون اختلطت بأمارات الوعي والأدب:

- تحرّك الارتياب العلمي في ذهني. - وأنصت إليه الجميع، فراح يتطلع إليهم بابتسامة ذكية كلها ألغاز، ثم أضاف على مهل:- من أين جاءت التصورات العالمية إلى الرفيق شيكلين؟ أم أنه تلقّى في الطفولة رعاية بالغة حتى صار يفضّل المنخفض أكثر من رأي المهندس المتخصص؟ ما الذي يجعلك تفكر، يا رفيق شيكلين، بينما أسير أنا كقشّة تافهة بين الطبقات ولا أرى وسيلة لتحقيق قابلياتي؟..

كان شيكلين سوداوي الطبع جداً ولا يرى مجالاً للشطارة والاحتيال، فأجاب على وجه التقريب:

- لا مخرج أمام الحياة سوى دفع الدماغ للتفكير. فالحاجة أمُّ الاختراع.

تطلّع المهندس إلى شيكلين كما يتطلع إلى قديس لا عمل له، ثم أمر بإجراء حفريات تنقيبية في المنخفض ومضى إلى مكتبه. وعكف هناك على تحليل دقيق لمواصفات الدار البروليتارية المشتركة كي يتحسّس الأشياء ويمحو صور الأشخاص من ذاكرته. وبعد زهاء ساعتين جاءه فوشيف بعيّنات من تربة الحفريات التنقيبية. «ربما يعرف مغزى حياة الطبيعة» - فكر فوشيف في المهندس برقّة ورفق، ثم سأل بدافع من الضجر الذي يكتنفه على الدوام:

- ألا تعرف سبب بناء العالم؟

استقرّت نظرة المهندس على فوشيف: هل يعقل أن هؤلاء أيضاً سيتحولون إلى مثقفين، هل يعقل أن الرأسمالية ولدتنا نحن توائم؟ يا إلهي ما أشد كآبة وجهه!

- كلا، لا أعرفه. - أجاب بروشيفسكي.

- كان الأحرى بك أن تعرفه طالما بذلوا جهداً في تعليمك.

- علّموا كل واحد منا على جزء ميت فقط من الكيان الكلي. أنا عارف بالطين والثقل والكتلة وميكانيك الاستقرار، لكنني قليل الاطلاع على المكائن والآلات ولا أعرف لماذا ينبض قلب الحيوان. لم يوضحوا لنا الكل بمجموعه ولا ما في داخله.

- شيء مؤسف - قال فوشيف. - فكيف كنت تعيش كل هذا العمر؟ الطين يصلح للطابوق، وهو قليل عليك.

أخذ بروشيفسكي عيّنات تربة المنخفض وركز أنظاره عليها. كان يريد أن يبقى وحيداً مع حفنة التراب الداكن. فتراجع فوشيف إلى الباب واختفى وراءه يعلك أحزانه بهمس غير مسموع.

حلّل المهندس عيّنة التربة وفحص خواصها من حيث الانضغاط والتشوّه. واستغرق التحليل أمداً طويلاً في إطار استمرارية التفكير التلقائي والعقل الخالي من الرغبات والأماني والآمال.

سابقاً، في غمار الحياة المحسوسة والسعادة الظاهرية، كان بوسع بروشيفسكي أن يحسب مقاومة التربة بدقّة أقل، أما اليوم فهو يريد أن يحرص على الأشياء والنظم كي تبقى محفوظة في الذهن وفي الفؤاد الخالي، بدلاً من المودة والتعلق بالآخرين. كان انشغال الرجل بمستلزمات استقرار البناية المرتقبة قد أمَّن له لاأبالية الفكر الصافي التي تقرب من المتعة والتلذذ. ولذا أثارت مواصفات البناء وتفاصيله اهتماماً لديه أفضل وأعمق مما تثيره الانفعالات في العلاقة مع الأصحاب رغم تماثل المشارب والأذواق. وحلَّت المادة الأبدية التي لا تحتاج إلى حركة ولا حياة ولا فناء محل شيء منسي وضروري للمهندس مثل خيال رفيقة العمر المفقودة.

فرغ بروشيفسكي من حساب المقادير وتأكد من متانة مسكن البروليتاريا المشترك، فتنفّس الصعداء لاقتناعه بمدى مقاومة المواد المخصصة لحماية الناس الذين لا يزالون يعيشون في

العراء. هان الأمر عليه ولم يعد يسمع شيئاً من داخله وكأنما يعيش ليس حياة لاأبالية متهوّرة في العادة، بل تلك الحياة التي همست له بها أمه في زمن ما، لكنه ضيّعها حتى في الذكريات.

ترك المهندس مكتب الأشغال الترابية دون أن يعكر هدوءه النفساني. وقد انسحب نهار الصيف الخاوي في الطبيعة إلى المساء، وانتهى كل شيء بالتدريج من قريب أو بعيد: الأطيار اختبأت وهمّ الناس بالتوجه إلى النوم وتصاعد الدخان الهادئ من المنازل الريفية النائية، حيث ينتظر الإنسان المتعب المجهول طعام العشاء جالساً جنب القِدر بعد أن صمّم على تحمُّل الحياة والتحلي بالصبر حتى النهاية. حفرة الأساس خالية. فالحفارون انتقلوا إلى العمل في المنخفض، وهم الآن يتحركون هناك. رغب بروشيفسكي فجأة في زيارة مدينة كبيرة بعيدة لا ينام الناس فيها باكراً، بل يفكرون ويتجادلون، وحوانيت الأطعمة مفتوحة في المساء وتفوح منها روائح النبيذ والحلويات، ويمكن أن يلتقي بامرأة غريبة تجاذبه أطراف الحديث طول الليل ليذوق طعم السعادة السحرية والمودّة، حيث يتوق إلى العيش وسط هذه الارتعاشات أبد الآبدين، وفي آخر اللقاء يودّعها ويطفئ مصباح الغاز ويفترقان في خواء الفجر دون موعد للقاء جديد.

جلس المهندس على مصطبة عند باب المكتب، مثلما كان يجلس في حينه أمام منزل والده. أمسيات الصيف لم تتغير منذ ذلك الحين. كان يحب متابعة السابلة، بعضهم يعجبه، وهو يأسف لأن الناس ليسوا متعارفين فيما بينهم جميعاً. وظل يلازمه بهذا الخصوص شعور حي كئيب حتى اليوم. ذات مساء مرّت فتاة

جنب منزل طفولته، ولا يستطيع الآن أن يتذكر محيّاها ولا السنة التي جرى فيها الحادث، لكنه منذ ذلك الحين يتفرّس في وجوه النساء ولم يجد بينهن تلك التي اختفت وكانت مع ذلك رفيقته الوحيدة رغم أنها مرّت جنبه دون أن تتوقف.

إبان الثورة كانت الكلاب تنبح في كل أرجاء روسيا ليل نهار، لكنها صمتت الآن، فقد آن أوان العمل، والشغيلة ينامون بهدوء. رجال الشرطة يحرسون من الخارج هدوء مساكن العمال ليغطوا في نوم عميق يقوّيهم ويغذّيهم استعداداً لجهد الصباح. ولا يسهر الليل إلا البناة المناوبون، وكذلك المعوّق المبتور الساقين الذي صادفه فوشيف في طريقه إلى هذه المدينة. وقد وصل في عربة واطئة إلى الرفيق باشكين ليتسلّم منه نصيبه من الحياة، كما تعوَّد مرة كل أسبوع.

باشكين يقيم في منزل محترم مشيد من الطابوق المقاوم للحريق. نوافذه المفتوحة تطل على حديقة زاهية تنوّر فيها الزهور حتى في الليل. مرّت عربة المعوّق جنب نافذة المطبخ الصاخب كالمرجل حيث يعدّون طعام العشاء، وتوقفت قبالة مكتب باشكين. كان الرجل جالساً بلا حراك عند الطاولة يتأمل عميقاً في شيء لا يراه المعوّق. وعلى تلك الطاولة مختلف السوائل والعلب المستخدمة في تقوية البدن وزيادة الهمّة. فقد كسب باشكين قدراً كبيراً من الوعي الطبقي وشغل مكانته في الطليعة وحقق الكثير من المنجزات، ولذا يعتني ببدنه وفقاً لمتطلبات العلم ليس فقط من أجل فرحة الوجود شخصياً، بل ومن أجل أقرب جماهير العمال. وكان قد أدى تمارين رياضية سريعة

بأطراف بدنه الأربعة واستعاد حيويته ونشاطه وجلس إلى الطاولة من جديد. همّ المعوّق جاشيف أن يتفوّه بكلمة من النافذة، إلا أن باشكين كان في شغل شاغل، وبيده علبة صغيرة احتسى منها جرعة بعد زفير بطيء أطلقه ثلاث مرات. فقال المعوّق الذي لا يعرف قيمة الحياة وصحة البدن:

- طال انتظاري. هل تريد أن تتلقى جزاءك مني مرة أخرى؟

تململ باشكين بعض الشيء، لكنه ضبط نفسه، فهو لا يرغب أبداً في هدر أعصابه جزافاً.

- ماذا دهاك يا رفيق جاشيف؟ ما الذي يعوزك ولماذا أنت منفعل؟

وردّ عليه المعوّق بكل صراحة:

- هل نسيت، يا برجوازي، لماذا أتحمّلك؟ أتريد ضربة على المصران الأعور؟ خذ بالك، كل القوانين ضعيفة أمامي.

وفي تلك الأثناء اقتطف المعوّق أقرب حزمة من الورد ورماها جانباً دون أن يشمّها أو يلاطفها. وأجابه باشكين:

- يا رفيق جاشيف، أنا لا أفهمك إطلاقاً. أنت تتسلَّم معاشاً من المرتبة الأولى، فلماذا تتشكى وتتباكى؟ وأنا ساعدتك دوماً واستجبت لمطالبك ونهضت للقائك.

- أنت تكذب يا حثالة الطبقات. أنا اعترضت طريقك، ولست أنت الذي نهضت للقائي.

دخلت زوجة باشكين الغرفة تمضغ اللحم بشفتين حمراوين، وقالت:

- أنت منفعل من جديد يا عزيزي. سأجلب له الصرّة الآن. لم أعد أتحمّل. تتحطم كل الأعصاب مع هؤلاء البشر.

عادت أدراجها مرتعشة من شدة الانفعال. فقال جاشيف من الحديقة:

- إلى أي حد أطعمت زوجتك يا سافل. إنها تصول وتجول دون جدوى. ومع ذلك أنت تعيل هذه القحـ. . .

لكنّ باشكين يمتلك خبرة كبيرة في قيادة المتخلفين لا تجيز له أن ينفعل، فقال:

- يمكنك يا رفيق جاشيف أن تعيل أنت أيضاً رفيقة حياتك. ففي حساب المعاش يراعى الحد الأدنى من الاحتياجات.

- عجيب. يبدو أنك سافل مؤدب - جاء تقويم جاشيف من الظلمة - معاشي لا يكفي حتى لرغيف الدُخن، للدخن وحده. ولكني أريد زبدة ولبناً. بلّغ نعجتك لتصبّ لي قشدة أجود في الزجاجة.

دخلت زوجة باشكين الغرفة وبيدها صرّة، فقال لها زوجها:

- يطالبنا بقشدة.

- ما أكثر مطالبه. ألا يريد أن نشتري له قماش الكريبستن ونخيط منه بنطالاً؟! أنت تمزح، أليس كذلك؟

- تريد أن أمزق لها تنورتها في الشارع - قال جاشيف من الحديقة - أم تريد أن أحطم زجاج غرفة النوم بحجر يبلغ طبلية التجميل التي تزين فيها بوزها؟ نعم، تريد أن تحصل مني. . .

زوجة باشكين لا تزال تتذكر كيف أرسل جاشيف إلى لجنة

الرقابة في المحافظة عريضة شكوى على زوجها واستمر التحقيق شهراً كاملاً، واعترضوا هناك حتى على اسمه ليف واسم أبيه إيليتش وقالوا لا بدّ من الاختيار بينهما، فإما هذا وإما ذاك. (إشارة إلى الزعيمين المتعارضين ليف تروتسكي وفلاديمير إيليتش لينين- ملاحظة المترجم). ولذا أحضرت للمعوّق في الحال زجاجة من قشدة التعاونية المركّزة، وتلقّف جاشيف الصرّة والزجاجة عبر النافذة وتحرّك بعربته ليغادر حديقة المنزل. إلا أنه توقف عند البوابة وقال:

- سأتأكد من جودة الأطعمة في البيت، وإذا وجدت بينها من جديد شريحة لحم فاسدة أو مجرد فتات خبز فانتظر مني قرميدة على الكرش. أنا من الناحية الإنسانية أفضل منكم. ولذا أنا بحاجة إلى طعام لائق.

ظلَّ ليف إيليتش باشكين مع زوجته حتى منتصف الليل دون أن يتمكن من التخلص من ضغط الانطباع الثقيل الذي خلّفه المعوّق جاشيف. إلا أن زوجته تجيد التفكير والتأمل لتطرد الملل، ولذا فكرت أثناء صمت زوجها وقالت:

- ما رأيك يا عزيزي؟ حبذا لو توليتَ أمر تنظيم جاشيف هذا حزبياً بشكل ما ورشحته لأحد المناصب. ألا يمكنه أن يقود المعوّقين مثلاً؟ كل شخص يجب أن يتولى دوراً حكومياً مهما كان ضئيلاً. وعندذاك يهدأ روعه ويتحلى باللياقة... ما أشد سذاجتك وثقتك بالآخرين، يا عزيزي.

عندما سمع باشكين كلام زوجته هذا طفح فيه الحب والاطمئنان وعادت إليه الحياة الكبرى من جديد.

- يا ضفدعتي العزيزة، أنت تتحسسين ميول الجماهير بعمق مدهش، فلأنظم نفسي معك إكراماً لفطنتك هذه.

وضع رأسه على جسد زوجته واكتنفه الهدوء متمتعاً بالسعادة والدفء. فيما واصل الليل وجوده في الحديقة. ومن بعيد يتناهى صرير عربة المعوّق. ومن هذا الصرير يدرك جميع البسطاء من أهالي المدينة أن الزبدة الحيوانية اختفت من الأسواق، لأن المعوّق يستخدمها في تشحيم عجلات عربته بعد أن يتسلَّمها في صرر من أثرياء الريف ويتلفها بهذه الصورة عمداً كيلا تتقوى أبدان البرجوازيين أكثر من اللازم. أما هو شخصياً فلا يرغب في تناول طعام أولئك الأثرياء.

في اليومين الأخيرين شعر المعوّق لسبب ما برغبة في رؤية نيكيتا شيكلين، فاتجه بعربته صوب حفرة الأساس.

- يا نيكيتا - ناداه عندما بلغ عنبر النائمين. وبعد هذا النداء لاح بمزيد من الوضوح سكون الليل والكآبة المخيمة على الحياة الحائرة في الظلام. ولم يبلغ مسامع جاشيف رد من العنبر. لا شيء هناك سوى أنفاس النيام الواهنة.

- لولا النوم لقضى العامل نحبه من زمان. - فكر جاشيف وواصل سيره بلا ضجيج. إلا أن شخصين يحملان فانوسين خرجا من المنخفض ووقع بصرهما عليه.

- من أنت يا قصير القامة؟ - جاءه صوت سافرونوف.

- أنا - أجاب المعوّق - الرأسمالية قلّصتني إلى النصف. نيكيتا شيكلين معك؟

- هذا ليس حيواناً، إنه إنسان على أية حال. - قال سافرونوف. - بلِّغه، يا شيكلين، بوجودك.

- أنار شيكلين بالفانوس وجه جاشيف وبدنه القصير، ثم حوَّل فانوسه بارتباك إلى جهة الظلام. وقال بصوت أقرب إلى الهمس:

- ماذا تريد يا جاشيف؟ هل جئت لتأكل العصيدة؟ تعال معنا، بقي عندنا شيء منها، وإنْ لم تأكلها ستتلف غداً، وسنرميها في كل الأحوال.

كان شيكلين يتحاشى إغاظة جاشيف ولا يريد له أن يزعل بسبب المعونة التي يقدّمونها إليه، فيوحي له أنه يأكل عصيدة لم ينتزعها من أحد لأنهم سيرمونها على أية حال. في السابق، عندما اشتغل شيكلين في تطهير النهر من الجذوع الغارقة، كان جاشيف يتردد عليه ليقتات على حساب الطبقة العاملة، لكنه غيّر مسلكه في منتصف الصيف وأخذ يقتات على حساب الطبقة الغنية ليعود بالمنفعة على كل الفقراء في بلوغ السعادة المنشودة.

- أوحشتني - قال جاشيف. - وجود السفلة يعذبني. وأريد أن أسألك متى تنتهون من بناء سخافتكم حتى نحرق المدينة.

- ما نفع هذا الأبله؟ - قال سافرونوف قاصداً المعوّق. - نحن نعصر أبداننا ونبذل قصارى جهدنا لتشييد المبنى العمومي، وهو يرفع شعار التسخيف ويقول إن جهودنا سخافة ليس فيها ذرّة من العقل.

سافرونوف يعرف أن الاشتراكية قضية علمية، ولذا يتفوّه

بكلماته بنفس القدر من العلم والمنطق مضمّناً إياها معنيين أحدهما أساسي والآخر احتياطي شأن أي مادة تتميز بالمتانة.

بلغ الثلاثة العنبر ودخلوه. مضى فوشيف إلى الركن وجلب من هناك قِدر العصيدة الملفوف بسترة قطنية كيلا يفقد حرارته. وقدّم الطعام للقادمين. استبرد شيكلين وسافرونوف وكانا مبللين ملوّثين بالوحل. فقد ذهبا إلى الحفرة ليكشفا عن موقع نبع مائي جوفي حتى يقيّداه بإحكام ويطوّقاه بجدار من الطين.

لم يفتح جاشيف صرّته. تناول عصيدة العمال لغرضين أولهما الشبع وثانيهما إثبات تكافؤه مع الرجلين اللذين أكلا معه. بعد الطعام خرج شيكلين وسافرونوف من العنبر لينظرا حواليهما ويشمّا النسيم قبيل النوم. وظلّا واقفين هناك طول الوقت. الليل القاتم المرصع بالنجوم لا يتجاوب مع تراب المنخفض العسير وأنفاس الحفارين النائمين المتقطعة. إذا تطلّع المرء إلى تحت فقط، إلى الصغائر الترابية الناشفة والأعشاب الكثيفة البائسة، لا يرى في الحياة أملاً. فقد تحيّر سافرونوف أمام حلوكة العالم الشاملة وأمام كآبة الناس القاسية، فتزعزعت المثل الأيديولوجية الراسخة في نفسه، حتى صار يرتاب في سعادة المستقبل التي يتصوّرها بشكل صيف أزرق تنيره شمس لا تغيب. فالأمور مشوّشة إلى أقصى حد ليل نهار واللاجدوى بادية للعيان في كل مكان.

– لماذا تعيش صامتاً طول الوقت يا شيكلين؟ ألا تريد أن تقول لي أو تفعل شيئا ما يفرحني؟

– هل تريد مني أن أعانقك يا ترى؟ – أجاب شيكلين –

سننجز حفرة الأساس بعون اللّه. . . حاول أن تُقنع أولئك الذين أرسلتهم البورصة إلينا، فهم يبخلون بأبدانهم في العمل وكأنما لتلك الأبدان قيمة.

- سأقنعهم بالتأكيد. - قال سافرونوف - سأحوّل هؤلاء الرعاة والكتبة إلى طبقة عاملة رأساً، وسيحفرون الأرض حتى تبدو أعراض التعب المميت على وجوههم. . . لماذا يكتسي الحقل بالكآبة يا نيكيتا؟ هل يعقل أن الأحزان تعشش في باطن الدنيا كلها، ولا تتواجد الخطة الخمسية إلا في أدمغتنا؟

رأس شيكلين صغير صخري التضاريس، تكسوه طبقة كثيفة من الشعر، لأنه كان طول حياته يطرق على السندان أو يحفر الأرض، فلا يبقى له وقت للتفكير. ولذا لم يردّ على سافرونوف ولم يبدّد شكوكه.

تنهّد الرجلان في السكون المطبق ومضيا للنوم. كان جاشيف غافياً في عربته ملتوي البدن على قدر الإمكان، فيما رقد فوشيف على ظهره وعيناه مفتوحتان تبصان بصبر وفضول. وقال:

- تدّعون أنكم تعرفون كل شيء في الدنيا، لكنكم لا تفعلون سوى حفر التربة والنوم. الأفضل لي أن أترككم. سأتسوّل في التعاونيات الفلاحية. يخجلني، على أية حال، أن أعيش بينكم بعيداً عن الحقيقة.

طبع سافرونوف على وجهه أمارة التفوّق والاستعلاء وسار بمشية قيادية خفيفة قرب أقدام النائمين.

- يا رفيق، خبّرنا من فضلك بأي شكل تريد الحصول على الحقيقة، بشكل كروي أم سائل؟

- اتركه وشأنه - قال شيكلين بحزم. - كلنا نعيش في دنيا خاوية، فهل تعرف نفسك طعم الاطمئنان؟

سافرونوف يحب جمال الحياة ويقدّر الذهن المؤدَّب. وهو متألم لمصير فوشيف، لكنه يعاني في الوقت ذاته من أشد درجات القلق: أليس وجود العدو الطبقي هو عين الحقيقة؟ فهو يلوح أمامه حتى في الأحلام والتصورات.

- كُفَّ يا رفيق شيكلين عن تصريحاتك مؤقتاً - قال سافرونوف بشعور من الأهمية الكاملة والاعتزاز بالنفس - فقد طرحت المسألة بصورة مبدئية ولا بدّ من معالجتها وفقاً لميول الجماهير وحالتها النفسية...

- حذار، يا سافرونوف، أن تقلل أجوري الفعلية - استيقظ كوزلوف - لا تتكلم عندما أنام، وإلا سأقدم شكوى عليك. فالنوم يحسب مثل الأجور. وهناك سيلقّنونك درساً...

تمتم سافرونوف بكلام من قبيل الموعظة، وأضاف بصوت أعلى:

- اعمل معروفاً يا مواطن كوزلوف وخذ قسطاً من النوم الهادئ. من أين جاءتنا هذه الطبقة من المثقفين العصبيين إذا كان الصوت يتحوّل عندهم رأساً إلى شكوى بيروقراطية؟... وإذا كنت، يا كوزلوف، تمتلك بدايات ذهنية وترقد في الطليعة فانهض قليلاً على مرفقيك وخبّرنا لماذا لم تخلّف البرجوازية للرفيق فوشيف جرداً بالمتروكات والمستحقات فصار يعيش متضرراً وبحال يرثى لها؟

لكنّ كوزلوف كان قد غطّ في نوم عميق ولم يعد يشعر بشيء سوى أعماق بدنه. أما فوشيف فقد انكفأ وراح يهمس لنفسه متشكياً من ألغاز الحياة التي ولد فيها دون رحمة.

رقد آخر الساهرين وعمّ الهدوء. وتجمّد الليل قبيل الفجر، وليس هناك سوى حيوان صغير يعوي من الأسى أو الفرح في مكان ما عند الأفق الدافئ الشفاف.

جلس شيكلين بين النائمين وهو يتذكر حياته صامتاً. كان أحياناً يحب الجلوس في صمت ويراقب كل ما يمكن أن يراه. وهو يواجه صعوبة في التفكير ويأسف لذلك أشد الأسف. فلا يبقى له غير الإحساس اللاإرادي والانفعال الصامت. وكلما أطال الجلوس تكاثرت عليه الأحزان لعدم تزحزحه من مكانه. ولذا نهض هذه المرة واستند بيديه إلى جدار العنبر لمجرد أن يضغط على شيء ما ويتحرك. لم يكن راغباً في النوم إطلاقاً. كان بودّه أن يمضي إلى الحقل ويرقص الآن مع الفتيات والناس تحت الأغصان كما اعتاد في الماضي، أثناء العمل في معمل القاشاني. ذات مرة طبعت ابنة صاحب المعمل قبلة خاطفة على خدّه في يونيو. كان يرتقي السلّم ذاهباً إلى ورشة عجن الطين وكانت هي هابطة، فاشرأبت على أطراف أصابعها وعانقته وقبلته على شعر خده بشفتيها المكتنزتين الصامتتين. وهو الآن لا يتذكر لا محيّاها ولا طباعها، لكنها حينئذ لم تعجبه وكأنها كائن لا يعرف الحياء. بهذه الصورة مرّ جنبها آنذاك دون أن يتوقف. أما هي، تلك الفتاة النبيلة، فلربما بكت فيما بعد.

ارتدى سترته القطنية الصفراء كالحمى، وهي السترة الوحيدة

عنده من عهد إسقاط البرجوازية، واستعدّ لليل، كما يستعدّ للشتاء، راغباً في التمشي على الطريق ليحقّق شيئاً ما يغفو بعده على ندى الصباح.

دخل العنبر شخص لم يعرفه في البداية وتوقّف في ظلمة الباب.

- ألم تنم بعد يا رفيق شيكلين؟ - قال المهندس بروشيفسكي. - أنا أيضاً أتمشى ولا أرغب في النوم. يخيّل إليّ طول الوقت أني فقدت شخصاً عزيزاً عليّ ولا أستطيع أن أجده. . .

لاذ شيكلين بالصمت، فهو يحترم المهندس الذكي، لكنه لا يجيد التعبير عن المؤاساة.

جلس بروشيفسكي على المصطبة وأطرق برأسه عازماً على مغادرة الدنيا. لم يعد يخجل من الناس، فجاء إليهم بنفسه.

- لا مؤاخذة يا رفيق شيكلين، أنا طول الوقت قلق وحيد في شقتي. ممكن أن أجلس هنا حتى الصباح؟

- لمَ لا؟- قال شيكلين. يمكنك أن ترتاح بيننا بهدوء. ارقد على سريري، أما أنا فسأدبّر حالي.

- كلا، الأفضل أن أجلس. شعرتُ بالحزن والفزع في البيت، ولا أدري ماذا أفعل. ولكن أرجوك، لا تظن بي سوءاً.

لم يكن شيكلين أصلاً يظن به سوءاً. فقال:

- لا تذهب إلى أي مكان. لن نسمح لأحد بأن يمسّك، فلا تخف.

ظلَّ بروشيفسكي جالساً على حاله، والقنديل ينير وجهه المتجهّم الذي لا يعرف طعم السعادة. لكنه شعر بالأسف لتصرّفه القليل الوعي عندما جاء إلى هنا، فلم يبقَ أمامه على أية حال وقت طويل حتى الموت والعدم.

فتح سافرونوف عيناً واحدة لمّا سمع من كلام، وأخذ يفكر في التصرف الأسلم الذي يتعيّن عليه أن يلتزمه نجاه ممثل شريحة المثقفين الجالس هنا. وما إن استقرّ رأيه على تصرّف معيّن حتى قال:

- أنت، يا رفيق بروشيفسكي، على حد علمي، قد أجهدت نفسك وأفسدت دمك لتبتدع سكناً مشتركاً لعموم البروليتاريا تتوفر فيه كل أسباب الراحة. وها أنا أراك قد جئت ليلاً إلى الجماهير البروليتارية وكأنك تتصور أن أحداً يلاحقك. وما دامت هناك سياسة لاستخدام الخبراء غير البروليتاريين فبوسعك أن ترقد قبالتي لترى وجهي على الدوام وتنام قرير العين...

استيقظ جاشيف هو الآخر في عربته. وقال قاصداً المهندس بروشيفسكي:

- ربما هو جائع. يمكنني أن أعطيه شيئاً من طعام البرجوازية.

- أي طعام هذا يا رفيق، وما نسبة التغذية فيه؟ - سأل سافرونوف مندهشاً - أين رأيت ممثلاً للبرجوازية هنا؟

- اخرس يا جاهل، يا حقير - أجابه جاشيف - مهمّتك أن تبقى على قيد الوجود في هذه الحياة، ومهمّتي أن أموت لأفسح المجال للآخرين.

- لا تخف. - قال شيكلين مخاطباً المهندس - ارقد واغمض عينيك. لن أبتعد عنك. وحالما تشعر بالخوف نادني.

مضى بروشيفسكي إلى سرير شيكلين محني الظهر تفادياً لإثارة الضجيج، ورقد هناك بثيابه، فيما خلع شيكلين سترته القطنية ورماها على قدمَي المهندس ليلتحف بها.

- لم أسدّد بدل الاشتراك في النقابة أربعة أشهر - قال بروشيفسكي بصوت خفيض وقد شعر بالبرد حالاً، فالتحف - كنت أتصوّر أن الوقت يكفي.

- إذن أنت الآن مفصول تلقائياً. تلك حقيقة لا جدال فيها.
- أفاد سافرونوف وهو في مكانه.

- ناموا بصمت. - قال شيكلين للجميع وخرج ليعيش لوحده في الليل الممل.

* * *

في الصباح ظلَّ كوزلوف واقفاً لأمد طويل وهو يتطلع إلى بدن بروشيفسكي الممدّ على السرير. كان يتعذب لأن هذا الرجل القيادي الذكي ينام، كمواطن تافه، بين الجموع الراقدة، وسيفقد، بالتالي، منزلته الرفيعة. أخذ يتأمل عميقاً في هذا الموقف المحيّر، فما كان يريد وما كان قادراً أن يسمح بتحمّل الدولة كلها خسارة من مسلك المهندس غير اللائق، حتى أنه انفعل واغتسل على عجل ليكون على أهبة الاستعداد. في مثل هذه اللحظات من الحياة، لحظات الخطر الداهم، يشعر كوزلوف

بفرحة اجتماعية عارمة في دخيلة نفسه، ويرغب في تحويل تلك الفرحة إلى مأثرة مشهودة ويموت ميتة حماسية لكي تعرفه الطبقة العاملة كلها وتبكي عليه. وانتابته رعشة لإعجابه بهذه الفكرة ناسياً أن الوقت صيف لا برد فيه. فاقترب من المهندس عمداً وأيقظه بإصرار وقال له ببرود:

- اذهب إلى بيتك يا رفيق بروشيفسكي. عمالنا لم يبلغوا بعد المستوى اللازم لفهم تصرّفك، ولن تتمكن والحال هذه أن تتحمل مسؤولياتك في الوظيفة.

- هذا لا يعنيك - أجابه المهندس.

- كلا، لا مؤاخذة. - اعترض كوزلوف - كل مواطن، في الحقيقة والواقع، ملزم بتنفيذ التوجيه الصادر إليه، أما انت فقد رميت واجبك عرض الحائط وهبطت إلى مستوى المتخلّفين. وهذا غير جائز. سأشكوك إلى المسؤولين. فأنت تُفسد خططنا وتُعيق وتيرة العمل وتعارض القيادة، تلك هي القضية.

كان المعوّق جاشيف يمضغ الطعام في صمت باللثتين، وقد رأى أن يسدّد الضربة هذا اليوم إلى بطن كوزلوف، ولكن فيما بعد، معتبراً إياه وصولياً دنيئاً يتسلق أكتاف الآخرين. أما فوشيف فقد سمع ذاك الكلام والعياط راقداً بصمت دون أن يفهم، كالسابق، مغزى الحياة. وكان يتصور: «حبذا لو ولدتُ بعوضة، فحياتها قصيرة».

نهض المهندس من الفراش دون أن يكلم كوزلوف، وتطلّع إلى فوشيف الذي يعرفه، ثم استقرّت نظرته على النيام. كان يريد

أن يتفوّه بكلمة أو يُطلق رجاءً يثقل عليه. لكن شعور الكآبة انسحب على وجهه، كالتعب والإرهاق، فمضى خارجاً. جاء شيكلين من جهة الفجر المنبلج وطلب من المهندس أن يأتي إليهم في المساء لينام عندهم إذا شعر بالخوف من جديد. وإذا كان يريد شيئاً فالأفضل أن لا يسكت.

إلا أن بروشيفسكي لم يردّ عليه. فواصلا طريقهما صامتين. بدأ النهار الطويل القائظ باكتئاب مملّ ثقيل. الشمس تطل لاأباليةً، كالعمياء، على البؤساء الذين لم يجدوا مكاناً لهم تحتها سوى هذا المنخفض.

قال بروشيفسكي:

- ذات مرة، من زمان، في الطفولة تقريباً، لمحتُ، يا رفيق شيكلين، امرأة مرّت قربي. كانت فتيّة مثلي آنذاك، في يونيو أو يوليو، ومنذ ذلك الحين أشعر بالاكتئاب وصرتُ أتذكر وأفهم كل شيء، لكنني لم أقابلها. وكل ما أريده في هذه الدنيا أن أراها مرة أخرى.

- أين رأيتها؟ - سأله شيكلين.

- في هذه المدينة.

- ابنة صاحب معمل القاشاني، أليس كذلك؟

- ماذا؟ أنا لا أفهمك. - قال المهندس.

- أنا أيضاً قابلتها في يونيو ولم أتطلع إليها آنذاك، وفيما بعد تدفأ في صدري شعور نحوها، مثلك تماماً. كانت عندي وإياك المرأة نفسها.

ابتسم بروشيفسكي بتواضع:

- لماذا؟

- سأجدها وستراها إذا كانت لا تزال على قيد الحياة.

تصور شيكلين أبعاد مصيبة بروشيفسكي، لأنه هو أيضاً حزن لتلك المصيبة في حينه، مع أنه أكثر نسياناً. حزن لفتاة نحيلة غريبة خفيفة الدم قبَّلته بصمت على خدّه الأيسر. ذلك يعني أن ظاهرة رائعة نادرة فعلت فعلها عن كثب وعن بُعد فيهما كليهما. وأضاف شيكلين بعد قليل:

- إنها عجوز الآن ولا بدّ. ربما تعذبت واسودّت بشرتها.

- ربما. - وافقه بروشيفسكي - مرّ على ذلك وقت طويل. وإذا كانت لا تزال على قيد الحياة فلا بدّ أن تتفحّم بشرتها.

توقفا على طرف الحفرة: كان من اللازم أن يتم حفر أساس البيت العمومي من زمان، ولو حصل ذلك لظلّت المرأة التي يحتاج إليها بروشيفسكي الآن سليمة معافاة.

- أغلب الظن - قال شيكلين - أنها تعمل الآن بهمّة ونشاط لصالحنا. فالذين يقعون في الغرام في فتوّتهم يتحلّون بالحكمة فيما بعد.

جال بروشيفسكي ببصره في أرجاء الطبيعة القريبة الخالية وأسف لأن حبيبته الضائعة وكثيرين من الناس النافعين ملزمون بأن يعيشوا ويهيموا في هذه الأرض اليباب التي لم تتوفر فيها بعد أسباب الراحة. فأطلع نيكيتا شيكلين على رأيه الكئيب:

- أنا لا أعرف ملامحها. فماذا سنفعل، يا رفيق شيكلين، عندما تأتي.

- ستحسّ بها وتعرفها. فما أكثر المنسيين في الدنيا. ستتذكرها بسبب أحزانك.

تفهّم بروشيفسكي مصداقية هذا الكلام. وأخرج ساعته متحاشياً إزعاج شيكلين، وتطلّع فيها كدليل على اهتمامه بقرب أعمال النهار.

جاء سافرونوف متبختراً في مشيته كالمثقفين، ومتظاهراً مثلهم بالتأمل والتفكير:

- سمعت أنكما تروّجان لاتجاهاتكما هنا، أنصحكما بأن تقلّلا من هذا النشاط وقد حان وقت العمل. ثم إنك، يا رفيق شيكلين، ينبغي أن توجّه اهتمامك إلى كوزلوف، فإن مسلكه تخريبي.

كان كوزلوف آنئذٍ يتناول طعام الفطور بمزاج معتكر. فهو يتصور أن أفضاله الثورية ليست كافية وأن المنفعة العامة التي يقدّمها يومياً قليلة. استيقظ البارحة بعد منتصف الليل وظل حتى الصباح يتقلب ويفكر بأن البناء التنظيمي الرئيسي يجري بدونه، فهو يعمل في منخفض الحفرة فقط وليس على النطاق القيادي الواسع. وفي الصباح قرر أن يحيل نفسه على التقاعد بمعاش المعوّقين ليكرّس كل طاقاته للمصلحة العامة الكبرى. بهذه الصورة الصعبة استيقظ ضميره البروليتاري.

عندما سمع سافرونوف بهذه الفكرة من كوزلوف شخصياً اعتبره طفيلياً، وصرح قائلاً:

- أنت، يا كوزلوف، حقّقت مبادئك وقرّرت أن تترك جماهير

العمال مدفوعاً بالرغبة في الترقية إلى حد بعيد. ما يعني أنك قملة غريبة علينا لا تخفي مسلكها أبداً.

- الأفضل لك، في الحقيقة والواقع، أن تسكت. - أجابه كوزلوف - وإلا سيدخل اسمك الإخبارية في الحال!.. هل نسيت كيف أقنعت أحد الفقراء أثناء إشاعة التعاونيات الفلاحية بأن يذبح ديكاً أكلته، فسقط ذلك الديك من حساب الملكية العامة؟ هل نسيت؟ نحن نعرف من الذي يحاول عرقلة إشاعة التعاونيات. نحن نعرف نواياك المبيّتة.

ترك سافرونوف اتهام كوزلوف هذا دون جواب وتنحّى عنه بمشيته المتغطرسة. فالفكرة في ذهنه تتواجد بين الاحتياجات والهموم المعيشية، وهو لا يطيق الإخباريات إذا كتبت عنه بالطبع.

اقترب شيكلين من كوزلوف وسأله عن المشكلة، فأجاب الأخير:

- سأذهب اليوم إلى مديرية الضمان الاجتماعي لأحيل نفسي على المعاش. أريد أن أراقب الجميع لأتمكن من مكافحة الأضرار الاجتماعية وعصيان البرجوازية الصغيرة.

- الطبقة العاملة ليست كالقيصر حتى تخشى العصيان. - أجابه شيكلين.

- صحيح، - وافقه كوزلوف - ومع ذلك الأفضل، في الحقيقة والواقع، حماية الطبقة العاملة.

كان جاشيف على مقربة منهما في عربته. تراجع إلى الخلف

ثم اندفع بسرعة إلى الأمام ونطح بطن كوزلوف برأسه دون كلام. سقط هذا الأخير من هول المفأجأة وفقد، للحظة، رغبته في تحقيق أكبر نفع اجتماعي. انحنى شيكلين ورفع جاشيف وعربته إلى أعلى وقذفهما بعيداً في الخلاء. وازن جاشيف حركته وتمكن، وهو يحلّق في الجو، أن يتفوّه قائلاً: «لماذا تفعل بي هكذا يا نيكيتا؟ أنا أردت له أن يتعوّق ليحصل على معاش من المرتبة الأولى». ثم هوى إلى أسفل فتحطمت عربته بين بدنه والأرض.

- انهض، يا كوزلوف، التقط أنفاسك واذهب إلى مديرية الضمان الاجتماعي. - قال شيكلين للرجل المطروح على الأرض - أغلب الظن أننا سنذهب جميعاً إلى هناك حسب الدور.

عاد كوزلوف إلى رشده وأعلن أنه صار يرى في المنام الرفيق رومانوف، مدير إدارة هيئات الضمان الاجتماعي، كما يرى مجتمعاً مغايراً من أناس بثياب نظيفة، ولذا فهو مضطرب كل هذا الأسبوع.

ارتدى كوزلوف سترته، وراح شيكلين والآخرون ينظفون ثيابه مما علق بها من أوساخ، فيما حمل سافرونوف بدن جاشيف المتعب ووضعه في ركن العنبر وقال:

- نترك هذه المادة البروليتارية في الركن، فقد ينشأ منها مبدأ ما.

تفضل كوزلوف وصافح الجميع، ثم مضى ليحيل نفسه على المعاش. وشيّعه سافرونوف قائلاً:

– مع السلامة. ستغدو من الآن فصاعداً كالملاك الطليعي الممثل للطبقة العاملة نظراً لصعودك إلى الدوائر الرسمية. . .

كان كوزلوف يجيد التفكير بنفسه، ولذا انسحب صامتاً إلى الحياة الرفيعة النافعة اجتماعياً، وأخذ معه صندوق حاجياته.

في تلك الأثناء أسرع إلى الحقل، وراء المنخفض، شخص مجهول الهوية، نحل بدنه داخل ثيابه، فصار سرواله يرفرف كأنه خاوٍ لا شيء فيه. اقترب الرجل من الجموع وجلس منزوياً على كومة ترابية كالغريب. أغمض إحدى عينيه وراح ينظر بالأخرى إلى الجمهور متوقعاً أسوأ الاحتمالات، دون أن يتشكى أو يتذمر. عينه ريفية مائلة إلى الاصفرار، تنظر باكتئاب إلى كل ما تراه بمنظار التقتير والاقتصاد.

بعد قليل تنهّد الرجل ورقد على بطنه ليأخذ قسطاً من النوم. لم يعترض أحد على وجوده هنا، فما أكثر الذين لا يشاركون في البناء. ثم إن موعد العمل في حفرة الأساس قد حان، ولا شأن للعمال بالوافد الغريب.

* * *

يرى أولئك العمال في المنام أحلاماً متنوعة، بعضها يجسّد أملاً تحقق، وبعضها يمثل إحساساً بتابوت في قبر بليل. أما أوقات اليقظة في النهار فهي متماثلة رتيبة تنقضي بانحناء الظهر وصبر البدن الذي يحفر التربة الندية ليغرس فيها جذراً حجرياً أبدياً للمبنى الشاهق الوطيد.

الحفارون الجدد تعوّدوا على العمل والعيش بالتدريج. ابتدع كلٌّ منهم لنفسه فكرة معيّنة للخلاص المنشود. بعضهم رغب في تأمين مدة خدمة تخوّله الالتحاق بالدراسة فيما بعد، وبعضهم ينتظر الفرصة لتغيير مهنته. وفضَّل آخرون الانتساب إلى الحزب والاختباء في الجهاز القيادي. وواظب كل منهم على حفر التربة بجهد جهيد وهو يداري فكرة الخلاص التي ابتدعها لنفسه.

ليف باشكين يتردد على حفرة الأساس بين يوم ويوم، ويرى وتيرة العمل بطيئة كل مرة. كان يأتي عادة على ظهر حصان، لأنه باع العربة في عهد التقشف والتقتير. وهو الآن يراقب الأعمال الهائلة من على ظهر حصانه. لكنّ جاشيف يظهر في الحال، أثناء تجوُّل باشكين سيراً على القدمين في أعماق الحفرة، ويسقي الحصان لدرجة جعلت صاحبه يخشى امتطاءه، فصار يستقل السيارة.

أما فوشيف فلا يزال مهتماً بالبحث عن حقيقة الحياة، إلا أن هزال التراب الثقيل جعله يرضخ للواقع ويكتفي بجمع مختلف الصغائر التعيسة في الآحاد بوصفها وثائق طبيعية لوعي العالم غير المبني على التخطيط ويعتبرها دليلاً على الأسى في كل نفس حية.

غدت الحياة في العنبر مملّة في الأمسيات بعد أن استطالت الليالي وعتمت. أقام بين العمال ذاك الفلاح ذو العينين الصفراوين الذي جاء من مكان ما من جهة الحقول الفسيحة. أقام صامتاً هادئاً، لكنه يدفع ثمن وجوده هناك بأداء الأعمال المنزلية العامة ولا يستنكف حتى من رتق الثياب البالية. وكان سافرونوف يفكر: ألم يحن الوقت لضمّه إلى النقابة في ميدان الخدمات؟

لكنه لا يعرف عدد رؤوس الماشية التي يمتلكها ذلك الفلاح في القرية ولا يدري هل يعمل عنده أجراء أم لا ، ولذا أجَّل مشروعه.

فوشيف يرقد في الأمسيات حزيناً مفتح العينين يفكر بالمستقبل، حيث ستتضح كل الأمور وتندرج ضمن الإحساس الضعيف بالسعادة. فيما يحاول جاشيف إقناع فوشيف بأن رغبته في السعادة جنون، ما دامت القوة الغنية المعادية تولد من جديد وتحجب نور الحياة. والمطلوب على الأقل هو رعاية الأطفال بوصفهم تجسيداً لرقّة الثورة وكذلك تحرير الوصايا اللازمة لهم.

قال سافرونوف ذات مرة:

- ما رأيكم يا رفاق، ألا ننصب جهاز راديو لنستمع إلى المنجزات والتوجيهات؟ فعندنا هنا جمهور متخلّف يمكن أن يستفيد من الثورة الثقافية والأنغام الموسيقية كيلا تتكدس الأمزجة السوداوية في النفوس.

فاعترض عليه جاشيف:

- لو أحضرت البنت اليتيمة لكان ذلك أفضل من الراديو.

- ما هي أفضال تلك البنت، يا رفيق جاشيف؟ وما الفائدة منها؟ ما نفعها في تشييد البناء؟

- إنها لا تتناول السكر على حساب بنائك، وهذا هو فضلها بالمقارنة معك. يجب أن ننزع روحك الأنانية. - أجابه جاشيف.

- حسناً - بتَّ سافرونوف في المسألة - أحضِر هذه البنت المسكينة، يا رفيق جاشيف، في نقلياتك وسنعيش بمزيد من الوفاق والتنسيق لرؤية محيّاها المليح.

وقف سافرونوف أمام الجميع في وضعية مدير التعليم ومحو الأمية، ثم جاب المكان بمشية راسخة ورسم علي وجهه أمارات الهمة والتفكير:

- يجب أن يتربّى عندنا هنا، يا رفاق، في هيئة رعاية الطفولة، زعيم العالم البروليتاري المرتقب. وبذلك يثبت الرفيق جاشيف أن رأسه سليم مع أنه مبتور الساقين.

همّ جاشيف أن يردّ على سافرونوف، لكنه فضّل في تلك اللحظة أن يسحب الفلاح الريفي الجالس قربه من بنطاله ويسدّد له بقبضته ضربتين في جنبه بوصفه برجوازياً مذنباً يتواجد هنا بين العمال. ضيَّق الفلاح جفونِ عينيه الصفراوين من شدة الألم. إلا أنه لم يدافع عن نفسه، وظل واقفاً على الأرض بصمت.

- يا له من سفود حديدي، وقف لا يخاف شيئاً - اشتد غيظ جاشيف وضرب الفلاح من جديد بيده الطويلة - يعني أن هذا الماكر كان متألماً أكثر في الأماكن الأخرى، أما عندنا فما أروع الوضع بالنسبة له. اعلم لمن السلطة يا ثور بليد.

جلس الفلاح على الأرض ليلتقط أنفاسه. كان قد تعوّد على تلقّي الضربات من جاشيف بسبب أملاكه في القرية، فتحمَّل الألم دون أن ينبس ببنت شفة. وقال سافرونوف:

- ينبغي للرفيق فوشيف أيضاً أن يتلقى العقوبة من جاشيف. فهو الوحيد بين البروليتاريا الذي لا يعرف الغرض من حياته.

- ما الغرض من حياتي يا رفيق سافرونوف؟- كان فوشيف ينصت من طرف العنبر - أنا أبحث عن الحقيقة من أجل إنتاجية العمل.

لوَّح سافرونوف بيده في إشارة وعظية وانطبعت على وجهه فكرة متغضّنة تنمّ عن الإشفاق على شخص متخلّف:

- البروليتاريا تعيش من أجل حماسة العمل يا رفيق فوشيف. وقد حان الوقت لتتبنى أنت أيضاً هذا الاتجاه. ينبغي أن يتأجج بدن كل عضو نقابي لهذا الشعار.

لم يكن شيكلين هناك. كان يجوب المنطقة المحيطة بمعمل القاشاني. كل شيء باقٍ على حاله، لكنه اكتسب صفة العالم البائد، وقد أكل الدهر عليه وشرب. أشجار الشوارع تحشفت من طول العمر وتعرّت بعد أن نفضت أوراقها من زمان. . . لكن البعض لا يزالون منزوين هناك وراء الأطر المزدوجة لنوافذ منازلهم الصغيرة، يعيشون حياة أكثر رسوخاً من حياة الأشجار. في زمن فتوّة شيكلين كانت روائح المخبز تفوح هنا، ويتجوّل باعة الفحم، ويتوارد الريفيون بعرباتهم يبيعون اللبن منادين بأعلى الأصوات. كانت شمس الطفولة تسخن غبار الدروب آنذاك، فيما بدت حياة الغلام أبدية على أديم الأرض الضبابي الداكن الذي وطئته لأول مرة قدما نيكيتا شيكلين الحافيتان. أما الآن فإن جو العفونة والقِدم وذكرى الوداع يخيّم على المخبز الكابي وعلى بساتين التفاح الشائخة.

إحساس شيكلين وشعوره الدائم بالحياة قاداه إلى الحزن والاكتئاب، وخصوصاً عندما رأى السياج الذي كان يجلس جنبه ويتمتع بفرحة الطفولة، بينما كسته الأشنات الآن ومال على جنبه ونتأت مساميره العتيقة بعد أن حرّرتها قوة الزمان من ضغط الأخشاب. كان ذلك محزناً في جو من الغيبية والغموض، لأن

السياج العجوز ينتصب بلا حراك وكأنه يتذكر شيكلين الذي تصلَّب عوده وبدّد مشاعره في النسيان وجاب الأماكن البعيدة ومارس مختلف الأشغال، فيما بقي السياج صامداً حتى الساعة التي عرّج فيها شيكلين عليه ولمس ألواحه المنسية بيده التي نسيت ملمس السعادة.

يقع معمل القاشاني في زقاق معشوشب لا يجتازه أحد من أوله إلى آخره، لأنه ينتهي عند جدار المقبرة المصمت. وقد انخفض مبنى المعمل إلى أوطأ مما كان عليه، فغاص في الأرض بالتدريج، وكانت باحته مقفرة موحشة. لكن عجوزاً ضئيل القامة، لا يعرفه شيكلين، كان لا يزال هناك. جلس العجوز تحت الظلة منهمكاً في رتق خفّه، ولعله ينوي العودة فيه من جديد إلى العهد القديم.

- ما الذي حدث هنا يا شيخ؟ - سأله شيكلين.

- أغلق المعمل، يا عزيزي، لأمد غير معروف. فالسلطة السوفيتية قوية، والمعمل ضعيف لا يناسبها. ثم إن الأمر سواء بالنسبة لي، فلم يبق من العمر إلا القليل.

وقال له شيكلين:

- ألم تكسب من خيرات الدنيا سوى هذا الخف؟ انتظرني هنا وسأجلب لك شيئاً من الثياب والطعام.

- من أنت يا ترى؟ - سأله العجوز وتغضّن وجهه تعبيراً عن الاحترام والاهتمام. - هل أنت نصّاب أم أنك سيد برجوازي؟

- كلا، أنا من البروليتاريا. - أفاد شيكلين على مضض.

- إحم! يعني أنك قيصر هذا الزمان. سأنتظرك إذن.

دخل شيكلين بناية المعمل العتيقة مدفوعاً بالخجل والكآبة. وسرعان ما وجد السلّم الخشبي الذي قبَّلته عليه ابنة صاحب المعمل ذات مرة. السلم بالٍ متداعٍ تقوَّض تحت ثقل شيكلين وهوى في ظلمة القاع، ولم يبقَ للرجل في الوداع الأخير إلا أن يلمس بقايا الحطام المتعب. وقف في الظلمة برهة، فلمح ضوءاً جامداً في رمقه الأخير وباباً يؤدي إلى جهة ما. ووراء ذلك الباب حجرة منسية أو غير واردة في مخطط المبنى، وهي بلا نوافذ، وعلى أرضيتها بصيص قنديل الكيروسين.

توقف شيكلين وسط الحجرة دون أن يعرف هوية الكائن الذي التجأ إلى هذا المأوى المجهول ليحافظ على حياته.

على الأرضية، جنب القنديل، رقدت امرأة تكاد تكون عارية، وقد دُعك القش وتهرّأ تحت بدنها. عيناها غائرتان في موقيهما وكأنها متكدرة أو نائمة. فيما جلست عند رأسها بنت تصارع النوم، لكنها تمسح شفتَي أمها طول الوقت بقشرة ليمون. انتبهت البنت من نعاسها ولاحظت الهدوء بادياً على أمها، والفك السفلي تدلى من الضعف وفغر الفم القاتم الخالي من الأسنان. ذعرت البنت لمنظر أمها، ولكي تطرد الخوف شدّت فمها بحبل حول الفك والرأس، فانطبقت شفتا المرأة من جديد. ثم مالت البنت برأسها على وجه أمها لتتحسّسها وتنام، إلا أن المرأة استيقظت في تلك اللحظة وقالت:

- لمَ تنامين؟ امسحي فمي بالليمون، ألا ترين حالي؟

وراحت البنت تمسح الشفتين بقشرة الليمون من جديد. هدأت المرأة شاعرة ببقايا الليمون. وسألت ابنتها:

– هل تعدينني بأنك لن تنامي؟ ألن تتركيني؟

– كلا. لم أعد راغبة في النوم. سأغمض عيني فقط وأفكر فيك طول الوقت. فأنت أمي.

فتحت الأم عينيها قليلاً، ولاح فيهما الارتياب والاستعداد لكل نوائب الحياة، وقد ابيضّتا من شدّة اللامبالاة. وقالت في محاولة للدفاع عن النفس:

– لم أعد أشفق عليك. ولم أعد بحاجة إلى أحد. صرتُ متخشّبة كالحجر. أطفئي القنديل واقلبيني على جنبي. أريد أن أموت.

لاذت البنت بالصمت متعمّدة وهي تبلّل فم أمها بقشرة الليمون. فقالت المرأة العجوز:

– أطفئي القنديل، وإلا سأظل حية لأنني أراك. ولكن لا تذهبي إلا بعد أن أموت.

نفخت البنت على القنديل فانطفأ. فيما جلس شيكلين على الأرض بحذر كيلا يثير ضجيجاً. وسألت البنت في الظلمة بعد قليل:

– ماما، ألا تزالين حية؟

– انتظري قليلاً. – أجابت الأم – عندما تتركينني لا تقولي لأحد إني بقيت هنا ميتة، ولا تخبري أحداً بأني أمك، وإلا سيقضون عليك. ارتحلي من هنا بعيداً وانسي كل شيء، وعندذاك تظلّين على قيد الحياة...

- ماما، لماذا تموتين؟ ألأنك من البرجوازية، أم لمجرد أن الموت عاجلك؟..

- من الملل والتعب. - أجابت الأم.

- لأنك ولدت من زمان بعيد، ليس مثلي أنا - قالت البنت - عندما تموتين لن أخبر أحداً، ولن يعرف أحد هل كنت موجودة أم لا. أنا سأعيش وأتذكرك في دماغي... - وأضافت بعد صمت قصير - سأغفو لحظة، بل نصف لحظة، أما أنت ففكري كيلا تموتي.

- حلّي الحبل، وإلا سأختنق به. - قالت الأم.

لكن البنت غرقت في نوم هادئ، وخيّم سكون مطبق على المكان. ولم تبلغ مسامع شيكلين حتى أنفاسهما. يبدو أن الحجرة خالية بالمطلق، ليس فيها جرذان ولا ديدان. فلم تكن هناك أية خشخشة. وللحظة تناهى دويّ غير مفهوم. فهل سقطت قرميدة عتيقة في الملجأ المجاور المنسي أم أن التربة لم تعد تصبر على الخلود فراحت تتفتّت آيلة إلى الفناء؟

- أما من أحد يأتي إليّ؟

شنف شيكلين أذنيه وزحف بحذر في الظلمة كيلا يدهس الطفلة في طريقه. زحف طويلاً، لأن شيئاً ما كان يعيقه. تلمّس رأس البنت، ثم بلغت يده وجه الأم. مال على شفتيها ليعرف هل هي تلك الفتاة التي قبّلته ذات مرة في هذا المبنى. قبّلها وأدرك من جفاف طعم شفتيها ومن بقايا الرقة البالية في ثناياهما المتحشفة المتشققة أنها هي بالذات.

- ما حاجتي إلى هذه القبلة؟ - قالت المرأة بوضوح. - من الآن فصاعداً سأبقى وحيدة أبد الآبدين.

استدارت، ثم قضت نحبها منكفئة على صفحة وجهها.

- يجب أن أشعل القنديل. - صاح شيكلين وراح يبحث عنه في الظلمة حتى أنار الحجرة.

البنت نائمة ورأسها على بطن أمها. انكمشت من برودة هواء القبو تنشد الدفء متكوّمة في ثنايا أطرافها الأربعة. ظل شيكلين ينتظر حتى تستيقظ الطفلة بنفسها، كيلا يعكر عليها راحتها. أخذها بين يديه لئلا تهدر بدنها على جثة الأم الباردة. وظلّت في حضنه حتى الصباح كآخر بقية حزينة من المرأة الميتة.

* * *

مع بدايات الخريف شعر فوشيف بطول الوقت فقبع في العنبر محاطاً بظلمة الأمسيات المتعبة.

والآخرون مستلقون أو جالسون والصمت يخيّم عليهم، والقنديل الوحيد ينير وجوههم. وكان الرفيق باشكين المتيقظ دوماً قد زوّد مأوى الحفارين بمكبر صوت إذاعي ليتمكن كل منهم أثناء الاستجمام أن يدرك مغزى الحياة الطبقية بمعونة هذا البوق المصياح. فهو يكرر بين لحظة وأخرى:

- أيها الرفاق! علينا أن نجمع أكبر كمية من القرّاص لجبهة البناء الاشتراكي. فهذا العشب يحظى بطلب كبير في الخارج. . .

- أيها الرفاق! علينا أن نقصّر ذيول الخيل وشعر عفراتها، فإن كل ثمانين ألف حصان تعوضنا عن ثلاثين جراراً. . .

استمع سافرونوف إلى هذه النداءات مبتهجاً، لكنه أسف لشيء واحد هو عدم قدرته على التكلم شخصياً من البوق ليتأكد الناس هنا من همّته ونشاطه واستعداده لحلق شعر الخيل وإحساسه بالسعادة. أما جاشيف ومعه فوشيف فقد شعرا بخجل لا مبرّر له من طول كلام الإذاعة. لم يكن لديهما اعتراض على المذيع وتوجيهاته، ومع ذلك أحسّا بالخزي الشخصي المتزايد. ولم يتمكن جاشيف في بعض الأوقات من تحمُّل اليأس والقنوط اللذين أثقلا على روحه، فكان يصيح وسط ضجيج الوعي السائل من بوق الإذاعة:

- أوقفوا هذا البوق، أريد أن أردّ عليه.

تقدّم سافرونوف في الحال بمشيته المتغنجة وقال:

- يخيّل إليّ، يا رفيق جاشيف، أنك أطلقت الكفاية من التعابير وحان الوقت لتنصاع بالكامل لأوامر القيادة.

- يا سافرونوف، اترك الرجل لحاله. - قال فوشيف - فنحن أصلاً نعيش حياة مملة.

إلا أن الاشتراكي سافرونوف يخشى نسيان واجب الشعور بالفرحة والسعادة، فكان يردّ على الجميع دوماً بصوت الجبروت المتعالي:

- كل من يحمل بطاقة عضوية الحزب في جيب بنطاله يجب أن يهتم طول الوقت بتوفير حماسة العمل في ثنايا بدنه. أناشدك، يا رفيق فوشيف، وأدعوك للمباراة من أجل أكبر قدر من السعادة وحسن المزاج.

ظلّ مكبّر صوت الإذاعة ينفث كعادته أصواتاً كالزوبعة

الثلجية، ثم أعلن من جديد أن كل شغيل يجب أن يعمل على تكديس الثلوج في الحقول التعاونية. وفي تلك اللحظة توقفت الإذاعة ربما لانفجار التقنية التي كانت حتى الآن تدحرج على صفحة الطبيعة بلامبالاة سيول الكلمات الضرورية للجميع.

لاحظ سافرونوف صمت مكبر الصوت وعجزه عن الكلام وراح يعمل بدلاً من الإذاعة:

- نطرح السؤال التالي: من أين نشأ الشعب الروسي؟ ونجيب: من صغار البرجوازيين، وكان بوسعه أن يولد من شيء آخر، ولكن لم يعد هناك مجال. ولذا يتوجب علينا أن نلقي بكل فرد في مرجل الاشتراكية لينزع جلده الرأسمالي ويلتفت فؤاده إلى سخونة الحياة حول موقد الصراع الطبقي، وعندذاك يثور فيه الحماس!..

لم يجد سافرونوف منفذاً ومتنفّساً لقواه الذهنية، فكان يطلقها في الكلمات الفضفاضة ويطنب في الحديث. البعض يستمعون إليه مسندين ذقونهم بأكفّهم ليحشوا بهذا اللغو فراغ الرؤوس الضجرة، والآخرون ينساقون وراء كآبة رتيبة منسحبين إلى صمت النفوس، فلا يسمعون الكلمات. جلس بروشيفسكي على عتبة باب العنبر يحدّق في مساء العالم الأخير. كان يرى الأشجار القاتمة وتتناهى إليه أحياناً موسيقى بعيدة تهزّ الهواء. لم يكن يعترض على شيء في مداركه ومفهومه. فقد بدت له الحياة طيبة، إذا كانت السعادة مستحيلة بعيدة المنال، ولا يدل عليها إلا حفيف الأشجار ولا يتغنى بها إلا عازفو الآلات النحاسية في حديقة النقابات.

وسرعان ما غفا جميع العمال الذين سلّموا مقاليدهم إلى التعب والإرهاق. غفوا مثلما كانوا في اليقظة، بقمصان النهار وسراويله، كيلا يجهدوا أنفسهم بفك الأزرار ولكي يحتفظوا بطاقاتهم لأجل العمل.

كان سافرونوف آخر من راوده النعاس. تطلّع إلى النائمين وقال بمرارة:

- أسفي عليكم يا رعاع. يصعب أن ننظم هيكل الشيوعية منكم. وماذا تريدون يا ملاعين؟ لقد عذبتم الطليعة كلها يا سفلة.

وبعد أن أدرك بوضوح تخلّف هذا الجمهور البائس مال على أحد المتعبين وغط في نوم عميق.

وفي الصباح حيّا البنت التي جاءت مع شيكلين دون أن ينهض من السرير، حيّاها كعنصر من عناصر المستقبل، وغفا من جديد.

جلست البنت بحذر على المصطبة وراحت تتطلع إلى خارطة الاتحاد السوفيتي بين شعارات الجدار، وسألت شيكلين مشيرة إلى خطوط الطول والعرض:

- ما هذه يا عم؟ حواجز وخانات للاحتماء من البرجوازيين؟

- أجل يا ابنتي. حواجز كيلا يزحفوا إلينا. - أوضح لها شيكلين في محاولة لغرس الروح الثورية في ذهنها.

- ماما لم تقفز ولم تزحف عبر الحواجز، ومع ذلك توفيت.

- ما العمل؟ - قال شيكلين. - كل نساء الطبقة البرجوازية يتوفّين الآن.

- فليكن، لا يهم. - قالت البنت - أما أنا فسأبقى أتذكر

ماما وأراها في المنام. لكنني تعوّدت أن أضع رأسي على بطنها، ولا أدري الآن كيف أنام.

- لا تهتمي، ستنامين على بطني. - وعدها شيكلين.

- وما الأفضل، الكريملين أم كاسحة الجليد «كراسين»؟

- لا أدري يا صغيرتي. فأنا شخص بسيط لا أكثر. - أجاب شيكلين وفكر في رأسه العاجز عن التفكير، ولو كان قادراً لأوضح للطفلة كل غوامض العالم لتعيش في أمان.

تفقدت البنت مكان إقامتها الجديد وأحصت كل الحاجيات وكل الرجال راغبة في البت رأساً في ما تحبه وما تنفر منه، في ما يصلح للتعامل معه وما لا يصلح. وبعد ذلك تعوّدت على ذاك المستودع الخشبي ورغبت في تناول الطعام.

- أعطني طعاماً يا يوليا وإلا قتلتك.

قدّم لها شيكلين عصيدة وغطى صدرها الصغير بشرشف نظيف.

- لماذا أعطيتني عصيدة باردة يا يوليا؟

- لماذا تسمّينني بهذا الاسم الأنثوي؟

- إنه اسم ماما. عندما كانت تنظر بعينيها وتتنفس تزوجت من مارتيننتش الذي هو من البروليتاريا. وحينما يأتي إلى البيت يقول لماما: يوليا سأقتلك. أما هي فتسكت وتعيش معه على أية حال.

بروشيفسكي يراقب البنت ويصغي إلى كلامها. لم يكن نائماً من زمان. شعر بالقلق لمجيء الطفلة، وانتابه الحزن في الوقت

ذاته لأن هذا الكائن المفعم بالحياة الغضّة، كالصقيع المنعش، سيتعذب بأشد من عذابه ولأمد أطول. وقال له شيكلين:

- عثرتُ على فتاتك. فلنذهب لنراها. لا تزال موجودة.

نهض بروشيفسكي ومضى معه، فلا فرق بالنسبة له بين الرقاد والذهاب.

أصلح العجوز في باحة معمل القاشاني خفّه، لكنه يخشى التجول في ربوع الدنيا.

- ألا تعرفان، هل يعتقلونني إذا مشيت بالخف أم لا؟ - سأل العجوز وأضاف: - الناس الآن، حتى أكثرهم فقراً، يتخطرون في جزمات جلدية. النساء من عهد آدم كنّ في ثياب بدون لباس داخلي، أما الآن فيرتدين اللباس المشجر تحت التنورة. يا سلام!

- من بحالك أنت؟ امضِ في طريقك صامتاً. - قال له شيكلين.

- أعاهدك لن أتفوّه بكلمة. ولكني أخشى أن يعتبروني فقيراً لأني أمشي في خف. وما دمتُ فقيراً فلماذا أعيش لوحدي ولا أنتمي إلى باقي الفقراء؟ هذا ما أخشاه، وإلا لذهبت من زمان.

- فكّر يا شيخ - نصحه شيكلين.

- لم يبقَ عندي دماغ للتفكير.

- عشتَ عمراً طويلاً ويمكنك أن تستفيد من ذاكرتك.

- نسيتُ كل شيء وكأنني ولدت من جديد.

هبطا إلى ملجأ المرأة وانحنى عليها شيكلين وقبّلها ثانية.

– ميتة. – قال بروشيفسكي مندهشاً.

– ثم ماذا؟ – أجابه شيكلين – كل إنسان يموت إذا عذبوه لهذا الحد. أنت بحاجة إليها ليس للمعاشرة، بل للذكريات وحدها.

جثم المهندس على ركبتيه ولثم الشفتين الميتتين المزموتين وتحسّسهما دون أن يشعر بالفرحة أو الحنان. وقال:

– ليست هذه تلك التي رأيتها في صباي. – وأضاف ناهضاً: – لا أدري، ربما هي. أنا عندما ألمس الأحباء عن قرب لا أتصور وجوههم، وحالما أبتعد عنهم أكتئب متحسراً عليهم.

ظل شيكلين صامتاً. فهو، خلافاً لزميله، يتحسّس حتى في الميت الغريب بقية من الدفء والتقارب إذا صادف وقبَّله في جبينه أو لمسه في مواضع أخرى.

لم يتمكن بروشيفسكي من الابتعاد عن المرأة الميتة. كانت خفيفة المشية دافئة البدن عندما مرّت جنبه ذات حين. وقد رغب في الموت آنذاك وهو يراها تبتعد مسبلة الجفون ويشيع بنظراته جسدها المتمايل المتكدر. وبعد ذلك صار يحنّ إليها وينصت إلى الريح في العالم الكئيب. وعندما خاف في تلك المرة أن يلحق بهذه المرأة، رمز سعادته في صباه، فقد يكون تركها دون حماية مدى العمر، حتى ملّت من العذاب واختبأت هنا، في هذه الحجرة، لتموت جوعاً وكمداً. وهي الآن مسجاة على ظهرها، حيث قلبها شيكلين عندما قبّلها. وظلت شفتاها متلاصقتين بسبب الحبل المشدود حول رأسها وذقنها. ساقاها الطويلتان العاريتان

مكسوّتان بزغب كثيف، يكاد يكون شعراً أو صوفاً، نما بسبب المرض والتشرد. فإن قوة غيبية منعشة حوّلت هذه المرأة التي كانت ميتة وهي على قيد الحياة إلى حيوان أشعر.

- كفاية. - قال شيكلين. - فليدفنوها هنا قرب مختلف الأشياء الميتة. الموتى كثيرون، مثل الأحياء، وهم لا يشعرون بالضجر عندما يلتقون.

لمس شيكلين قرميد الجدران ورفع شيئاً قديماً لا علم لأحد به ووضعه جنب الجثة. وخرج الرجلان. فبقيت المرأة مسجاة في السن الأبدية التي توفيت فيها.

وما إن اجتاز الرجلان الباحة حتى عاد شيكلين أدراجه من جديد إلى الباب المؤدي إلى موضع الجثة، وسدّه بكسار القرميد والأحجار القديمة وغيرها مما وقعت عليه يداه من المواد الثقيلة. ولم يساعده بروشيفسكي، بل سأله فيما بعد:

- لماذا تجهد نفسك؟

- سؤال غريب. - أجاب شيكلين مندهشاً. - الموتى بشر أيضاً.

- إنها ليست بحاجة إلى شيء.

- طبعاً، ولكني أنا بحاجة إليها، فليبق منها شيء. وأنا أدرك مغزى حياتي عندما أرى آلام الموت ورفات الموتى.

غادر العجوز الباحة بعد أن أصلح الخف، ولم يبق في مكانه سوى حذاء بال مرمي كذكرى لإنسان اختفى إلى الأبد.

أشرقت الشمس وارتفعت وحل موعد العمل من زمان.

فأسرع شيكلين وبروشيفسكي يغذّان السير صوب الحفرة، في دروب ترابية متعبة تغطيها أوراق تحنو على بذور الصيف القادم وتدفئها.

في مساء ذلك اليوم لم يشغّل الحفارون مكبّر الصوت، بل تحلّقوا حول البنت، بعد أن تناولوا الطعام، فأخفق النشاط الثقافي النقابي الذي تؤديه الإذاعة. ومنذ الصباح قرر جاشيف أن يبيد جميع الكبار والمسنين من أهالي منطقته حالما تترعرع هذه البنت وأمثالها من الأطفال بالتدريج. وهو وحده يعرف أن في الاتحاد السوفيتي كثيراً من أعداء الاشتراكية الموتورين والأنانيين والمراوغين والوصوليين، ويعلل نفسه سراً بأنه سيقتلهم جميعاً في القريب العاجل، ولا يترك على قيد الحياة سوى الصغار من أبناء البروليتاريين واليتامى الصرف. وسأل سافرونوف بدوره:

- من أنتِ يا بنت؟ ما عمل أمك وأبيك؟

- أنا صفر، لا شيء.

- لماذا؟ ألم يحالف الحظ أمك وقد ولدتك في عهد السلطة السوفيتية؟

- لم أكن راغبة أن أولد. كنت خائفة أن أولد لأم من الطبقة البرجوازية.

- فكيف جرى تنظيمك إذن؟

أطرقت البنت مستحية خائفة وراحت تعبث بطرف فستانها. فهي تعرف أنها موجودة بين البروليتاريا، فالتزمت الحذر كما أوصتها أمها مراراً وتكراراً من زمان.

- أنا أعرف الزعيم الأول.

- من هو؟ - سأل سافرونوف باهتمام.

- لينين، والزعيم الثاني هو بوديوني. عندما كانا غائبَين ولم يكن هناك غير البرجوازيين لم أولد أنا، لأني لم أرغب في الولادة، وعندما جاء لينين جئت أنا أيضاً.

- عفارم عليك يا بنت - تلفّظ سافرونوف بارتياح. - أمك امرأة واعية. ثم إن سلطتنا السوفيتية عميقة الجذور طالما يشعر بالرفيق لينين حتى الأطفال وهم أجنة في بطون أمهاتهم.

الفلاح المجهول ذو العينين الصفراوين يتأوّه في ركن العنبر متشكياً من مصيبته دون أن يذكر سببها، لكنه يفرط في محاولاته لإرضاء الجميع. وتراود ذهنه الحزين صورة قرية غارقة في الجودار والريح تحوم فوقها وتدير برفق طاحونة خشبية تطحن قمح الوئام والعيش الكفاف. كان يعيش على هذه الصورة قبل حين ببطن شبعان وفؤاد يرفل بالسعادة العائلية. وكلما أطال التطلع من القرية إلى الأفق وإلى المستقبل لا يرى في آخر السهل سوى السماء تلتحم بالأرض، وفوق الرأس كفاية من ضوء الشمس والنجوم.

وكيلا يتمادى هذا الفلاح في التفكير يرقد ويعجل في البكاء، فتسيل دموع لا يقوى على حبسها.

ويحاول سافرونوف أن يهدّئ من روعه:

- كفاك حزناً يا هذا. ألا تعلم بأن طفلة تقيم معنا الآن، وأننا ألغينا الأحزان؟

- كفكفت دموعي يا رفيق سافرونوف. - أعلن الفلاح من بعيد. - فقد سالت بسبب تخلّفي لا غير.

تركت البنت مكانها وأسندت رأسها إلى الجدار الخشبي. اشتدّ بها الحنين إلى أمها، وثقل عليها ليل الوحدة الجديد، وتصورت حزن أمها وطول انتظارها حتى تكبر ابنتها وتغدو عجوزاً وتموت. ثم التفتت إلى الرجال فتطلعوا إليها وسألتهم:

- أين البطن؟ على أي شيء أنام؟

رقد شيكلين واستعد في الحال.

- والطعام؟ - قالت البنت. - كلهم جالسون كالنساء الكسولات، ولا أجد طعاماً آكله.

دحرج جاشيف عربته نحوها وقدم لها حلوى من الفاكهة كان قد صادرها في الصباح من مدير متجر الأطعمة.

- كلي يا مسكينة، لا أحد يعلم إلى أين ستصلين، أما نحن فقد وصلنا.

التهمت البنت الحلوى ورقدت واضعة وجهها على بطن شيكلين. شحب لونها من التعب وغطت في النوم مطوّقة الرجل بيدها كما تعوّدت أن تفعل مع أمها.

تابع سافرونوف وفوشيف وسائر العمال لأمد طويل سبات هذا الكائن الصغير الذي سيعلو على قبورهم ويعيش في أرض محشوّة بعظامهم.

- يا رفاق - أخذ سافرونوف يتحدث عن مشاعر الجميع - يغط في النوم أمامنا أحد أهالي الاشتراكية في الواقع. الإذاعة

والمواد الثقافية الأخرى تعرض علينا الخط العام فقط، ولا شيء يمكن أن نلمسه لمس اليد. ولكنّ أمامنا الآن مادة الخلق والبناء وتوجيهاً حزبياً حياً يتجسّد في هذا الإنسان الصغير الذي قُدّر له أن يغدو عنصراً عالمياً شاملاً. ومن أجل ذلك يتعيّن علينا أن ننجز حفرة الأساس بجهد استثنائي مباغت حتى تقوم العمارة السكنية بأسرع ما يمكن ويحتمي الأطفال من الريح والبرد والأمراض بجدار من الحجر.

لمس فوشيف يد البنت وحدّق في بدنها كله كما اعتاد في الطفولة أن يحدّق في صورة الملاك على جدار الكنيسة. هذا البدن الضعيف اليتيم المتروك بدون أقارب بين الناس سيتحسس في زمن ما سيل الحياة ومغزاها الدافئ ويشهد عقله حيناً من الدهر شبيهاً بيوم الخليقة الأول.

وقرر الجميع في الحال أن يبدأوا حفر التربة غداً قبل الموعد المعتاد بساعة حتى يقرّبوا أجل وضع حجر الأساس ويواصلوا البناء.

- أنا، كإنسان معوّق، أرحب برأيكم هذا، لكنني لا أستطيع أن أساعدكم. - قال جاشيف - سوف تموتون على أية حال وأفئدتكم خالية، فالأفضل أن تحبوا كائناً حياً صغيراً وتسمّموا أنفسكم بالعمل لكي تبقوا على قيد الحياة إلى حين.

وبسبب برودة الجو أرغم جاشيف الفلاح العجوز أن يخلع رداءه الصوفي وألقاه على الطفلة ليقيها من برد الليل. فهذا الفلاح أمضى حياته كلها في ادخار المال وكان لديه وقت كافٍ ليتدفأ.

كان بروشيفسكي يقضي أيام العطلة في المراقبة والتأمل أو في كتابة الرسائل لأخته. وعندما يلصق الطابع ويضع الرسالة في صندوق البريد يشعر دوماً بسعادة وادعة ويتصور أن أحداً كأنما بحاجة إليه وأن تلك الحاجة تقتضي بقاءه على قيد الحياة والمواظبة على العمل للصالح العام.

ولم تكن أخته تكتب له، فهي متعبة لكثرة الأولاد وتعيش حياتها كأنما في غيبوبة. ومرة كل عام، في عيد الفصح، تبعث إلى أخيها بطاقة تهنئة تقول فيها عادة: «المسيح قام يا أخي العزيز، حقاً قام. لا نزال نعيش كما كنا. أنا أطبخ الطعام وأربّي الأطفال. زوجي حصل على ترقية وصار يأتينا بـ 48 روبلاً. تعال إلينا في زيارة. المخلصة أختك آنيا».

ويحمل بروشيفسكي هذه البطاقة في جيبه أمداً طويلاً ويقرأها مراراً ويبكي أحياناً.

عندما يتمشى يقطع شوطاً طويلاً بعيداً في وحدته. ذات مرة توقف على هضبة منزوية عن المدينة وعن الطريق العام. الجو مكفهر والنهار مائع الملامح وكأن الزمن لا يريد أن يستمر فيه. في مثل هذا الوقت تغفو النباتات والحيوانات ويؤبن الناس والديهم. تطلّع المهندس بهدوء إلى شيخوخة الطبيعة وشيبها الضبابي ولمح في أطرافها بنايات بيضاء وادعة تلمع بضوء أسطع من الضوء المعتاد حواليها. لم يكن يعرف مسمّياتها ولا الغرض منها، وإن كان يفهم أن تلك البنايات الناجزة البعيدة شيدت ليس لأجل المنفعة فقط، بل وللفرحة أيضاً. راقب، بدهشة إنسان تعوَّد على الاكتئاب، رقّة تلك المباني النائية ودقّتها ومتانتها وتراصّها

وبرودتها. لم يكن قد رأى من قبل مثل هذا الإيمان وهذه الحرية في الأحجار المرصوفة، ولم يكن يعرف قانون اللمع التلقائي في اللون الرمادي الكالح لوطنه. كانت هذه التشكيلة المعمارية البيضاء تنتصب كالجزيرة وسط سائر العالم الجديد وتلمع بضوء يبعث الاطمئنان والاستقرار. لكن تلك البنايات لم تكن بيضاء بكاملها، فهي في بعض الأماكن زرقاء وصفراء وخضراء مثل جمال تصورات الأطفال. «متى شيدت يا ترى؟» - تساءل بروشيفسكي بخيبة أمل. كان الأسهل عليه أن يتحسّس الحِداد والأسى في كوكب الأرض المنطفئ. أما سعادة الآخرين البعيدة فتثير فيه الخجل والقلق. وهو يريد، بصورة لاشعورية، أن يبقى العالم الذي يبنى من الأزل ولا يزال غير مبني، شبيهاً بحياته المحطمة.

تطلّع باهتمام مرة أخرى إلى تلك المدينة الجديدة، ذلك لأنه لا يريد أن ينساها أو يخطئ تحديد موقعها. فوجدها تنتصب كالسابق واضحة المعالم وكأن هواءها شفاف عليل وليس ضبابياً عكراً كهواء الوطن.

عاد المهندس بروشيفسكي أدراجه. ورأى نساءً كثيرات في شوارع المدينة القديمة. سيرهن بطيء رغم فتوّتهن. لعلهن يتنزهن في انتظار نجوم السماء.

عند الفجر دخل شيكلين على المهندس في مكتبه ومعه رجل غريب في السروال وحده.

- هذا الرجل يطالب بتوابيت قريته. - قال شيكلين.

- أية توابيت؟- سأل بروشيفسكي.

لم يقل الرجل الضخم العاري، المتورم من الريح والكمد، كلمته مباشرة. طأطأ رأسه في البداية وراح يفكر متوتراً. كان واضحاً أنه لا يتذكر نفسه وهمومه ومشاغله. فلربما أرهقه التعب، ولربما كان بدنه يحتضر ويموت جزءاً جزءاً في مسار الحياة. ثم قال بصوت لافح كالفحيح:

- توابيتنا الخشبية، خبأناها في الكهف تحوّطاً للطوارئ، لكنكم حفرتم الوادي كله. فأعطونا التوابيت.

أفاد شيكلين بأنهم عثروا مساء أمس بالفعل على مئة تابوت فارغ على مقربة من الوتد الشمالي. وأنه أخذ منها تابوتين للبنت، أعد لها في أحدهما فراشاً للمستقبل عندما تنام دون أن تتوسد بطنه، وأهداها الآخر لتضع فيه لعبها وحاجياتها ليكون لها هي أيضاً ركن للأنشطة والفعاليات.

- أعط الرجل بقية التوابيت - قال بروشيفسكي.

- كل التوابيت - قال الرجل.- أموال الدفن لا تكفينا، والناس ينتظرون توابيتهم. نجرناها من مال التبرعات، فلا تنتزع منا ما كسبناه.

- كلا - قال شيكلين بلهجة قاطعة - اترك التابوتين لطفلتنا، فهما صغيران عليكم في كل الأحوال.

ظل الغريب واقفاً يتأمل برهة ثم اعترض قائلاً:

- كلا. فكيف سندفن أطفالنا؟ نجرنا التوابيت حسب طول القامة، لكل شخص تابوت يناسبه. وكل منا يعيش لأنه واثق من

وجود تابوت له. فالتابوت الآن هو هدف الحياة. وقبل أن نخبئ التوابيت في الكهف رقدنا فيها فترة لنتعوّد عليها.

دخل المكتب مسرعاً الفلاح ذو العينين الصفراوين الذي يعيش من زمان مع أهل الحفرة.

- يا يليسي - قال مخاطباً الرجل شبه العاري - حزمتها بالحبال فلنذهب ونسحبها ما دامت الأرض ناشفة.

- ضيعتَ تابوتين - قال له يليسي - فبأي تابوت سترقد؟

- سأرقد، يا عزيزي، أسفل شجرة القيقب الوارفة في حوشي، حفرت قبراً هناك تحت عروقها، وعندما أموت يتشرب جذعها بدمي فيصعد إلى أوراقها العالية. أم أن دمي لم يعد مركّزاً، يا ترى، وستعافه الشجرة؟!

لم يتأثر الرجل شبه العاري لهذا الكلام ولم يعلّق عليه، فمضى صامتاً مع الفلاح ليأخذ التوابيت دون التفات إلى حصى الدرب ورياح الفجر الباردة. وتبعهما شيكلين واستقرّت أنظاره على ظهر يليسي المكسوّ بطبقة كثيفة من الأوساخ وقد نما عليها شعر واق. كان يليسي يتوقف في بعض الأحيان وينقّل عينيه الناعستين الخاويتين في أرجاء المكان وكأنه يتذكر شيئاً منسياً أو يبحث عن معتزل كئيب يعتكف فيه. لكنّ هذه المَواطن غريبة عليه، فيغضّ بصره بهدوء.

التوابيت مرصوفة في صف طويل فوق تلة ناشفة على شفا الحفرة. كان الفلاح الذي هرع إلى العنبر في السابق يكاد يطير فرحاً لعثورهم على التوابيت المفقودة ولمقدم يليسي. وقد فرغ من

إعداد ثقوب في مقدمات التوابيت ومؤخراتها وشدها في رباط واحد. أخذ يليسي طرف الحبل من التابوت الأول وشدّه إلى كتفه وغرز رجليه في الأرض وسحب سلسلة التوابيت، كما يفعل النواخذة، في بحر الحياة الناشف. وقف شيكلين وسائر العمال دون أن يشوّشوا على يليسي، وراحوا يتطلعون إلى الآثار التي خلّفتها التوابيت الخالية على الأرض.

- يا عم، هذان الرجلان من البرجوازيين؟ - استفسرت البنت من شيكلين ممسكة بيده.

- كلا يا ابنتي. إنهما يعيشان في أكواخ القش ويزرعان القمح ويتقاسمانه معنا.

رفعت البنت بصرها إلى كل تلك الوجوه الشائخة.

- فما حاجتهما إلى التوابيت إذن؟ يجب أن يموت البرجوازيون فقط، أما الفقراء فلا يموتون.

لاذ العمال بالصمت، فليس لديهم معلومات تمكنهم من الكلام بهذا الخصوص. وأضافت البنت:

- أحدهما عار. ينزعون الثياب ويحتفظون بها ولا يشفقون على الناس. ماما أيضاً ترقد عارية.

- معك كل الحق يا ابنتي - قال سافرونوف - كلاهما من برجوازيي الريف.

- اذهب واقتلهما إذن - قالت البنت.

- هذا ممنوع يا ابنتي. فالشخصان ليسا طبقة...

- واحد زائداً واحد. - أحصتهما البنت.

- والمجموع قليل. - أشفق عليهما سافرونوف - نحن ملزمون بإبادتهم كطبقة لا أقل، كما نص المؤتمر، لكي تتخلص البروليتاريا كلها والأجراء الريفيون من الأعداء.

- ومع من ستبقون؟

- مع المهمات، مع النهج الثابت للتدابير اللاحقة. هل أنت فاهمة؟

- نعم. - أجابت البنت - هذا يعني قتل جميع الأشرار. والأخيار قليلون جداً.

- أنت بمثابة جيل طبقي ناضج. - قال سافرونوف مسروراً - تدركين كل العلاقات بدقّة ووضوح رغم صغر سنّك. النظام الملكي كان بحاجة إلى كل الناس دون تفريق من أجل الحرب، أما نحن فتعزّ علينا طبقة واحدة فقط، ثم إننا قريباً سنطهّر طبقتنا أيضاً من العناصر غير الواعية.

- من السفلة - حزرت البنت بسهولة - وسيبقى عندئذ أهم الناس وأكبرهم شأناً. ماما قالت إنها سافلة لأنها عاشت آنذاك. أما الآن، بعد أن ماتت، فقد غدت طيبة، أليس كذلك؟

- بلى - أجاب شيكلين.

تذكرت البنت أن أمها وحيدة في الظلمة، فانسحبت صامتة دون أن تعير بالاً لأحد، وجلست تلعب في الرمل. لم تكن تلعب في الواقع، بل تلمس الرمل بيد لاأبالية وتفكر.

اقترب منها الحفارون وانحنوا عليها سائلين:

- ماذا بك؟

- لا شيء - قالت دون أن تلتفت إليهم - شعرت بالملل بينكم. أنتم لا تحبونني، وحينما تغفون في الليل سأنهال عليكم ضرباً.

تبادل العمال النظرات فخورين ورغب كل منهم في احتضان الطفلة بشدة ليتحسّس ذلك الموضع الدافئ الذي ينبعث منه هذا العقل وروعة الحياة الفتية.

ظلَّ فوشيف الواهن الكئيب وحده يراقب الأفق عفوياً، فهو لا يعرف حتى الآن ما إذا كان هناك شيء متميز خاص في الوجود العام أم لا. ولم يتمكن أحد أن يتلو عليه، عن ظهر قلب، النظام الداخلي للعالم، أما الأحداث الجارية على سطح الأرض فهو لا يعبأ بها. ابتعد عن الآخرين بخطوات وئيدة واختفى في الحقل، فرقد هناك مختلياً بنفسه دون أن يراه أحد، وشعر بالارتياح لأنه لم يعد من المشاركين في الملابسات الجنونية.

فيما بعد عثر فوشيف على أثر التوابيت التي سحبها الفلاحان إلى ما وراء الأفق، إلى صقع الأسيجة المائلة التي غطتها أعشاب راعي الحمام. ربما يخيّم هناك سكون الأحواش الدافئة أو يتحشد في مهبّ ريح الدروب فقراء الفلاحين التعاونيين حول كومة توابيت الموت. مضى فوشيف إلى هناك بمشية شخص سقط عفوياً من قائمة العاملين دون أن يدرك أن ضعف العمل الثقافي والتثقيفي في مشروع تشييد دار المستقبل هو وحده الذي يجعله لا يشعر بالأسف لتركه المشروع. ورغم الشمس الساطعة بما فيه الكفاية لم يكن فوشيف منشرح الصدر، لاسيما وأن روائح وأنفاساً عكرة مخدرة تنبعث من أعشاب الحقل. تلفَّت حواليه، فرأى الفضاء كله غارقاً

في أبخرة أنفاس حية تتسبب في انتشار ضباب ناعس خانق. وامتد الصبر، أو قلْ التحمّل، متعباً في هذه الدنيا وكأن كل الأحياء متواجدون في موضع ما بين الزمن والحركة، بداياتهم منسية ونهاياتهم مجهولة، ولم يبقَ إلا الاتجاه العام. ومضى فوشيف في الدرب الوحيد المكشوف بذلك الاتجاه.

* * *

وصل كوزلوف إلى حفرة الأساس في سيارة يقودها ليف باشكين بنفسه. وكان يرتدي بدلة رمادية مع صديري، ووجهه مكتنز من فرحة لا تفارقه بعد أن غدا متيّماً في حب البروليتاريا. كان يبدأ ردّه على العمال كل مرة بكلمات من الوزن الثقيل: «طيب، رائع»، ثم يواصل كلامه، بينما يكرر في سرّه كلمات الأغنية: «أين انت الآن أيتها المرأة المنحطة؟» وما إلى ذلك من العبارات الإنشادية القصيرة.

صباح اليوم ألغى كوزلوف حبّه لسيدة من الطبقة المتوسطة. فلا وقت للعواطف. كتبت له رسائل عن إعجابها الشديد به، ولكن دون جدوى. فقد تحمَّل العبء الاجتماعي الثقيل ولم يردّ عليها رافضاً سلفاً مصادرة لطفها ومداعباتها، لأنه يبحث عن امرأة أكثر نشاطاً وأعلى منزلة. وعندما قرأ في الجريدة عن كثرة أشغال دائرة البريد واختلال عملها عزم على تقوية هذا القطاع من البناء الاشتراكي من خلال وقف الرسائل النسائية التي تتوارد عليه. فحرر لتلك السيدة بطاقة ختامية تخلّى فيها عن مسؤولية الحب:

«المائدة التي كانت تنوء بما لذّ وطاب من طعام وشراب
ليس عليها الآن سوى التابوت.

كوزلوف»

كان قد قرأ هذا المقطع الشعري تواً وعجل في تسجيله كيلا ينساه. وهو حالما يستيقظ كل صباح يطالع الكتب في السرير ويحفظ عن ظهر قلب الصياغات والشعارات والقصائد والوصايا وشتى الحكم والأمثال وموضوعات من مختلف اللوائح والوثائق والقرارات ومقاطع الأغاني والأناشيد وما إلى ذلك، ثم يمضي ليتفقد الهيئات والمنظمات التي يعرفونه فيها كشخصية اجتماعية نشيطة، فيخيف بسعة اطلاعه العلمي وتمرّسه الفكري مستخدميها الخائفين أصلاً. وبالإضافة إلى معاش المرتبة الأولى أمّن لنفسه أرزاقاً عينية معتبرة.

عرّج ذات مرة على مؤسسة تعاونية واستدعى مديرها دون أن يتزحزح من المكان الذي شغله وقال له:

- طيب، رائع، ولكن تعاونيتكم، في الحقيقة والواقع، من طراز مؤسسات روتشيلد وليس من الطراز السوفيتي. يعني أنها ليست عموداً في الطريق العمودي إلى الاشتراكية.

- أنا لا أفهمك يا سيدي - أجاب المدير بتواضع.

- أعني أنك تطلب من السماء خانعاً الخبز الكفاف، الخبز الأسمر وليس السعادة. طيب، رائع - قال كوزلوف وانصرف متظاهراً بأنه تحمَّل إهانة بالغة. وبعد عشرة أيام عيّنوه رئيساً للجنة حوانيت هذه التعاونية. ولم يكن يعرف حتى الآن أنه تسلّم هذا

المنصب بتوصية من مدير التعاونية الذي حسب الحساب ليس فقط لتذمّر الجماهير، بل ولمواهب المتذمّرين.

نزل كوزلوف من السيارة ومضى إلى موقع البناء متظاهراً بالفطنة والذكاء، ووقف على حافة الحفرة ليأخذ فكرة عامة عن وتيرة العمل بكاملها. وقال للعمال المتواجدين على مقربة منه:

- لا تكونوا انتهازيين في التطبيق.

أثناء فرصة الغداء أبلغ الرفيق باشكين العمال أن الفئة الفقيرة في الريف تشعر بحنين شديد إلى التعاونية الفلاحية، ولا بدّ أن تبعث الطبقة العاملة إلى هناك أحداً في مهمة متميزة فريدة لبدء النضال الطبقي من أجل اجتثاث قرم الرأسمالية ومخلّفاتها في القرى والأرياف.

- حان الوقت من زمان للقضاء على الأثرياء الطفيليين. - أعرب سافرونوف عن رأيه الحصيف - لم نعد نشعر بسخونة موقد الصراع الطبقي، في حين تستدعي الحاجة اشتعال اللهيب، وإلا فأين يتدفأ نشطاء العاملين؟

وبعد ذلك اتفق العمال على تكليف سافرونوف وكوزلوف أن يذهبا إلى أقرب قرية كيلا يبقى الفقير في ظل الاشتراكية يتيماً من كلا الجانبين أو ماكراً يقبع في جحره حرصاً على الملكية الخاصة.

أوصل جاشيف البنت الصغيرة في عربته إلى باشكين وقال له:

- انظر إلى الاشتراكية في هذا البدن الحافي، واركع، يا سافل، أمام عظامها التي أكلت شحمها.

- فعلاً - قالت البنت.

كما أعرب سافرونوف عن رأيه بهذا الخصوص:

- سجّل اسم ناستيا، يا رفيق باشكين، فهي مادتنا المفرحة للمستقبل.

أخرج باشكين مفكّرته وسجّل فيها نقطة جديدة. ففي مفكّرته نقاط كثيرة كل نقطة منها ترمز إلى مظهر ما من العناية بالجماهير.

في ذلك المساء فرشت ناستيا لسافرونوف على حدة وجلست معه تتجاذب أطراف الحديث. سافرونوف هو الذي طلب منها أن تجلس معه. فهي الأنثى الوحيدة الرقيقة القلب هنا. رافقته ناستيا بهدوء طول المساء وراحت تتصور كيف سيذهب إلى فقراء الريف المتكدّرين في أكواخهم وينهال عليه القمل بين الغرباء.

وبعد ذلك رقدت على فراش سافرونوف ودفأته، ثم مضت لتنام على بطن شيكلين. كانت قد تعوّدت من زمان أن تدفئ فراش أمها قبل أن يأوي إليه زوجها الثاني.

الحفرة عموماً جاهزة لتشييد دار الحياة المرتقبة. وقد حان وقت رصف حجر الأساس. إلا أن باشكين يداري أفكاراً وضاءة على الدوام، فأبلغ المسؤول الأول في المدينة بأن سعة المبنى المرتقب ليست كافية، لأن نساء الاشتراكية مفعمات بالطراوة والإخصاب وأن الطفولة المتراكضة ستغطي سطح الأرض، فهل يعقل أن يعيش الأطفال في العراء، في طقس لا يمكن التحكم بسلوكه؟

- كلا - أجاب المسؤول، وأسقط بحركة غير متعمّدة سندويشاً سميكاً من على الطاولة - وسّعوا الحفرة أربع مرات.

انحنى باشكين ورفع السندويش ووضعه على الطاولة. فقال المسؤول الأول:

- لا داعي لذلك. لقد خططنا لمحاصيل زراعية في المنطقة خلال العام بمبلغ نصف مليار.

وعندذاك رمى باشكين السندويش في سلة المهملات خشية أن يعتبروه شخصاً يعيش بمخلّفات عهد التقشّف.

كان بروشيفسكي ينتظر باشكين على مقربة من المبنى الحكومي ليتلقّى الإيعازات اللازمة ويوصلها فوراً إلى العمال. أما باشكين نفسه فقد فكر، وهو يجتاز بهو المبنى، بإمكانية توسيع الحفرة ست مرات، وليس أربعاً، ليؤدي خدمة لا جدال فيها ويسبق النهج الرئيسي ثم يستقبله فيما بعد بفرحة في مكان مكشوف، وعندذاك يراه النهج ويشيد بجهوده ويخلّده كنقطة أبدية من نقاطه ومعالمه. وأشار على بروشيفسكي قائلاً:

- يجب توسيع الأعمال ست مرات، ألم أقل إن الوتيرة بطيئة؟

فرح بروشيفسكي وابتسم بارتياح. ولاحظ باشكين فرحة المهندس فارتاح هو الآخر، لأنه فهم، من خلال تلك الفرحة، ميول الشعبة الهندسية الفنية في نقابته.

مضى بروشيفسكي إلى شيكلين ليخطط توسيع الحفرة. وقبل أن يبلغه رأى العمال متحشدين صامتين حول عربة فلاحية. جلب شيكلين من العنبر تابوتاً فارغاً ووضعه على العربة، ثم جلب التابوت الثاني، فيما هرعت ناستيا خلفه تقتلع الصور التي

ألصقتها على التابوت. وتفادياً لزعل البنت ضمَّها شيكلين إليه، تحت إبطه وضغطها إلى جنبه وهو يحمل التابوت باليد الأخرى. وقالت ناستيا غاضبة:

- ماتا على أية حال، فما حاجتهما إلى التابوتين؟ لم يبق لي ما أضع فيه حاجياتي.

- لا بدّ من ذلك - أجابها شيكلين - الموتى أناس لهم منزلة خاصة.

- شخصيات بارزة - قالت ناستيا مندهشة - فلماذا يعيش الآخرون إذن؟ أليس الأفضل أن يموتوا ويصبحوا شخصيات بارزة؟

- يعيشون كيلا يبقى بينهم برجوازيون. - قال شيكلين ووضع التابوت الثاني على العربة. وكان فيها رجلان هما فوشيف والفلاح الثري الذي انصرف مع يليسي آنذاك.

- لمن تأخذان التابوتين؟

- مات سافرونوف وكوزلوف في الكوخ، فأخذوا لهما التابوتين اللذين عندي، فما العمل؟ - أفادت ناستيا بإسهاب، ومالت إلى العربة مهمومة لما ضيّعته.

دفع فوشيف الحصان ليعود بالعربة إلى الأماكن المجهولة التي جاءت منها. فيما ترك شيكلين البنت في عهدة جاشيف، وتبع العربة المبتعدة راجلاً.

سار قُدماً حتى أعماق الليل المقمر. وصادف على الطرف الثاني للوادي أنواراً معزولة هادئة في مساكن غريبة متناثرة، تعوي

الكلاب فيها باكتئاب، ربما بسبب الملل، أو لأنها لمحت الأشخاص القادمين وارتعبت. عربة التابوتين تسير أمام شيكلين طول الوقت، وهو لا يتخلّف عنها.

أسند فوشيف ظهره إلى التابوتين وراح يتطلع من العربة إلى أعلى، إلى تجمّعات النجوم وإلى الضباب المكفهر الجامد في درب التبانة. لقد طال انتظاره لصدور قرار هناك يعلن عن وقف أبدية الزمن والتوبة عن خطيئة الملل الذي يكتنف الحياة. طال انتظاره حتى يئس وغفا ولم يستيقظ إلا عندما توقفت العربة.

بعد دقائق لحق شيكلين بالعربة وجال ببصره فيما حواليه. رأى قرية قديمة يكسوها مشيب الفقر البالي. وشاهد منظراً كئيباً بالقدر نفسه، هو منظر الأسيجة الشائخة الصبورة وأشجار الطريق المحنية في السكون. جميع أكواخ القرية مُنارة، ولكن لا أحد في دروبها. تقدّم شيكلين من الكوخ الأقرب وأشعل ثقاباً ليقرأ ورقة بيضاء ملصقة على الباب. وفي الورقة كتابة تقول: هذا هو الحوش المؤمَّم رقم 7 التابع لتعاونية «النهج العام»، وفيه يقيم مناضل يمارس النشاطات الاجتماعية لتنفيذ قرارات الدولة وكل الحملات والفعاليات الجارية في القرية. طرق شيكلين الباب ففتحه المناضل وقال:

- ادخل.

حرّر المناضل إيصالاً باستلام التابوتين وأمر فوشيف أن يذهب إلى مجلس القرية ويقف طول الليل في حرس الشرف حول جثماني الرفيقين الشهيدين.

- سأذهب أنا أيضاً معه - قال شيكلين.

- طيب. - أجاب المناضل - ولكن زوِّدني بمعلومات عنك لأسجّلك في قائمة الكادر المعبأ لهذا الغرض.

انحنى المناضل على أوراقه متلمّساً بعينيه الثاقبتين كل الموضوعات والمهمات الدقيقة المطلوبة. كان يبني المستقبل المنشود بتوق كجشع التملك، دون أن يتذكر السعادة العائلية، كي يوفر مستلزمات الخلود لنفسه في ذلك المستقبل، حتى أنه أهمل مظهره وتورَّم وجهه من انشغال البال وطال شعره المتباعد. القنديل ينور أمام نظرته الساهرة المرتابة التي تراقب، ذهنياً وبدنياً، سلوك السفلة من الفلاحين الأثرياء.

قضى المناضل الليل كله أمام القنديل المضيء ينصت إلى أصوات الطريق المعتم لعله يسمع وقع سنايك حصان الرسول الذي يأتي من مركز الناحية عادة حاملاً التوجيهات إلى القرية. وهو يقرأ كل توجيه بفضول المتعة المرتقبة وكأنه يبص في الأسرار العاطفية لكبار الشخصيات البارزة في المركز. ويندر أن تمر ليلة لا يأتي فيها توجيه يسهر المناضل حتى الصباح منكباً على دراسته وتحليله، ليستجمع عند الفجر حماسة الفعل الذي لا يعرف التراجع. وفي أحيان نادرة يتوقف للحظة متجمّداً من كآبة الحياة، فيتطلع باستعطاف إلى أي شخص تقع عليه أنظاره ويتذكر بأنه مرتبك غافل. بهاتين الكلمتين تنعته أحياناً الوثائق القادمة من الناحية. وكان المناضل يفكر متردداً في تلك اللحظات: «أليس الأفضل لي أن أنضم إلى الجماهير وأنسى نفسي في الحياة العامة المسيّرة؟»، لكنه سرعان ما ينتبه على نفسه لأنه لا يريد أن يكون

يتيماً بين اليتامى ويخشى الانتظار الطويل للاشتراكية حتى يجد كل راع أو فلاح نفسه في بحر السعادة، لأنه يستطيع أن يخدم الطليعة، فيتمتع الآن بكل مسرّات المستقبل. كان يحدّق طويلاً في التواقيع على الوثائق بخاصة، فهذه الحروف رسمتها يد الناحية الساخنة، واليد جزء من البدن الذي يرفل بالأمجاد على مرأى من الجماهير الموالية الراسخة الإيمان، حتى أن الدموع تترقرق في عينَي المناضل عندما يدقّق معجباً في تقاسيم التواقيع وصورة الكرة الأرضية على الأختام، فالكرة الأرضية وكل طيباتها ستقع قريباً في أيد حديدية ساهرة، فهل يعقل أن يبقى هو دون أن يؤثر على بدن الأرض والعالم؟ وكبخيل أنعم اللّه عليه بالثروة راح المناضل يمسّد صدره الهزيل من كثرة المشاغل. ثم قال مخاطباً شيكلين:

- لماذا تقف بلا حراك؟ اذهب لحراسة الجثمانين السياسيين من تطاول الأثرياء الأنذال. ألا ترى كيف يستشهد مناضلونا كالأبطال؟

من خلال طيات ظلام الليل في التعاونية الريفية بلغ شيكلين قاعة مجلس القرية، وكانت خالية إلا من جثمانَي رفيقيه. ويطل على الجثتين القنديل الكبير المخصص لإنارة الجلسات. الجثتان تستقران جنباً إلى جنب على طاولة هيئة الرئاسة. والراية تغطيهما حتى الذقنين كيلا يرى الأحياء آثار التشويه المميت ولا يخشوا الموت نفسه.

وقف شيكلين عند أرجل المتوفّيين وراح يحدّق هادئاً في وجهيهما الصامتين. لم يعد بوسع سافرونوف أن يقول شيئاً من

إفرازات ذهنه، ولن يتألم كوزلوف للبناء التنظيمي بمجمله ولن يحصل على المعاش المقرر.

مرّ الوقت بهدوء يشقّ مجراه عتمة منتصف ليل التعاونية. لا شيء يشوّش على الأموال والممتلكات المؤممة ولا أحد يعكر صمت الوعي الجماعي. أشعل شيكلين سيجارة واقترب من وجهَي المتوفّيين ولمسهما بيده.

- ماذا، يا كوزلوف، هل تشعر بالملل؟

كوزلوف راقد بصمت، فهو قتيل. وكان سافرونوف ساكناً هو الآخر، تطغى عليه أمارات الرضا ويتهدّل شارباه على فمه المنفرج الواهن وقد نبت الشعر الأشقر حتى على الشفتين، لأن أحداً لم يقبّله عندما كان على قيد الحياة.

لاحظ شيكلين حول عيون الميتين ملحاً ناشفاً خلّفته دموع سالفة، فتعيّن عليه أن يمسحه. مسحه وفكر في نفسه: ما الذي دفعهما للبكاء في آخر العمر؟

- ماذا يا سافرونوف؟ هل رقدت نهائياً أم انك تنوي النهوض؟

ما كان بوسع سافرونوف أن يجيب طبعاً. فإن صدره المهشّم يحنو على قلب بلا نبض ولا شعور.

تساقط المطر في الباحة. أنصت إليه شيكلين، أنصت إلى هسيس المطر الحزين المتوالي بين الأوراق والأسيجة وعلى سطوح منازل القرية الوادعة. سيله المنعش يهطل بلامبالاة كأنما في الفراغ، ولا يعوض للطبيعة عن هذا الاستنزاف سوى اكتئاب

إنسان واحد ينصت إلى صوت المطر. وفي أحيان نادرة تقوقئ دجاجات في أقنانها المعزولة. لكن شيكلين لم يعد يسمعها، إذ رقد تحت الراية بين كوزلوف وسافرونوف، فالموتى بشر أيضاً.

ظلَّ قنديل مجلس القرية يسكب الضوء عليهم بسخاء حتى الصباح. وعندذاك دخل يليسي المبنى، لكنه لم يطفئ القنديل. فهو لا يفرّق بين النور والظلام. وقف دون جدوى برهة، ثم خرج مثلما دخل.

مال يليسي بصدره على صارية العلم وحدّق في رطوبة الفضاء المعتكرة. في تلك البقعة تجمّعت الزيغان استعداداً للهجرة إلى الآفاق الدافئة، مع أن موعد مفارقة هذه الأنحاء لم يحن بعد. وقبل هجرة الزيغان لاحظ يليسي أن أطيار السنونو اختفت. رغب حينذاك أن يكون خفيف البدن خالي الذهن كالسنونو، أما الآن فهو لا يريد أن يتحوّل إلى زاغ، لأنه عاجز عن التفكير. إنه يعيش وينظر بعينيه لكونه فلاحاً متوسط الحال، كما تقول هويته، وقلبه ينبض وفقاً للقانون.

تناهت أصوات من مجلس القرية، فاقترب يليسي من النافذة وألصق أذنه بالزجاج. فهو دوماً ينصت إلى مختلف الأصوات المنبعثة من الجماهير أو الطبيعة، لأن أحداً لم يكلمه بكلمات ولم يزوّده بمفاهيم، ولذا تجده يتحسّس حتى الرنين البعيد.

رأى يليسي عبر النافذة شيكلين جالساً بين المتوفّين، يدخن ويواسيهما بكلماته دون مبالاة:

- انتهيت يا سافرونوف. ثم ماذا؟ فقد بقيت أنا، وسأقتدي

بك، سأكون أذكى، أتكلم بوجهة نظر مثلك، وأرى اتجاهك بكامله، فيمكنك إذن أن تختفي من الوجود.

لم يكن بوسع يليسي أن يفهم هذا الكلام، ولم يسمع من خلال الزجاج الشفاف سوى أصوات مبهمة.

- وأنت يا كوزلوف، لا تشغل بالك بالحياة. سأنسى نفسي ولن أنساك. ستبقى معي دوماً. سأخبئ في صدري كل حياتك الفانية وكل مهماتك، ولن أرميها أبداً، فاعتبر نفسك على قيد الحياة. سأكون نشيطاً ليل نهار وسأهتم بالعمل التنظيمي كله، وأحيل نفسي على المعاش، فارقد خالي البال يا رفيق كوزلوف.

عتم الزجاج من أنفاس يليسي، فلم يعد يرى شيكلين بوضوح، ومع ذلك ظل ينظر إليه طالما ليس هناك ما يمكنه أن ينظر إليه. صمت شيكلين برهة، وخيّل إليه أن الارتياح اكتنف سافرونوف وكوزلوف، فأضاف قائلاً:

- حتى لو ماتت الطبقة كلها سأبقى أنا بدلاً منها وأؤدي مهمّتها كاملة. فأنا، في كل الأحوال، لا أعرف كيف أعيش لنفسي... بوزُ من هذا الذي يحدّق فينا؟ ادخل يا غريب.

دخل يليسي مجلس القرية في الحال. لم يلاحظ أن سرواله تهدّل عن بطنه وكان يوم أمس مستقراً عليه تماماً. فقد يليسي شهية الطعام، فصار يزداد هزالاً يوماً بعد يوم.

- أنت قتلتهما؟ - سأل شيكلين.

رفع يليسي سرواله وظل ممسكاً به، وسلّط على شيكلين عينين كابيتين خاويتين دون أن يجيب بكلمة.

- من إذن؟ - اذهب وأحضر لي ذاك الذي يقتل جماهيرنا.

مضى يليسي عبر المكان الرطب الخالي الذي تجمعت فيه الزيغان. أفسحت له تلك الطيور السبيل فرأى أمامه الفلاح ذا العينين الصفراوين وقد وضع تابوتاً جنب السياج وراح يكتب عليه اسمه بأحرف كبيرة ويدسّ إصبعه في قنينة يستخرج منها صبغ الكتابة.

- ماذا يا يليسي؟ هل من أوامر؟

- لا شيء. - قال يليسي.

- لا بأس إذن. - تلفّظ الفلاح بهدوء وهو يواصل الكتابة - ألم يغسلوا الجثتين في المجلس؟ أخشى أن يأتي المعوّق العمومي على عربته ويضربني لمجرد أني حي وهما ميتان.

مضى الفلاح ليغسل الجثتين معبّراً عن مشاطرته ومؤاساته. وتبعه يليسي يجرجر قدميه ولا يعرف أفضل موقع له ولهما.

لم يعترض شيكلين على الفلاح عندما خلع ثياب الميّتين وحملهما الواحد تلو الآخر عاريين إلى البركة وأغطسهما في مياهها ثم نشفهما بصوف الضأن وألبسهما ثيابهما من جديد ووضعهما على الطاولة.

- طيب - قال شيكلين والحال هذه - ولكن من الذي قتلهما؟

- لا نعرفه يا رفيق شيكلين. فنحن أنفسنا نعيش بالصدفة.

- بالصدفة - تفوّه شيكلين وصفع الفلاح كي يعيش بوعي وليس بالصدفة. كاد الرجل يسقط، لكنه خشي أن يبتعد كثيراً فيظن به شيكلين الظنون ويعتبره من الأثرياء، فوقف أمامه على

مسافة أقرب راغباً في صفعة أقوى، حتى يطالب فيما بعد بأن يعتبروه من الفقراء نظراً لما أصابه من عذاب. وعندما شاهد شيكلين هذا الكائن البائس أمامه رفسه عفوياً في بطنه، فتشقلب الفلاح وأغمض عينيه الصفراوين.

كان يليسي منزوياً بهدوء في تلك الأثناء، فقال لشيكلين بعد حين إن الفلاح همد.

- وأنت ما بك؟ هل تشفق عليه؟ - سأله شيكلين.

- كلا. - أجاب يليسي.

- ضعه في الوسط، بين رفيقيّ.

سحب يليسي الفلاح إلى الطاولة ورفعه بكل ما أوتي من قوة ورماه على الجثتين، ثم استعدّ بوضعية أفضل وحشره بينهما. وعندما عاد أدراجه فتح الفلاح عينيه الصفراوين، ولم يتمكن أن يغمض جفونه، فظل على هذه الصورة.

- هل عنده امرأة؟ - سأل شيكلين، فأجاب يليسي:

- كان لوحده.

- لم جاء؟

- كان يخاف عدم المجيء.

ظهر فوشيف على عتبة الباب وأخبر شيكلين أن يذهب لأن المناضل طلبه.

- خذ - سلّم شيكلين روبلاً إلى يليسي - اذهب إلى حفرة الأساس وانظر هل الصغيرة ناستيا بخير. اشترِ لها حلوى. فؤادي يحنّ إليها.

كان المناضل جالساً مع معاونيه الثلاثة الذين اشتدّ بهم الهزال من البطولات المتواصلة والفقر المدقع، لكن وجوههم تعبّر عن شعور ثابت واحد هو التفاني في الجهود. طلب المناضل من شيكلين وفوشيف أن يكرّسا كل طاقاتهما الكامنة للعمل من أجل نشر الحركة التعاونية الفلاحية وفقاً لتوجيه الرفيق باشكين.

- وهل يحق للبروليتاريا أن تعرف الحقيقة؟ - سأل فوشيف.

- يحق للبروليتاريا أن تتحرك - أجاب المناضل - وكل ما تصادفه في طريقها يعود لها، سواء كانت تلك هي الحقيقة أم تنورة نسائية سرقها الأثرياء، كل شيء سيختلط في المرجل التنظيمي ولن تعرف التفاصيل.

في البداية اكتسى وجه المناضل بمسحة من الحزن جنب الموتى في مجلس القرية، لكنه تذكّر المستقبل الذي هو في طور البناء، فابتسم بحيوية ونشاط وأمر الحاضرين بأن يعبئوا التعاونية لموكب التشييع لكي يشعر الجميع بهيبة الموت في المرحلة الصاعدة الوضاءة، مرحلة التأميم.

تدلّت يد كوزلوف اليمنى، فمالت جثته الهامدة على حافة الطاولة مهدّدة بالسقوط الوشيك. عدل شيكلين وضعية الجثة ولاحظ أن المكان ضاق بالموتى، إذ صار عددهم أربعة، بدلاً من ثلاثة. لكنّ شيكلين لا يتذكر رابعهم، فطلب من المناضل أن يوضح حادثة الوفاة الأليمة، مع أن الرابع لم يكن من البروليتاريا، بل هو فلاح كئيب استقر على جنبه محبوس الأنفاس. وأوضح المناضل أن هذا العنصر الفلاحي هو الذي قتل سافرونوف وكوزلوف، لكن الأسى أثقل عليه بعد الحركة

المنظمة الموجهة ضده، فجاء إلى هنا بنفسه ورقد بين الموتى وقضى نحبه شخصياً. وأضاف المناضل:

- في كل الأحوال كنت سألقي القبض عليه بعد نصف ساعة. لا أثر للفوضى عندنا الآن. فلا أحد يستطيع الفرار. وثمة شخص آخر مسجى هنا. فمن هو يا ترى؟

- أنا أجهزت عليه - قال شيكلين - ظننته نذلاً جاء في طلب ضربة، فضربته، فسقط ميتاً.

- حسناً فعلت. فلن يصدقني المسؤولون في الناحية إذا قلت إن القاتل واحد، أما إذا قلتُ قاتلان فذلك يعني طبقة من الفلاحين الأثرياء وتنظيماً كاملاً.

بعد الدفن غابت الشمس وراء أراضي التعاونية وأقفر المكان وغدت الدنيا غريبة. في صباح ذلك اليوم كانت قد ارتفعت من طرف الناحية سحابة كثيفة حبلى يراد لها أن تصل عند منتصف الليل إلى المزارع والحقول في هذه الأنحاء وتلقي عليها بكل ثقل أمطارها الباردة. تطلّع الفلاحون إلى تلك الجهة فشعروا بالبرد، أما الدجاجات فقد قبعت في أقنانها من زمان وهي تترقب حلول ليل خريفي طويل. وسرعان ما خيّم على الأرض ظلام دامس زاد في حلوكته سواد التربة التي داستها أقدام المتجولين، لكن الأعالي كانت لا تزال نيرة، ففي رطوبة النسيم الصامت هناك يسبح لألاء أصفر من أشعة الشمس التي بلغت تلك الذرى وانعكست على آخر الأوراق في البساتين الناعسة وسط الصمت. لم يرغب الناس في البقاء داخل منازلهم. ففي الداخل تداهمهم الأمزجة المعتكرة والأفكار السوداوية. ولذا خرجوا إلى الأماكن

المكشوفة في القرية تدفعهم الرغبة في رؤية بعضهم البعض. وإلى ذلك كانوا يصيخون السمع متوقّعين أن يدوي من بعيد صوت ما في الهواء الندي حتى تلامس آذانهم تباشير السلوى في أجواء التعب والإجهاد. وكان المناضل قد أصدر من زمان أمراً شفوياً بالتقيد بمستلزمات النظافة في الحياة العامة، ولهذا الغرض يتعيّن على الناس أن يتواجدوا في الشارع طول الوقت ولا يختنقوا في منازلهم. وهذا يسهّل على المناضلين القياديين مراقبة الجماهير من النافذة ومواصلة قيادتها.

لاحظ المناضل هو الآخر ذلك اللألاء المسائي الأصفر الشبيه بضوء المدافن، فقرر أن يعدّ في صباح الغد حملة تثقيفية للجوالة التعاونيين إلى الضواحي المتمسكة بمعيشة الريف الرأسمالي الفردي، ثم يعلن عن مهرجان شعبي بالمناسبة.

همَّ رئيس مجلس القرية، وهو فلاح عجوز متوسط الحال، أن يقترب من المناضل ليتلقّى توجيهاً أو أمراً ما، فهو يخشى أن يبقى مكتوف اليدين، لكن الأخير نحّاه بإيمائة من يده واكتفى بالقول إن على مجلس القرية أن يقوي مكتسبات المناضلين السابقة ويحرس الفقراء الممسكين بزمام السلطة ويحميهم من تطاول الكواسر من الفلاحين الأثرياء. عاد الهدوء إلى الرئيس العجوز المفعم بشعور الامتنان ومضى ليعدّ لنفسه عصا الحراسة.

فوشيف يخشى الليالي ويكرهها، فهو يرقد فيها دون أن يذوق طعم النوم. تتكاثر عليه الشكوك، ويطمح شعوره الأساسي بالحياة إلى شيء لائق في الدنيا، والأمل الخفي في الفكر يعده بالخلاص المنشود من المجهول الذي يلفع الوجود. مضى ليبيت الليل جنب

شيكلين، وكان يقلقه أن هذا الأخير سيرقد ويغفو، بينما يظل هو وحده يحدّق في الظلام المخيّم على التعاونية.

- لا تنم الليلة يا شيكلين، فأنا خائف.

- لا تخف. قل لي من يخيفك وسأقتله.

- تخيفني معضلة باطنية يا رفيق شيكلين. أنا نفسي لا أعرفها. يخيّل إليّ دوماً أن هناك، في البعيد، شيئاً خصوصياً أو مادة فاخرة عسيرة المنال، ولذا أعيش في حزن واكتئاب.

- سنحصل عليها، فلا تحزن يا رفيق فوشيف.

- متى يا رفيق شيكلين؟

- يمكنني أن أقول إننا حصلنا عليها. ألا ترى أن كل شيء غدا بالنسبة لنا لاشيء؟..

في طرف التعاونية الفلاحية يقع المركز التنظيمي الذي يمارس فيه المناضل وغيره من القياديين الفقراء تعليم الجماهير. ويقيم فيه أيضاً الفلاحون الأثرياء المشتبه بمقادير ثرائهم وعدد من أفراد التعاونية الذين ارتكبوا مخالفات، بعضهم محتجز في المركز لانسياقهم وراء شكوك طفيفة وأمزجة سوداوية، وبعضهم الآخر لبكائهم أثناء حملة التأميم وتقبيلهم أسيجة أحواشهم عندما انتُزعت منهم وانتقلت إلى الملكية العامة، وبعضهم الثالث لمخالفات أخرى. وكان هناك شيخ عجوز جاء إلى المركز التنظيمي بنفسه، وهو حارس معمل القاشاني. كان ذاهباً في طريقه إلى جهة بعيدة، لكنهم احتجزوه لأن تعبير الغربة منطبع على وجهه.

جلس فوشيف وشيكلين على صخرة وسط باحة المركز في انتظار أن يأويا إلى النوم قريباً في السقيفة. وقع نظر الشيخ حارس معمل القاشاني على شيكلين، فجاء إليه، وكان حتى ذلك الحين جالساً على العشب، ليس بعيداً من هناك، ينظف بدنه من الأوساخ والأقذار تحت القميص.

- ماذا تفعل هنا؟ - سأله شيكلين.

- كنت ماراً من هنا فأمروني بالبقاء وقالوا: سننظر في أمرك، ربما تعيش عبثاً في هذه الدنيا. أردت أن أذهب صامتاً فأعادوني قسراً وصاحوا بي: قف يا ثري. ومن ذلك الحين أقيم هنا وأقتات على أرزاق البطاطس الشحيحة.

- بالنسبة لك لا فرق أين تقيم - قال شيكلين. - المهم أن لا تموت.

- قول صحيح. فأنا أستطيع أن أتعوّد على كل شيء، لكنني أشعر بالضجر في البداية. وقد علّموني هنا الأبجدية ويرغمونني على معرفة الحساب ويقولون بأنني سأكون شيخاً مناسباً من الناحية الطبقية. وبالفعل، ربما سأكون.

كان بوسع العجوز أن يتكلم حتى الصباح، لكن يليسي عاد من الحفرة حاملاً رسالة إلى شيكلين من بروشيفسكي. قرأ شيكلين الرسالة في ضوء القنديل الذي ينير رقعة المركز التنظيمي وعلم منها أن ناستيا حية ترزق وأن جاشيف يوصلها بعربته يومياً إلى روضة الأطفال في المدينة، وهناك أحبّت الدولة السوفيتية وصارت تجمع النفايات والخردة من أجلها، أما بروشيفسكي

نفسسه فهو متألم جداً لمقتل كوزلوف وسافرونوف، كما ذرف جاشيف عليهما دموعاً حرّى.

وكتب الرفيق بروشيفسكي يقول: «الأمر صعب عليّ. أخشى أن أقع في غرام امرأة وأتزوجها، فليست لي أهمية اجتماعية. الأشغال في الحفرة انتهت، وسنضع حجر الأساس في الربيع. اتضح لي أن ناستيا تجيد الكتابة بأحرف كبيرة. أرسل لك ورقة منها».

وكتبت ناستيا تخاطب شيكلين:

«اقضِ على أثرياء الريف كطبقة، يحيا لينين وكوزلوف وسافرونوف. تحياتي إلى تعاونية الفقراء، ولا تحية مني إلى الأثرياء».

راح شيكلين يتمتم بهذه السطور أمداً طويلاً وتأثر لها أشد التأثر، فانتحب، وهو لا يجيد تغضين وجهه تعبيراً عن الاكتئاب، ثم مضى لينام.

في مبنى المركز التنظيمي الكبير غرفة فسيحة جداً، كان الجميع نائمين فيها على الأرضية متحاشكين بسبب البرد. أربعون أو خمسون شخصاً فغروا أفواههم وراحوا يتنفسون إلى أعلى، ومن السقف الواطئ يتدلّى قنديل في ضباب الأنفاس ويتأرجح برفق لأية هزّة طفيفة في الأرضية. رقد يليسي هو الآخر هناك. عيناه الناعستان مفتوحتان بالكامل تقريباً تتطلعان إلى القنديل المنير دون أن يرمش لهما جفن. عثر شيكلين على فوشيف بين النائمين ورقد جنبه وهجع حتى الصباح الأكثر نوراً.

في الصباح اصطف الجوالة الحفاة من أعضاء التعاونية في

صف واحد بباحة المركز التنظيمي، وفي يد كل منهم علم ويافطة وعلى ظهره حقيبة طعام. كانوا ينتظرون المناضل بوصفه الرجل الأول في التعاونية، حتى يعرفوا منه الغرض من ذهابهم إلى البقاع الغريبة.

وصل المناضل إلى المركز مع النشطاء الطليعيّين وأمر الجوالة أن يصطفوا بشكل نجمة خماسية متعددة الأضلاع وقف في وسطها وألقى كلمة أشار فيها على الجوالة أن يتوجهوا إلى فقراء المناطق المجاورة ويوضحوا لهم مزايا الحركة التعاونية من خلال الدعوة إلى النظام الاشتراكي، لأن كل ما سيأتي لاحقاً، ما عدا ذلك، سيكون سيئاً على أية حال. كان يليسي يحمل أطول علم بين الأعلام، وقد استمع إلى المناضل طائعاً، ثم تحرك إلى الأمام بخطواته المعهودة دون أن يعرف أين ينبغي أن يتوقف.

كان الجو رطباً في ذلك الصباح، والريح الباردة تهبّ من البقاع البعيدة الخالية. وقد لاحظ الناشطون الطليعيون حالة الجو في ذاك الوقت البارد، فقال المناضل عنها باكتئاب:

- تخريب.

تقدّم الجوالة الفقراء ومتوسطو الحال سالكين دربهم، حتى اختفى أثرهم بعيداً في فضاء غريب. شيّع شيكلين بنظراته حملة الرجال الحفاة الساعين إلى إشاعة الحركة التعاونية، وهو لا يعلم ماذا عليه أن يتوقع. أما فوشيف فقد لاذ بالصمت دون تفكير. هطل المطر مدراراً من السحابة الكبيرة التي خيّمت معلّقة فوق الأراضي المفلوحة الخالية النائية، فحجب الجوالة المبللين عن الأنظار.

- لماذا ذهبوا؟ - سأل فلاح أقرب إلى الثراء من غيره كان معزولاً عن السكان في المركز التنظيمي بسبب ضرره. وقد منعه المناضل من الخروج، ولذا يعبّر عن آرائه عبر السياج - الأحذية وحدها عندنا تكفي لعشر سنوات، فلماذا يتجاوزون على الغير؟

- ألقِمْه حجراً - قال شيكلين مخاطباً فوشيف. فاقترب هذا الأخير من الفلاح الجريء وصفعه على وجهه. ولم ينبس الرجل ببنت شفة.

عاد فوشيف إلى شيكلين وهو يشعر بالحيرة المعتادة فيما يخص الحياة هناك:

- انظر يا شيكلين كيف يسير فلاحو تعاونيتنا في هذه الدنيا حفاة ضجرين.

- إنهم يسيرون بالذات لأنهم حفاة. - قال شيكلين - ليس هناك ما يفرحهم. وليس في التعاونية ما يخلّصهم من الضجر.

- ربما كان المسيح أيضاً يسير ضجراً والمطر الصفيق يبلل الطبيعة.

- ذكاؤك فقير - أجابه شيكلين - كان المسيح يسير وحيداً ولا أحد يعرف لأي غرض، أما هؤلاء فيسيرون جحافل كاملة من أجل البقاء.

المناضل موجود هنا، في المركز التنظيمي. وقد ضاعت ليلة البارحة هباءً بالنسبة له. لم يأتِ توجيه إلى التعاونية من فوق، فترك عنان الفكر في دماغه على الغارب. لكن الفكر حمل إليه الخوف من الهفوات. كان يخشى أن تتكدس الثروات في أحواش

الفلاحين الفرديين، فيفوّت فرصة الاستيلاء عليها. ويخشى في الوقت ذاته من الإفراط والتطرف، ولذا أمَّم الخيول فقط، وظل يتعذب بسبب الأبقار والأغنام والدواجن غير المؤمَّمة، فالمعزى في يد المالك الخاص غير المنظم هي أيضاً مرتكز للرأسمالية.

وقف المناضل بلا حراك في سكون التعاونية المطبق، وهو يكبح قوة مبادراته الشخصية، والرفاق الذين تحت إمرته يحدّقون في ثغره الصامت ولا يعرفون ماذا يفعلون. خرج شيكلين مع فوشيف من المركز التنظيمي وتوجّها للبحث عن الأدوات المتروكة ليتأكدا من مدى صلاحها للعمل.

قطعا مسافة وتوقفا في الطريق. فقد فتحت على يمين الشارع، دون جهد من إنسان، بوابة خرجت منها خيول هادئة. اجتازت الخيول الشارع بخطى متوازنة دون أن تطأطئ رؤوسها لتقتات من أعشاب الأرض وهبطت متحاشكة إلى منخفض تجمّعت فيه المياه. شربت باعتدال ثم دخلت الماء وتوقفت برهة لأجل الاغتسال، وبعد ذلك صعدت إلى الضفة اليابسة وعادت أدراجها بهيئتها المتحاشكة السابقة. وعندما وصلت إلى أولى المنازل تفرَّق شملها. توقفت فرس عند سطح من القش وراحت تقضم بعضاً منه، وانحنت فرس أخرى لتلتهم بقايا حزم السنابل الهزيلة، أما الأفراس الأكثر تجهّماً فقد مضت إلى الحظائر وانتزعت من أماكن معروفة ومعتادة لديها حزماً من القش سحبتها إلى الشارع. وهناك تقاسمت العلف وحملت كل دابة ما تستطيع حمله بعناية واتجهت صوب البوابة التي خرجت منها جميع الخيول من قبل.

توقفت الأفراس التي وصلت قبل غيرها أمام البوابة وانتظرت صويحباتها، وعندما التأم شملها جميعاً نطحت الفرس الأمامية البوابة فانفتحت على مصراعيها ودخل القطيع كله الحوش حاملاً العلف. فتحت الخيول أفواهها في الحوش فتناثر العلف منها وشكّل كومة واحدة متوسطة الحجم، ثم تحلّقت الخيول المؤمَّمة حول الكومة وأخذت تأكل بتأنٍّ وانتظام ووئام، دونما حاجة إلى عناية الإنسان.

تطلّع فوشيف إلى الخيول بذعر من خلال ثقب البوابة، ودهش للاطمئنان الروحي في القطيع المنهمك بمضغ العلف وكأن كل الخيول مقتنعة تماماً بمغزى الحياة التعاونية الجماعية، بينما يتعذب هو، فوشيف، من هذه الناحية بأسوأ من الدواب.

بعد إسطبل الخيل هذا يأتي منزل أحد الفقراء بدون حظيرة ولا سياج على أرض جرداء. دخل شيكلين وفوشيف المنزل فوجدا فيه فلاحاً منبطحاً على بطنه فوق مصطبة. كانت زوجته تكنس الأرضية، وعندما لمحت القادمين مسحت أنفها بطرف منديلها، وانهمرت دموعها في الحال كالمعتاد.

- ماذا بك؟ - سألها شيكلين.

- آه، يا عزيزي - تفوّهت المرأة وتعالى نحيبها.

- كفكفي دموعك وتكلمي - نصحها شيكلين.

- رقد زوجي بهذه الصورة من عدة أيام... ويقول لي: يا امرأة دسّي الطعام في داخلي، فأنا خاوٍ، غادرت روحي بدني، وأخشى أن أطير. ضعي على قميصي ثقلاً وإلا سأطير. في كل مساء أربط السماور إلى بطنه. فمتى يأتي الفرج؟

اقترب شيكلين من الفلاح وقلبه على ظهره. كان بالفعل خفيفاً، نحيفاً لا تعبّر عيناه الكابيتان المتحجرتان حتى عن الخوف والوجل. مال عليه شيكلين وسأله:

- هل تتنفس؟

- عندما أتذكر التنفس أتنفس - أجاب الرجل بصوت واهن.

- وإذا نسيت؟

- عندئذٍ أموت.

- ربما أنت لا تشعر بمغزى الحياة، فاصبر قليلاً - قال فوشيف للرجل الراقد على المصطبة.

راحت الزوجة تتفرّس خلسة في القادمين. ومن حدّة نظرها وشدّة فضولها جفّت دموعها على غير المتوقع. وقالت:

- كان سليماً معافى يشعر ويرى تماماً بكل فؤاده. وحالما أخذوا الحصان إلى التعاونية رقد وكفَّ عن الشعور والإحساس. أنا مثلاً أستطيع أن أبكي، أما هو فقد عجز حتى عن البكاء.

- الأفضل له أن يبكي، فتهون المصيبة - قدّم فوشيف نصيحته الرشيدة.

- قلت له أنا أيضاً مثل هذا الكلام. فهل يجوز الرقاد بصمت طول الوقت؟ السلطة سترتعب من هذه الحالة. الحقيقة أننا، على ما يبدو، أناس طيبون. فأنا عندما أخرج إلى الشارع تسيل دموعي. وعندما يراني الرفيق المناضل - وهو يرى كل شيء - يأمرني قائلاً: ابكي يا امرأة، ابكي بأشد ما تستطيعين، فقد أشرقت شمس الحياة الجديدة، والنور يشق عيونكم الحالكة.

صوته معتدل لا غضب فيه، وأفهم من نبرته أنهم لن يعاقبوني على البكاء، فأبكي بحرقة قدر ما أستطيع. . .

- يعني أن زوجك فقد ممتلكات روحه قبل فترة، أليس كذلك؟ - خاطبها فوشيف.

- منذ أن كفَّ عن إعتباري زوجة له.

- روحه هي الفرس. - قال شيكلين - فليعش الآن مجرداً من الروح، وستكنسه الريح.

فغرت المرأة فاها، لكنّ الكلمات لم تتناثر منه، فيما انصرف فوشيف وشيكلين في تلك اللحظة.

المنزل التالي ينتصب في حوش كبير مسيّج بسياج مشبك، وفي داخل المنزل رقد فلاح في تابوت غير مفروش. حالما يبلغ مسمعه أي صوت يغمض عينيه كمن قضى نحبه. السراج مشعول من عدة أسابيع فوق رأس «المحتضر» الراقد في التابوت. وهو نفسه يغذّيه من قنينة الزيت بين الفينة والفينة. لمس فوشيف جبهة «المتوفى» فوجدها دافئة. وما إن شعر الرجل بهذه اللمسة حتى حبس أنفاسه بالكامل ليبرد جسمه من الخارج أكثر. صك أسنانه وحال دون تسرّب الهواء إلى داخله.

- بردَ الآن - قال فوشيف.

بذل الفلاح كل طاقاته السوداء ليوقف نبض الحياة في داخله، لكن الحياة فيه لم تتمكن من وقف ركضها الحثيث طوال السنين. وفكر الراقد في تلك الأثناء: «يا لك من قوة لا تريد الانصياع، سأقهرك على كل حال، والأفضل لك أن تنفقي بنفسك».

- يبدو أنه تسخن من جديد - لاحظ فوشيف بعد فترة، فقال شيكلين:

- يعني أن هذا الجلف ليس خائفاً بعد.

نط قلب الفلاح تلقائياً إلى روحه، إلى حنجرته الضيقة، وانقبض هناك لافظاً سخونة الحياة الخطرة إلى البشرة العليا. حرّك الرجل قدميه ليساعد قلبه على الانتفاض، لكنّ القلب خار لغياب الشهيق، فعجز عن العمل. فغر الفلاح فاه وصرخ من لوعة الموت مشفقاً على عظامه السليمة من التحول إلى رفات وخائفاً على قوة الدم في بدنه من التعفّن وعلى نور عينيه من الدنيا المحتجبة وعلى منزله من التيتّم الأبدي.

- يا هذا، الموتى لا يثيرون ضجيجاً. - قال فوشيف للمحتضر.

- لن يبدر مني أي ضجيج - وافقه الرجل وهمد سعيداً لإرضاء السلطة.

- أخذ يبرد - لمس فوشيف رقبة الفلاح.

- أطفئ السراج. - قال شيكلين - الضوء ينير وهو مغمض العينين. هذا تبذير في أموال الثورة.

خرج شيكلين مع فوشيف إلى الهواء الطلق، فصادفا المناضل في طريقه إلى المكتبة لمعالجة بعض شؤون الثورة الثقافية. وكان عليه بعد ذلك أن يتفقد جميع المالكين الفرديين من متوسطي الحال الذين ظلوا خارج التعاونية ليقنعهم بعدم جدوى رأسمالية الأحواش والبيوت المسيّجة.

في المكتبة طابور من نساء وفتيات التعاونية اللواتي تم تنظيمهن من قبل.

- مرحباً أيها الرفيق المناضل. - حيَّيْنه بصوت واحد.

- أهلا وسهلاً بالكوادر - رد المناضل مهموماً ووقف برهة يتأمل بصمت، ثم قال: - سنتمرن مجدداً على الحرف «ألف». استمعن إليّ وسجّلن...

ربضت النسوة على الأرضية، فالمكتبة خالية من أي أثاث، وأخذن يكتبن بقطع من الملاط على ألواح. جلس شيكلين وفوشيف على الأرض أيضاً في محاولة لتقوية معرفتهما بخفايا الأبجدية. وسأل المناضل:

- أي كلمات تبدأ بالحرف «ا»؟

- نهضت فتاة سعيدة على ركبتيها وأجابت بكل ما في عقلها من سرعة ونشاط:

- أمجاد، إنجازات، أناشيد، أوغاد، أرزاق، إعلان، إعدام، أعمام... في آخر كل هذه الكلمات نكتب علامة ترخيم.

- عفارم عليك يا ماكاروفنا - امتدحها المناضل. - سجّلن يا بنات هذه الكلمات على التوالي.

ربضت النساء والفتيات بجد واجتهاد وواظبن على رسم الحروف بالملاط المتكلس. فيما راح المناضل يطيل التحديق عبر النافذة متأملاً في إيجاد طريق لاحق، أو ربما ضجراً من ثقل الوعي الذي لا يشاركه فيه أحد. وسأله فوشيف:

- ما جدوى كتابة علامة الترخيم بعد الكلمات؟

انتبه المناضل على نفسه وقال:

- علامة الترخيم تعني الشدة والقوة والمتانة، وهي خصال نحن بحاجة إليها. لأننا نكتب الشعارات من الكلمات. أما علامة التخفيف فهي التي لا فائدة منها، ويمكن أن نشطبها من الأبجدية. والآن سجّلن يا بنات الكلمات التي تبدأ بالحرف «ب». تكلمي يا ماكاروفنا.

نهضت ماكاروفنا وقالت خاشعة أمام علم اللغة:

- بلشفي، برجوازي، بلاد، بقرة، بئر...

- نسيتِ البيروقراطية - عقّب المناضل - اكتبن. أما أنت يا ماكاروفنا فاذهبي إلى الكنيسة وأولعي لي الغليون...

- يمكنني أن أذهب بدلاً منها - قال شيكلين - فلا تلهي الناس عن غذاء العقول.

ملأ المناضل غليونه بنثار الخنشار ومضى شيكلين ليولعه من شموع الكنيسة الواقعة في آخر القرية. ووراءها ينبسط خلاء الخريف وسكون الطبيعة الأبدي. جال شيكلين ببصره في هذا السكون البائس وفي الصفصافات النائية القابعة في الحقل الطيني، وما كان لديه وجه حق في الاعتراض عليها.

قرب الكنيسة تنمو أعشاب ذاوية ليس بينها مماشٍ أو آثار أخرى لممرات بشرية. يبدو أن العباد لم يقيموا الصلاة هنا من زمان. مضى شيكلين إلى الكنيسة يشق طريقه بين أعشاب القاقلي وراعي الحمام، ثم دخل طنف البناية ولم يكن في مدخلها البارد سوى عصفور مقرور انزوى في ركنه. حتى هذا العصفور لم

يرتعب لمجيء الرجل. راح يتطلع إليه صامتاً، وهو ينوي، على ما يبدو، أن يقضي نحبه قريباً في ظلمة الخريف.

في الكنيسة شموع كثيرة تحترق، وضوؤها الحزين الصامت ينير داخل البناية حتى تخوم القبة، ووجوه القديسين الطاهرة تنظر بلامبالاة إلى الهواء الموات كما ينظر أهالي الآخرة التي يعمّها السكون، لكن الكنيسة نفسها خالية.

أولع شيكلين الغليون من أقرب شمعة ولمح شخصاً يدخن على المدرج في الأمام. فعلاً، كان هناك رجل جالس يدخن على المدرج أمام المذبح.

- جئت من طرف الرفيق المناضل؟ - سأل المدخن.

- ما شأنك أنت؟

- عرفت من الغليون.

- ومن أنت؟

- كنت قسيساً، لكنني تنكرت لعقيدتي. حلقوا لي شعري بتقليعة الفوكستروت. هاك، انظر.

خلع القسيس قبّعته فرأى شيكلين رأسه الحليق على طريقة البنات.

- تقليعة مقبولة، أليس كذلك؟ إلا أنهم لا يثقون بي. يقولون إنني أؤمن باللّه سراً، وإنني عدو سافر للفقراء. ويجب أن أخدم المدة المطلوبة حتى يقبلوني في حلقة الملحدين.

- كيف تخدم تلك المدة يا ملعون؟ - سأله شيكلين.

تجرّع القسيس مرارة الألم وأجاب باندفاع:

- أبيع الشموع للناس، ألا ترى الكنيسة كلها منارة بالشموع؟ أثمانها تُجمع في كأس وتُسلَّم إلى المناضل لشراء جرّار.

- كفاك هذراً، فأين المؤمنون؟

- لا مؤمنون هنا. - أجاب القسيس - إنهم يشترون الشموع ويولعونها لوجه الرب الميتم، بدلاً من صلاة القداس، ويختفون في الحال.

تأوّه شيكلين منفعلاً وسأل:

- لماذا لا يتعمد الناس هنا يا سافل؟

نهض القسيس مدللاً على الاحترام واستعد ليجيب بدقّة ووضوح.

- التعميد ممنوع يا رفيق. ومن يفعل أسجّل اسمه باختزال على ورقة من سجل التأبين...

- تكلم بسرعة. - أشار عليه شيكلين.

- أنا لم أتوقف عن الكلام أيها الرفيق الرئيس، لكنني بطيء عموماً فاعذرني... وفي منتصف كل ليلة أحمل شخصياً تلك الأوراق إلى الرفيق المناضل وفيها أسماء الذين أناروا وجوههم بالصليب المعجزة أو طأطأوا رؤوسهم أمام السموات أو قدّموا آيات التبجيل للقديسين الذين يتضرّع إليهم الفلاحون الأثرياء.

- تعال، اقترب مني - قال له شيكلين.

فهرع إليه القسيس وكاد يسقط من المدرج.

- اغمض عينيك يا حقير.

أغمض القسيس عينيه وطبع على وجهه أمارات الاستكانة

والخضوع. فصفعه شيكلين بشدة على خدّه دون أن يهتزّ بدنه. فتح القسيس عينيه وأغمضهما من جديد، لكنه تمالك نفسه ولم يسقط كيلا يتصوره شيكلين متمرداً.

- هل تريد أن تعيش؟ - سأله شيكلين.

- لا جدوى من حياتي، يا رفيق. - أجاب القسيس بحكمة - فأنا لم أعد أشعر بروعة الخليقة، بقيت بدون الرب، وبقي الرب بدوني...

تلفّظ القسيس الكلمات الأخيرة وسجد يبتهل إلى ملاكه الحارس ملامساً الأرض بتقليعة الفوكستروت.

دوّى في القرية صفير طويل تناهى بعده صهيل الخيول.

كفَّ القسيس عن الابتهال وأدرك معنى تلك الإشارة الصوتية، فقال خاشعاً:

- نفير الاجتماع التأسيسي العام.

ترك شيكلين الكنيسة إلى الحشائش التي أمامها، فرأى هناك فلاحة تتربص متجهة إلى بيت اللّه وهي تسوّي القاقلي المدعوك خلفها. وعندما لمحت شيكلين تجمّدت في مكانها مذعورة. ولشدة هلعها مدّت له يدها بخمسة كوبيكات ثمناً للشمعة.

* * *

المركز التنظيمي مكتظ بالناس. فقد حضر الفلاحون التعاونيون والفلاحون الفرديون غير المنظمين ممن لا يزالون ضعيفي الوعي أو لديهم حصة من الحياة الأقرب إلى الثراء ولم ينتموا إلى التعاونية.

كان المناضل واقفاً على مدرج المدخل العالي يراقب بحزن صامت حركة الجمهور الحي على أرض المساء الرطبة. كان متيّماً، في صمت، بالفقراء المندفعين بحماس إلى الأمام نحو المستقبل المجهول، ولم يتناولوا من الطعام سوى رغيف زهيد، فالأرض بالنسبة لهم، على أية حال، باتت خالية إلا من القلق. كان في السر يمنح أطفال الفقراء حلوى المدينة، وبحلول الشيوعية في الريف ينوي الزواج، لاسيما وأن خصال النساء ستتجلى آنذاك بشكل أفضل. والآن أيضاً وقف طفل صغير من أبناء الفلاحين جنب المناضل يتطلّع في وجهه.

- لماذا تنظر إليّ؟ - سأله المناضل - هاك، خذ حلوى.

أخذ الصبي قطعة الحلوى، لكنه بحاجة إلى أكثر من الطعام.

- يا عم، أنت أذكى الناس وليس على رأسك سدارة، لماذا؟

مسّد المناضل شعر الصبي دون أن يجيب. قضم الطفل قطعة الحلوى المتحجّرة وهي تلمع كجليد مهشّم، وبدت عليه الدهشة، فلا شيء في داخل القطعة سوى الصلابة. أعاد الصبي ما تبقّى من الحلوى إلى المناضل:

- كلها بنفسك، ليس في داخلها مربّى، وهي متحجّرة مثل تعاونياتك، ليس فيها ما يبعث السرور.

ابتسم المناضل بفطنة وذكاء. فقد أدرك أن هذا الطفل عندما يكبر سيتذكره في نور الاشتراكية الباهر بعد أن يتم بناؤها بجهود الطليعيين المثابرة من سكنة أحواش الريف المسيّجة.

كان فوشيف مع ثلاثة من الفلاحين الراسخي العقيدة يحملون

الجذوع ويكوّمونها أمام بوابة المركز التنظيمي، فقد كلّفهم المناضل بهذا العمل قبل حين.

مضى شيكلين، هو الآخر، في أثر الكادحين الأربعة، والتقط جذعاً جنب المنخفض وحمله إلى المركز حتى تزداد المنفعة العامة وتقل الأحزان حواليه.

- ماذا سنفعل أيها المواطنون؟ - تفوه المناضل مخاطباً المادة البشرية المتواجدة أمامه. - هل تنوون غرس بذور الرأسمالية من جديد، أم أنكم عدتم إلى رشدكم؟

كان الفلاحون المنضوون في التعاونية جالسين على الأرض يدخنون بارتياح ويمسّدون لحاهم التي تباطأ نموّها لسبب ما خلال الشهور الستة الأخيرة، أما الفلاحون غير المنظمين فقد وقفوا يدارون أرواحهم الهزيلة، لكن أحد أعوان المناضل قال لهم إن صدورهم خالية من الأرواح، وليس فيها سوى رغبة الامتلاك، وهم الآن لا يعرفون على العموم ماذا سيحدث لهم طالما لن تبقى هناك أملاك. طأطأ البعض رؤوسهم يطرقون على الصدور وينصتون إلى أفكارهم المنبعثة منها، لكن القلوب تنبض بيسر وكآبة، فهي خالية لا تجيب. الواقفون يتطلعون إلى المناضل دون أن يحيدوا ببصرهم عنه، وأقربهم إلى المدخل يحدّقون في هذاالرجل القيادي بعيون لا يرمش لها جفن حتى يتيقّن من استعدادهم التام.

في تلك الأثناء فرغ شيكلين وفوشيف من نقل الجذوع وراحا ينجران أخاديد في أطرافها كي تتداخل فيما بينها. كانت الشمس غائبة عن الطبيعة يوم أمس وهذا اليوم، فحلّ المساء الكئيب

مبكراً وخيّم على الحقول البليلة. وشمل السكون الآن الدنيا كلها لا يعكره سوى فأس شيكلين التي يرجع صداها بشكل صرير باهت في الطاحونة القريبة وأسيجة المنازل.

- ماذا؟ - قال المناضل بصبر من فوق - أم أنكم ستظلون واقفين على هذه الصورة بين الرأسمالية والشيوعية؟ لقد حان موعد التحرك. فالدورة الرابعة عشرة للحزب منعقدة في مركز الناحية.

- أيها الرفيق المناضل، اسمح لمتوسطي الحال أن يظلوا واقفين برهة أخرى - توسّل اليه فلاحون من الصفوف الخلفية - فلربّما نتعوّد، المهم أن نتعوّد في البداية، وفيما بعد نصبر ونتحمّل كل شيء.

- طيب، يمكنكم أن تظلوا واقفين ما دام الفقراء جالسين - سمح لهم المناضل - فالرفيق شيكلين، على أية حال، لم يفرغ من إعداد الجذوع بعد.

- وما حاجتك إلى الجذوع يا رفيق؟ - سأل فلاح متوسط الحال من بين الواقفين في الخلف.

- نبني طوفاً من أجل تصفية الطبقات، وغداً ننقل عليه الأثرياء بالطريق النهري إلى البحر وأبعد...

أخرج المناضل وريقات التأبين وقائمة الفرز الطبقي وراح يؤشر بالقلم على الورق. قلمه ملون، وهو يؤشر بالطرف الأزرق تارة، وبالطرف الأحمر تارة أخرى. ويتنهّد أحياناً ويفكر دون أن يسجّل إشارات قبل أن يستقرّ على رأي. الفلاحون يقفون فاغري

الأفواه ينظرون إلى القلم بملل يكتنف الروح الواهنة التي تعذبت في نفوسهم خوفاً على بقايا الأموال. كان شيكلين وفوشيف يعملان معاً بفأسين ويرصفان الجذوع الواحد جنب الآخر حتى ينشأ منها طوف فسيح.

مال أقرب الفلاحين متوسطي الحال على درابزين المدخل وأسند رأسه إليه وظل في هذه الوضعية هادئاً بعض الوقت، ثم قال:

- أيها الرفيق المناضل!..

- تكلم بوضوح - طلب المناضل من الفلاح المتوسط الحال وهو في شغل شاغل عنه.

- اسمح لنا أن نداري مصائبنا هذه الليلة وغداً سنفرح معك مدى الدهر.

فكّر المناضل قليلاً.

- الليل طويل، والوتائر سريعة في كل مكان. داروا مصائبكم إلى أن يتم بناء الطوف.

- لا بأس. إلى أن يتم بناء الطوف. - قال الفلاح وانتحب دون أن يضيع الوقت المتبقي لآخر مصيبة.

ولولت النسوة الواقفات وراء سياج المركز التنظيمي رأساً بأعلى أصواتهن المؤثرة حتى كفَّ شيكلين وفوشيف عن معالجة الجذوع بفأسيهما. ونهض فقراء التعاونية المنظمون من مجلسهم على الأرض مرتاحين، فهم ليسوا بحاجة إلى البكاء، ومضوا ليتفقدوا ممتلكات القرية المؤمَّمة المشتركة التي هم بأمسّ الحاجة إليها.

- ابتعد عنا أنت أيضاً لبعض الوقت حتى لا نراك. - توسّل إلى المناضل فلاحان متوسطا الحال.

تنحّى المناضل عن المدخل ومضى إلى المنزل وراح يحرر بتلهّف تقريراً عن تنفيذ تدابير إشاعة التعاونيات الريفية بالكامل وتصفية طبقة الفلاحين الأثرياء بتهجيرهم على الطوف. علماً بأن المناضل لم يضع فارزة بعد كلمة الأثرياء، لأن هذه الفارزة لم ترد مكتوبة في التوجيه الذي تسلَّمه. ثم طلب من مسؤولي الناحية أن يسمحوا له بحملة كفاحية جديدة ليعمل الطليعيون المحليون بلا انقطاع ويرسموا بدقّة الخط العام المحبوب إلى الأمام. وتمنى المناضل كذلك أن يؤكد المسؤولون في قرارهم أنه هو الشخص الأكثر تمرّساً من الناحية الإيديولوجية في مجمل البناء الفوقي في المنطقة، لكنّ أمنيته هذه خفتت دون أن تترك أثراً. فقد تذكّر أنه اضطر بعد حملة تخزين الحبوب أن يعلن بأنه أذكى إنسان في المرحلة الراهنة من حياة القرية، وعندما سمع الناس هذا الكلام صمّم أحد الفلاحين أن يتحوّل إلى امرأة وأعلن عن ذلك صراحة.

فُتح باب المنزل، فدوّى فيه ضجيج آلام القرية. نفض الداخل البلل من ثيابه وقال:

- أيها الرفيق المناضل سقط ثلج وهبّت ريح باردة.

- فليسقط. وماذا يهمّنا؟

- لا يهمّنا، سنؤدي المطلوب مهما حدث - وافقه الفلاح الفقير الكهل. وهو مندهش دوماً لأنه لا يزال على قيد الحياة. فهو لا يمتلك شيئاً سوى خضروات جنينته ومنحة الفقراء، وما كان بوسعه أن يعيش حياة الرغد والكفاف.

- قل لي أيها الرفيق الرئيس كي يهدأ بالي: هل أنتسب إلى التعاونية وأرتاح أم أنتظر؟

- انتسب بالطبع، وإلا سأنفيك إلى المحيط.

- الفقير لا يهاب شيئاً في أي مكان. كان بودّي أن أنتسب من زمان لكنني أخشى زرع السويا.

- أي سويا؟ إذا كنت تعني الصويا فهي فول رسمي.

- نعم، أعني هذا الفول اللعين.

- لا تزرعه. سآخذ حالتك النفسية بعين الاعتبار.

- أرجوك.

أدرج المناضل هذا الفلاح الفقير في سجل التعاونية وتعيَّن عليه أن يسلّمه استمارة الانتساب وفيها تأكيد أن العجوز لن يزرع الصويا، وقد اضطر إلى ابتكار الصيغة المناسبة لهذه الاستمارة، فالفلاح ما كان راغباً إطلاقاً في الانصراف بدونها.

في الخارج هطل الثلج البارد كثيفاً مدراراً. واستكانت الأرض وادعة تحت كسائه. لكن صخب الفلاحين متوسطي الحال بدَّد السكون المطبق. راح الحارث العجوز إيفان كريستينين يقبّل الأشجار الفتية في بستانه ويجتثها من الجذور، بينما تولول زوجته وتنوح منحنية على الأغصان العارية. وقال لها كريستينين:

- لا تنوحي يا عجوز. ستكونين أنت في متناول فلاحي التعاونية، أما هذه الأشجار فهي جزء من كياني، والأفضل أن تتعذب الآن، وإلا ستشعر بالضجر أثناء التأميم والتهجير.

عندما سمعت الزوجة هذا الكلام من زوجها أخذت تتلوى

وتتقلب على الأرض، في حين ركضت امرأة أخرى، ربما هي عانس عجوز أو أرملة، في الشارع وهي تعوّل وتندب بصوت مؤثر كأصوات الراهبات، حتى أراد شيكلين أن يطلق عليها النار. ثم، عندما رأت زوجة الفلاح تتلوى على الأرض، هوت هي الأخرى وراحت تترافس بقدمين في جوارب من الجوخ.

احتوى الليل القرية بكاملها، وصار الهواء معتماً يكاد يختنق بالثلج وتكاد تختنق به الصدور. ومع ذلك تعول النساء في كل مكان جاهدات أن يتعوّدن على المصيبة بالتدريج، حتى نشأ من عويلهن مسلسل صوتي لا ينقطع. وراحت الكلاب وسائر الحيوانات العصبية الصغيرة تسند هذا العويل المستديم، فغاصت التعاونية في ضجيج قلق مثلما في مشلح الحمّام. أما الفلاحون المتوسطو الحال والأثرياء فكانوا مشغولين بصمت في أحواشهم ومستودعاتهم التي يكتنفها نحيب النساء عند البوابات المشرعة على مصاريعها. والخيول الهزيلة غير المؤمَّمة تغفو بحزن موثقة من تحت البطون إلى جانبي المرابط كيلا تسقط على الأرض، حتى نفق بعضها واقفاً. فالفلاحون الذين لا يرغبون في تكبّد الخسائر كفّوا عن إطعام الخيول في انتظار تأسيس التعاونية حتى تخضع للتأميم أبدانهم وحدها، ولا يجرّوا الماشية معهم إلى بحر المصائب والويلات.

- هل أنت حية يا معيلتنا؟

الفرس غافية في المربط، وقد دلّت رأسها النحيف إلى الأبد. إحدى عينيها شبه مغمضة، أما العين الأخرى فلم تجد القوة الكافية لإغماض جفنيها، فظلت تحدّق في الظلام. برد الإسطبل

بعد انقطاع أنفاس الفرس، فداهمه الثلج واستقر على رأسها دون أن يذوب. أطفأ الفلاح عود الثقاب وعانق رقبة الفرس وظل واقفاً ميتماً يشمّ بالذاكرة رائحة العرق الذي كان ينبعث منها أثناء الحراثة.

– عاجلك الموت، أليس كذلك؟ لا يهم، أنا أيضاً سأموت قريباً، ونكون في وئام.

دخل كلب الحظيرة وتشمّم قائمة الفرس الخلفية دون أن يلاحظ وجود الرجل. ثم نبح وغرز أنيابه في لحمها واقتطع لنفسه شريحة. ابيضَّت عينا الفرس في الظلمة، ونظرت بهما كلتيهما وخطت خطوة واحدة إلى الأمام دون أن يُنسيها الشعور بالألم ضرورة الحياة.

– إذا كنتِ تريدين الانتساب إلى التعاونية فاذهبي وانتسبي. أما أنا فسأنتظر. – قال لها صاحب البيت.

التقط حزمة من القش في الركن وقربها من بوز الفرس. اسودّ موقا عينيها، فقد استنزفت آخر قابليات البصر، لكنها لا تزال تشم رائحة العشب. ارتجف منخراها وانفرج فمها وتهدّل فكّها الأسفل عاجزاً عن المضغ. كانت حياتها تتقلص وتتضاءل بعد أن عادت إليها الروح مرتين، بسبب الألم في المرة الأولى واستجابة للعلف في الثانية. وبعد ذلك لم يعد منخراها يرتجفان للقش، فيما راح كلبان آخران ينهشان على انفراد قائمتها من الخلف، لكن الحياة لا تزال تتململ فيها. كانت تلك الحياة تزداد فقراً وإملاقاً وتتجزأ وتتفتّت دون أن تنفق.

تساقط الثلج على الأرض الباردة وهو ينوي البقاء حتى

الشتاء. تلفَّعت الأرض كلها بغطاء ناصع وادع استعداداً للنوم، لكن الثلج يذوب حول الزرائب والإسطبلات والتربة سوداء هناك، لأن دم الأبقار والأغنام الدافئ سال من تحت الأسيجة إلى الخارج وتعرّت مواضع الصيف، فالفلاحون أجهزوا على آخر الممتلكات الحية القادرة على التنفس وراحوا يأكلون لحومها ويحملون كل أفراد العائلة على تناول تلك اللحوم. التهموا لحم البقر والضأن في تلك الفترة القصيرة بحرص شديد، كما يتناول المؤمنون الأضاحي والقرابين. لا أحد يشتهي طعاماً، ولكنْ لا بدّ من إخفاء لحوم الذبائح العزيزة داخل البدن وحمايتها فيه من التأميم. بعض الفلاحين البخلاء تورّموا من زمان لكثرة ما أكلوا من لحوم حتى تعسّر عليهم السير، فصاروا كالمستودعات المتحركة. وبعضهم الآخر يتقيأ باستمرار، لكنهم عاجزون عن فراق الماشية، فراحوا يلتهمونها حتى العظام دون أن يفكروا بمنفعة البطون. أما الذين فرغوا من أكل ماشيتهم أو سلّموها إلى محجر التعاونية فقد رقدوا في توابيت خالية وأخذوا يعيشون فيها كما في حوش ضيّق يوفّر لهم العزلة والاطمئنان.

ترك شيكلين العمل في إعداد الطوف في ذلك الليل، وشعر فوشيف هو الآخر بضعف في البدن لغياب الإيديولوجية، حتى عجز عن رفع الفأس، ورقد على الثلج. فالحقيقة، على أية حال، غير موجودة في الدنيا، وربما كانت موجودة في نبتة أو حشرة باسلة، لكنّ متسولاً جوالاً مرّ من هناك وأكل تلك النبتة أو سحق الحشرة القابعة تحت، ثم قضى نحبه في وهدة الخريف، ونثرت الريح رفاته وحوَّلته إلى عدم.

لاحظ المناضل من داخل المركز التنظيمي أن الطوف غير جاهز بعد، لكن عليه أن يبعث في صباح غد مظروفاً إلى الناحية يتضمّن التقرير النهائي، ولذا أطلق في الحال صفير الاجتماع التأسيسي العام. تقاطر الناس من منازلهم عندما سمعوا الصفير وتحشدوا في ساحة المركز بجميع كياناتهم غير المنتسبة إلى التعاونية بعد. جفَّت الدموع على وجوه النساء وكففن عن البكاء، وتحلى الرجال بالصبر ونكران الذات، وهم على استعداد للتنظيم التعاوني إلى أبد الآبدين. اقتربوا بعضهم من بعض ووقفوا في كتلة متحاشكة صامتة. حدّقت العيون في المدخل حيث وقف المناضل وبيده فانوس يعيقه نوره عن رؤية ملامح الوجوه، لكنّ تلك الوجوه تراه بكامل الوضوح. وسأل:

- هل أنتم مستعدون؟

- تمهّل - قال شيكلين للمناضل - فليودّعوا بعضهم بعضاً حتى الحياة المرتقبة.

تهيّأ الفلاحون، لكنّ رجلاً منهم تفوّه في السكون:

- أمهِلْنا لحظة أخرى.

قال الفلاح كلمته وعانق جاره وقبَّله ثلاث مرات مودعاً:

- وداعاً، يا إيغور سيميونيتش، اعذرني.

- المعذرة للّه، يا نيكانور بتروفيتش، اعذرني أنت أيضاً وسامحني.

أخذ الواحد منهم يقبّل الطابور كله ويعانق الأبدان التي كانت غريبة عليه حتى الآن. وراحت كل الشفاه تقبّل بعضها بعضاً بمودّة حزينة.

– وداعاً، يا عمّتي داريا، سامحيني لأني أحرقت مستودعك.

– سامحك اللّه، يا أليوشا، لم يعد المستودع ملكاً لي على أية حال.

ظل الكثيرون، بعد أن تلامست شفاههم، واقفين بعض الوقت في شعور طيب لتحتفظ الذاكرة إلى الأبد بصلة القربى الجديدة، فقد عاشوا حتى الآن دون أن يتذكر بعضهم بعضاً أو يشفق عليه.

– فلنتعانق، يا ستيبان، لنصبح إخوة.

– وداعاً يا إيغور، عشنا في عداوة، وها نحن ننتهي بنزاهة.

بعد تبادل القبل ركع الجميع، ركع كل منهم للجميع، ثم نهضوا أحراراً بأفئدة خالية.

– نحن مستعدون الآن، أيها الرفيق المناضل، سجِّلنا جميعاً في خانة واحدة وسندلّك بأنفسنا على الأثرياء.

إلا أن المناضل سبق وأن أشَّر على أسماء جميع الأهالي، بعضهم إلى التعاونية وبعضهم إلى الطوف.

– يبدو أن الوعي استيقظ في نفوسكم – قال المناضل – يعني أن نشاط المناضلين الجماهيري أثَّر فيكم. ذلك هو الخط الواضح نحو المستقبل الوضاء.

في تلك الأثناء صعد شيكلين إلى المدخل العالي وأطفأ فانوس المناضل. فالليل، بسبب الثلج الناصع، منير حتى بدون الكيروسين.

– هانت الأمور عليكم الآن يا رفاق؟ – سأل شيكلين.

- نعم - جاء الجواب من جميع الأرجاء - نحن الآن لا نشعر بشيء، فلم يبقَ في داخلنا غير الرفات.

كان فوشيف قد رقد منزوياً دون أن يغمض له جفن بدون هدوء الحقيقة في أعماق روحه، فنهض من على الثلج ومضى إلى الجماهير.

- مرحباً - حيّا التعاونية كلها فرحاً - لقد صرتم الآن مثلي، فأنا أيضاً عدم.

- مرحباً - فرحت التعاونية بأجمعها لفرد واحد.

لم يطق شيكلين، هو الآخر، البقاء وحيداً في المدخل والناس متجمهرون معاً في الأسفل. هبط لتحت وأشعل موقداً على الأرض من حطب الأسيجة، فراح الجميع يتدفأون على النار.

خيّم الليل على البشر معتكراً، ولم يتفوّه أحد بكلمة. لا شيء سوى نباح متواصل يتناهى من قرية غريبة وكأن كلباً متواجد هناك منذ الأزل.

* * *

. . . استيقظ شيكلين قبل الآخرين، لأنه تذكّر شيئاً هاماً للغاية ونسيه حالما فتح عينيه. أمامه وقف يليسي حاملاً ناستيا. كانت الطفلة بيديه منذ حوالى ساعتين، وهو يخشى أن يوقظ شيكلين، بينما هي نائمة بهدوء في دفء صدره الحنون.

- هل عذبتَ الطفلة؟ - سأله شيكلين.

- كيف أستطيع؟ - أجاب يليسي.

وما إن فتحت ناستيا عينيها ووقع بصرها على شيكلين حتى انتحبت. كانت تظن أن كل شيء في العالم حقيقة أبدية لا جدال فيها، وطالما ذهب شيكلين فلن تجده في أي مكان من الدنيا. وفي العنبر كانت تراه كثيراً في المنام، حتى أنها لم تعد ترغب في النوم كيلا تتعذب عندما تفتقده في الصباح.

أخذ شيكلين البنية بين يديه.

- كيف كنت هناك؟

- لا بأس. - أجابت ناستيا - وأنت، هل بنيت التعاونية؟ أرني إياها.

نهض شيكلين ووضع رأس ناستيا على كتفه ومضى ينتزع أملاك الفلاحين الأثرياء.

- ألم يسئ جاشيف إليك؟

- كيف يسيء إليّ وأنا باقية حتى الاشتراكية بينما سيموت هو قريباً؟

- أجل، لن يسيء إليك أغلب الظن. - قال شيكلين وجلب انتباهه تحشد غرباء جاءوا إلى المركز التنظيمي وتوزعوا على جماعات صغيرة وكبيرة، في حين كان أعضاء التعاونية نائمين في حشد واحد حول الموقد الليلي الخابي. وكان في شارع التعاونية أيضاً أناس قادمون من بعيد. وقفوا صامتين في انتظار الفرحة التي وعدهم بها يليسي وسائر الجوالة التعاونيين. تحلّق بعض الغرباء حول يليسي وأمطروه بالأسئلة:

- أين خيرات التعاونية؟ أم أننا جئنا إلى هنا عبثاً؟ هل نظل نتشرد طويلاً ودون توقف؟

- طالما جلبناكم إلى هنا فالمناضل يعرف لماذا. - أجاب يليسي.

- مناضلك هذا نائم على ما يبدو.

- المناضل لا ينام. - أجاب يليسي.

ظهر المناضل مع معاونيه في المدخل، وجنبه بروشيفسكي، وجاشيف يزحف خلفهما. كان الرفيق باشكين قد بعث بروشيفسكي إلى التعاونية، لأن يليسي عرّج ليلة البارحة على الحفرة وتناول العصيدة عند جاشيف، لكنه، بسبب قصر عقله، لم يستطع أن يتفوّه بكلمة. عندما علم باشكين بذلك قرر أن يرسل بروشيفسكي على جناح السرعة إلى التعاونية بوصفه كادراً للثورة الثقافية، فالناس المنظّمون لا يمكن أن يعيشوا بدون العقل. أما جاشيف فقد توجّه إلى التعاونية الفلاحية من تلقاء نفسه، بوصفه معوّقاً. ولذا وصل ثلاثتهم حاملين ناستيا، يرافقهم الفلاحون الذين صادفوهم في الطريق وأمرهم يليسي بأن يلتحقوا بهم ليتمتعوا بالبهجة والأفراح في التعاونية. وقال شيكلين مخاطباً بروشيفسكي:

- اذهب بسرعة لإتمام الطوف، وسأعود إليك قريباً.

مضى يليسي مع شيكلين ليريه كادحاً ريفياً فقيراً للغاية، كان يعمل مجاناً من سالف الزمان لصالح الفلاحين الأثرياء، أما الآن فقد صار عامل مطرقة في ورشة حدادة التعاونية ويتلقّى أرزاقاً

شأن حدّادي الدرجة الثانية، لكنه لا يعتبر عضواً في التعاونية، بل مجرد أجير. وقد قلق المسؤولون النقابيون أشد القلق عندما بلغهم نبأ هذا الأجير الريفي الرسمي الوحيد في الناحية كلها. أما باشكين فقد حزن جداً على هذا البروليتاري المجهول ورغب في إنصافه وتخليصه من الجور والاضطهاد بأسرع ما يمكن.

توقفت جنب ورشة الحدادة سيارة لم يطفأ محركها، بل ظل يحرق البنزين جزافاً. نزل منها باشكين، وقد جاء مع زوجته ليبحث بهمّة وتعطّش عن هذا الأجير المسكين،الوحيد المتبقي في المنطقة، ويمنحه حصة من الحياة أفضل مما هو فيه، ثم يحل اللجنة النقابية لتوانيها في خدمة جمهور الأعضاء. وقبل أن يصل شيكلين ويليسي إلى الورشة خرج منها باشكين واستقل سيارته عائداً، وقد أطرق وكأنه لا يعرف ما يتعيّن عليه أن يفعل الآن. ولم تكن عقيلة الرفيق باشكين قد غادرت السيارة، كل ما فعلته هو حماية رَجلها الحبيب من الأخريات المعجبات أشد الإعجاب بسلطة زوجها ويتصورن أن صلابته في القيادة هي قوة الحب التي يمكنه أن يمنحهن إياها.

دخل شيكلين حاملاً ناستيا إلى ورشة الحدادة، أما يليسي فقد ظل واقفاً في الشارع. الحدّاد يضغط المنفاخ في الوجاق، والدب ميشكا يطرق بالمطرقة على قطعة حديدية ساخنة فوق السندان.

- أسرع، يا ميشكا، ألسنا، أنا وإياك، فرقة طليعية؟ - قال الحدّاد.

لكن الدب يعمل أصلاً بجهد ما بعده جهد، حتى فاحت رائحة شعره بعد أن احترق بعضه بشرر الحديد دون أن يلاحظه.

- والآن كفاية. - قال الحدّاد أخيراً.

توقف الدب عن الطرق وابتعد، وشرب نصف دلو من الماء لشدة عطشه. مسح بوزه البروليتاري المكدود وبصق في راحته وشرع من جديد في طرق الحديد. فقد وضع الحدّاد أمامه واحدة من حدوات طلبها فلاح من غير أعضاء التعاونية يقيم في الريف ليس بعيداً عنها.

- يا ميشكا، يجب أن نصنع الحدوات بسرعة، صاحبها سيأتي في المساء ويجلب لنا شراباً. - أشار الحدّاد إلى رقبته وكأنها أنبوب للفودكا. فهم الدب قوله متصوراً المتعة المرتقبة وبدأ يطرق الحدوة بحماس كبير. - وأنت يا رجل ماذا تريد؟ - سأل الحدّاد شيكلين.

- أعطنا هذا الدب الكادح ليدلّنا على الفلاحين الأثرياء. يقال إنه خدم عندهم مدة طويلة.

فكر الحدّاد برهة ثم قال:

- هل بحثت هذه المسألة مع المناضل؟ ففي الورشة خطة صناعية مالية، وأنت تفسد علينا تنفيذها.

- بحثتها معه - أجاب شيكلين - وإذا فشلت الخطة فسآتي بنفسي لإنقاذها... ألم تسمع بجبل أرارات؟ كان بوسعي أن أكوّم جبلاً مثله لو وضعت التراب الذي حفرته بمعولي في كومة واحدة.

- خذه إذن. - قال الحدّاد قاصداً الدب ميشكا - ولكن اذهب أولاً إلى المركز التنظيمي واقرع الناقوس حتى يسمع ميشكا جرس الغداء، وإلا فلن يتزحزح من مكانه. إنه يحب الانضباط.

بعثوا يليسي إلى المركز التنظيمي، فمضى دون حماس، فيما كان الدب قد أنجز في تلك الأثناء أربع حدوات وطلب المزيد. إلا أن الحدّاد كلّفه بأن يجلب الحطب ليعدّ منه جمراً فيما بعد، فجلب الدب جزءاً من سياج. تطلعت ناستيا إلى الدب المسودّ المحترق الشعر وفرحت لأنه «يؤيدنا» ولا يؤيد البرجوازيين. وقالت:

- إنه يتعذب أيضاً، يعني أنه واحد منا، أليس كذلك؟

- بالطبع - أجاب شيكلين.

دق الناقوس، فترك الدب عمله في الحال. وكان قبل ذلك يحطم السياج ويقطعه قطعاً صغيرة، أما الآن فقد عدل قامته رأساً وتنفّس الصعداء: خلاص. دلّى قائمتيه الأماميتين وغمرهما بماء الدلو للاغتسال ثم مضى ليتسلّم القوت. أومأ الحدّاد إلى شيكلين فسار الدب خلفه بهدوء ماشياً، كما عوّدوه، على قائمتيه الخلفيتين. لمست ناستيا كتف الدب، فلمسها هو أيضاً براحته لمسة وادعة وتثاءب بفم عريض فاحت منه رائحة طعام قديم.

- انظر، يا شيكلين، شابَ شعره كله.

- عاش مع الناس فشابَ شعره من كثرة المصائب.

انتظر الدب حتى تنظر إليه البنت من جديد، وعندما حدّقت فيه أغمض لها إحدى عينيه غامزاً، فقهقهت. وطبطب الدب على بطنه حتى بقبق شيء في داخله، فقهقهت ناستيا بصوت أعلى، لكن الدب لم يعرها اهتماماً هذه المرة.

الجو جنب بعض المنازل بارد كما في الحقل، ودافئ جنب بعضها الآخر. والأبقار والخيول مطروحة في الحظائر جيفاً

مقطعة متعفّنة. سخونة الحياة الطويلة التي تكدّست تحت أشعة الشمس لا تزال تنبعث منها إلى الجو، إلى الفضاء الشتوي الفسيح. مرّ شيكلين والدب بمنازل كثيرة، ولم يفلحا حتى الآن في تصفية طبقة الفلاحين الأثرياء الذين يسمّونهم الكولاك أو القبضايات في أيما مكان.

الثلج الذي كان يتناثر بين الحين والآخر من الأعالي صار يهبط بكثافة وشدة. فقد هبّت ريح من جهة ما وأخذت تثير زوبعة ثلجية كما يحدث عادة حينما يأخذ الشتاء حقه كاملاً. لكنّ شيكلين سار مع الدب في الدروب المستقيمة عبر الثلج المدرار الذي يصفع الوجوه. فهذا الرجل لا يعبأ بأمزجة الطبيعة. إلا أنه خبأ ناستيا في عبّه ليقيها البرد وترك رأسها بارزاً من هناك كيلا تشعر بالملل في الدفء المظلم. كانت البنت تراقب الدب طول الوقت، وتشعر بالارتياح لأن الحيوانات هي الأخرى طبقة عاملة، أما الدب الحدّاد فكان ينظر إليها نظرته إلى أخت منسية ترعرع معها في أحضان أمه في غابة الطفولة الصيفية. كان يريد أن يبعث السرور في قلب ناستيا، فراح يتطلع فيما حواليه لعله ينتشل حاجة أو يحطم غصناً يقدّمه هدية لها. لكنه لم يجد أية مادة تبعث الفرحة في النفس ما عدا منازل الطين وسطوح القش والأسيجة. وعندذاك حدّق في العاصفة الثلجية وتلقّف بلمح البصر شيئاً صغيراً جداً وقرّب قبضته من وجه ناستيا. التقطت البنت ذبابة من راحته وهي تعرف أن الذباب غير موجود الآن، فقد مات في أواخر الصيف. لكن الدب راح يطارد الذباب على طول الطريق، وكان يطير سحباً كثيفة مختلطة بالثلج العاصف.

- من أين هذا الذباب ونحن في الشتاء؟ - سألت ناستيا.

- من الفلاحين الأثرياء يا ابنتي- أجابها شيكلين.

أطبقت ناستيا يدها وخنقت ذبابة الأثرياء السمينة التي أهداها إياها الدب ميشكا وأضافت قائلة:

- اقتل الذباب الآن كطبقة، فإذا كان موجوداً في الشتاء سينعدم في الصيف، ولن تجد الطيور طعاماً حينذاك.

قهقع الدب فجأة قرب منزل متين نظيف واحرنجم رافضاً المسير وقد نسي الذبابة والطفلة. التصق وجه امرأة بزجاج النافذة وسالت دموع على الزجاج وكأن تلك المرأة احتفظت بها خصيصاً لتسيل في هذه اللحظة. فغر الدب فمه عندما رأى المرأة وزعق بأشد من السابق، حتى فرّت المسكينة إلى أعماق المنزل.

- أثرياء - قال شيكلين، وفتح بوابة السياج من الداخل وولج الحوش، فتبعه الدب إلى هناك.

في البداية تفقّد الاثنان الأماكن والمستودعات الخفية. فوجدا في مستودع مموَّه بالعصافة أربع أو خمس نعاج ميتة. وعندما رفس الدب إحدى الجيف بقائمته انطلق منها ذباب كان يعيش في بحبوحة بين الشقوق الساخنة في لحم النعجة، ويقتات عليه، فحلّق شبعان بين حبات الثلج المتساقط دون أن يشعر ببرد الشتاء.

أنفاس دافئة تنبعث من المستودع، ولعل الثقوب والشقوق في جيف الذبائح ساخنة من سخونة أرض الخث المستعرة في الصيف عادة، ولذا يعيش الذباب في تلك المواضع حياة طبيعية تماماً في الشتاء. ضاقت نفس شيكلين في المستودع الكبير. خيّل إليه أن

فرن الحمام يسخن هنا، فيما أغمضت ناستيا عينيها متأففة من الروائح الكريهة، وفكرت في سبب الدفء في التعاونية شتاءً وغياب فصول السنة التي حدّثها عنها بروشيفسكي في الحفرة حيث كفَّت الأطيار عن التغريد في حقول الخريف الخالية.

ترك الدب المستودع ودخل المنزل، وفي مدخله أصدر زعيقاً عدائياً وقذف إلى الخارج صندوقاً عتيقاً ضخماً تناثرت منه بكرات خياطة.

وجد شيكلين في المنزل امرأة وصبياً. كان الصبي يتغوّط على قعادة، فيما جلست أمه وسط الغرفة الفسيحة كطير جاثم على عشه وكأن مادة بدنها قد تهدّلت إلى أسفل. لم تعد تبكي أو تصرخ، بل فغرت فمها كسمكة تحاول أن تتنفس.

- يا رجل - أطلقت صوتاً بلا حراك بسبب عجزها أمام المصيبة الداهمة.

- ماذا؟ جاءها الجواب من وراء الفرن، ثم انبعث صرير من تابوت ناشف نهض منه صاحب البيت.

- جاءوا! - قالت المرأة على مهل - اذهب واستقبلهم يا منحوس.

- اغربوا عني - أمر شيكلين أفراد العائلة.

لمس الدب الصبي من أذنه، فقفز ذاك من على قعادته الواطئة، لكنّ الدب الذي لا يعرف ما هي القعادة، جلس عليها ليجرّب حظه.

وقف الصبي في قميصه يحدّق في الدب الجالس على القعادة ويفكر.

- ياعم، أعطني برازي - توسّل الصبي إلى الدب، لكن هذا الأخير زعق بصوت خافت، وهو متضايق من وضعية الجلوس غير المريحة.

- اغربوا عني - صاح شيكلين بالعائلة الريفية الغنية.

وقهقع الدب دون أن يتزحزح من على القعادة، فقال صاحب البيت:

- لا تثيروا ضجة يا سادة، سنذهب بأنفسنا.

تذكّر الدب كيف كان في سالف الزمان يجتث قرم الأشجار في مزرعة هذا القبضاي ويقتات على العشب بعد جوع صامت، لأن هذا الرجل ما كان يطعمه إلا مرة واحدة من بقايا علف الخنازير في المساء. وكانت الخنازير تربض في الطست الخشبي وتلتهم حصته جائمة. تذكّر الدب ذلك فنهض من على القعادة واحتضن الرجل وضغطه بشدة حتى نزّ منه وتصبّب ما اكتنز من شحم وعرق، وزعق في أذنه بمختلف طبقات صوته. فالدب الحدّاد يكاد يجيد النطق لشدة حقده ولكثرة ما سمعه من كلام البشر.

انتظر الرجل حتى يتركه الدب، ثم مضى إلى الشارع بلباسه المنزلي. وعندما مرّ أمام النافذة لحقت به زوجته راكضة، بينما ظل الصبي في المنزل بدون والديه. وقف برهة في حيرة ثقيلة ثم اختطف القعادة وفرّ بها ليلحق بأمه وأبيه.

- ماكر جداً - قالت ناستيا عن الصبي الذي اختطف قعادته.

وبعد ذلك صادفهم عدد أكبر من الريفيين الأثرياء. فعندما

تجاوزا ثلاثة منازل أخرى قهقع الدب ميشكا من جديد في إشارة إلى وجود عدوّه الطبقي في هذا المكان. ترك شيكلين ناستيا في عهدة الدب، ودخل المنزل وحده.

- ما الذي جاء بك إلينا يا عزيزي؟ - بادره صاحب البيت بصوت هادئ رقيق.

- اغرب عني - صاح به شيكلين.

- وهل أسأت إليك؟

- نحن بحاجة إلى التعاونية، فلا تفسدها علينا.

فكّر الرجل دون استعجال وكأنه يتجاذب أطراف الحديث مع صديق له قديم.

- التعاونية لن تنفعكم.

- امضِ يا حقير.

- طيب، ستحوّلون الجمهورية كلها إلى جمعية تعاونية، ومع ذلك ستغدو الجمهورية كلها استثمارة فردية.

تعسرت أنفاس شيكلين، فهرع إلى الباب وفتحه ليرى الحرية بأم العين. فهو أيضاً ضرب ذات مرة باب السجن المغلق دون أن يفهم معنى الأسر، وصرخ من ألم يحز في القلب. أشاح بوجهه عن الريفي المتأمل كيلا يعطي لهذا الأخير فرصة ليشاطره أحزانه العابرة التي لا تعني أحداً سوى الطبقة العاملة.

- هذا لا يعنيك يا سافل. يمكن أن نعيّن قيصراً إذا كان ذلك نافعاً لنا، ويمكننا أن نطيح به بنفخة واحدة. . . أما أنت فاذهب كيلا يبقى لك أثر.

أمسك شيكلين بتلابيب الرجل ودفعه إلى الخارج ورماه على الثلج. لم يكن هذا الريفي الثري متزوجاً لشدة بخله. وقد أنفق كل طاقاته على تكديس المال وعلى سعادة توفير مستلزمات الوجود، ولا يعرف الآن ماذا يفعل أو يقول.

- صفيتموني؟! - قال من مرقده على الثلج - ولكنْ حذار. يوم لكم ويوم عليكم. لن يبلغ الاشتراكية ويتمتع بها إلا زعيمكم، بينما سيكون الهلاك من نصيب الباقين.

بعد أربعة أحواش زمجر الدب في قهقعة مدوية واشتاط غضباً من جديد أمام منزل هرع منه ريفي رث الثياب وبيده رغيف ساخن. والدب يعرف أن هذا الرجل كان يضربه بالعصا عندما يتعب من الدوران دافعاً ذراع الطاحونة. كان هذا الريفي يرغم الدب ميشكا على العمل في الطاحونة بدلاً من قوة الريح كيلا يسدد الضريبة المقررة، بينما يتشكى ويتأوّه دوماً كالكادحين الأجراء ويأكل الطعام مع زوجته خلسة تحت البطانية. وعندما حملت زوجته دبّر لها إجهاضاً بيديه، فهو لا يحب سوى ابنه البكر الذي أراد له من زمان أن يكون من شيوعيي المدينة.

- كلْ، يا ميشكا، كل - قدّم الريفي الرغيف الساخن إلى الدب.

لكن هذا الأخير لفّ الرغيف على جمعه وسدّد من خلاله ضربة إلى إذن الفلاح الثري حتى ندت عنه صرخة وهوى على الأرض. فقال شيكلين:

- اترك أموال الفقراء. وغادر أراضي التعاونية، لن تبقى لك فرصة للحياة في هذه الدنيا.

ظل الرجل راقداً في البداية، ثم انتبه على نفسه وقال:

- أرني وريقة تشهد بأنك شخصية مسؤولة بالفعل.

- أي شخصية؟ - قال شيكلين. - أنا لاشيء، عدم. حزبنا هو الشخصية.

- إذن، أرني الحزب، أريد أن أراه.

ابتسم شيكلين على مضض.

- لن تراه بوضوح، فأنا نفسي أتحسّسه بالكاد. اذهب يا رأسمالي رذيل إلى الطوف الخشبي.

- فليرتحل عبر البحار، اليوم هنا وغداً هناك، أليس كذلك؟ - قالت ناستيا. - سيقتلنا الملل مع هؤلاء الأراذل.

بعد ذلك طهّر شيكلين والدب ميشكا ستة منازل أخرى كانت قد شيدت بعرق جبين الأجراء، ثم عادا إلى المركز التنظيمي حيث وقفت الجماهير المحررة من الأثرياء في انتظار شيء ما.

قارن المناضل بين عدد أفراد طبقة الفلاحين الأثرياء الذين جيء بهم إلى المركز مع قائمة الفرز الطبقي فوجدهما متطابقين تماماً، ، وشعر بالارتياح من نشاط شيكلين ودب ورشة الحدادة. وبدوره استحسن شيكلين نشاط المناضل في هذا المجال وقال:

- عفارم عليك، أنت عنصر واعٍ تشمّ رائحة الطبقات كالحيوان.

أما الدب ميشكا فلم يتمكن من التعبير عن رأيه. وقف منزوياً برهة ثم مضى إلى الورشة في الثلج المتساقط والذباب يطن فيه.

ناستيا وحدها شيّعته بنظراتها وأشفقت على هذا الحيوان العجوز المحترق الأوصال كالإنسان.

أنجز بروشيفسكي ما تركوه له من عمل في جذوع الطوف وراح ينظر إلى الجميع في تأهب واستعداد.

- تافه أنت. - قال له جاشيف. - لماذا تنظر هكذا وكأنك متخلّف عن الجماهير؟ مزيداً من الجرأة والعمل وستجني الثمار. هل تظن أن هؤلاء بشر؟ كلا، إنهم مجرد بشرة ظاهرية. فالبشر بعيدون والطريق إليهم طويل، وهذا بالذات ما يؤلمني ويحز في نفسي.

بإشارة من المناضل انحنى الأثرياء وراحوا يسحبون الطوف إلى وادي النهر. وزحف جاشيف بعربته في أثرهم ليؤمّن رحيلهم في مجرى النهر إلى البحر ويطمئن أكثر لمجيء الاشتراكية التي ستتسلَّمها ناستياً مهراً لعفافها. أما هو، المعوّق، فسينفق، في أغلب الظن، كوهم متعب عتيق.

* * *

لم يهدأ جاشيف ولم يقرّ له قرار بعد ترحيل أثرياء الريف إلى البحار البعيدة، ذلك لأن الأمور غدت أصعب عليه وإنْ كان لا يعرف السبب. ظل لأمد طويل يتابع الطوف المبتعد بهدوء في النهر الجاري الملفع بالثلوج، ويراقب ريح المساء تداعب الماء القاتم الموات المنساب بين المزارع الباردة نحو هوّته السحيقة النائية، فشعر بالضجر والملل، واعتصر الاكتئاب فؤاده.

فالاشتراكية ليست بحاجة إلى طبقة المقعدين الحزانى من أمثاله وسوف ينفونه هو أيضاً في القريب العاجل إلى السكون البعيد.

كان المنفيون يتطلعون من على الطوف إلى جهة واحدة، إلى جاشيف. فقد أرادوا أن يلقوا نظرة أخيرة على موطنهم وعلى آخر إنسان سعيد فيه.

موكب المهجّرين النهري يكاد يختفي عند المنعطف وراء شجيرات الضفة. وأخذ جاشيف يفقد رؤية العدو الطبقي. فصاح بصوت تهادى مع النهر:

- وداعاً يا طفيليون.

- ود. . ا. . عاً - ردّ الريفيون المرحّلون إلى البحر.

وتناهت من المركز التنظيمي موسيقى تدعو إلى المسير. أسرع جاشيف بعربته في الأوحال ليرى بهجة التعاونية وأفراحها وهو عارف أن المبتهجين هناك هم أبناء الإمبريالية السابقون ما عدا ناستيا وسائر الأطفال.

نصب المناضل مكبّر الصوت على مدخل المركز، فانبعثت من هناك أنغام مسيرة الحملة الكبرى، بينما أخذت التعاونية الفلاحية كلها تراوح مسرورة مع الضيوف الجوالة الذين وصلوا من جهة الأطراف. فلاحو التعاونية بوجوه وضاءة وكأنما اغتسلوا قبل المجيء، وهم الآن لا يأسفون على شيء، فليس في نفوسهم غير المجهول والخواء البارد. وعندما صدحت موسيقى راقصة تقدّم يليسي إلى موضع في الوسط وطبطب بقدميه ورقص على الأرض دون أن يثني بدنه أو يرمش بجفونه البيضاء. كان يدور

كالنابض، وحيداً بين الواقفين، يحرك بدنه وعظامه في دبكة دقيقة متناسقة. وبالتدريج تعالت أنفاس الرجال وراحوا يدورون بعضهم حول بعض، فيما أخذت النساء يلوّحن بأيديهن في حبور ويحركن أرجلهن تحت التنورات. ألقى الضيوف صررهم وحقائبهم ودعوا فتيات القرية للرقص وانخرطوا في دبكية مدوية يقبلون أثناءها صديقاتهم الفلاحات بدلاً من الطعام والشراب. وتمادت الإذاعة في استثارة المشاعر، وأطلق الفلاحون الخاملون هتافات الارتياح، فيما أجّج الفلاحون الأنشط حماسة الابتهاج بكل السبل ومن جميع الوجوه. حتى الخيول المؤمَّمة جاءت إلى المركز التنظيمي على انفراد وأخذت تصهل عندما سمعت ضجيج سعادة البشر.

خفتت العاصفة الثلجية، ولاح القمر دون وضوح في السماء البعيدة التي تخلصت من الزوابع والغيوم وبدت خالية مشرعة الأبواب أمام الحرية الأبدية وفظيعة رهيبة في الوقت ذاته كون الحرية بحاجة إلى الوئام والمودة.

تحت هذه السماء، على الثلج الناصع الذي ربض الذباب في بعض مواضعه احتفل الناس في جو رفاقي بهيج. وحتى المسنون الذين عاشوا في هذه الدنيا عمراً مديداً تحركوا وانخرطوا في رقص مدوخ فوار.

- يا وطننا الأم، يا بلدنا الاتحاد السوفيتي! - صاح أحد الفلاحين مبتهجاً ناسياً نفسه في رقصة عنيفة يضرب أثناءها على بطنه ووجنتيه وفمه. - عانقوا، يا شباب، مملكتنا، دولتنا، فهي غير متزوجة.

- هل هي بتول عذراء أم أرملة؟ - سأل ضيف من الأطراف وهو يحوّم في رقصته.

- عذراء! - أوضح له ذاك الرجل - ألا ترى كيف تتغنج؟

- فلتتغنج بعض الوقت - وافقه الضيف - ولتتجمل وتتزلف وسنجعل منها امرأة وادعة طيّعة.

هبطت ناستيا من يدي شيكلين وراحت ترقص جنب الفلاحين المحوّمين، فقد رغبت هي الأخرى في الرقص. وكان جاشيف يزحف بين الجميع يسدّد ضربات شديدة إلى أرجل الذين يعيقونه، أما الضيف الذي رغب في تزويج الوطن الأم من أحد الفلاحين فقد سدّد له جاشيف ضربة في جنبه كيلا يبقى لديه أمل بهذا الخصوص. وقال له:

- لا تتجرأ على التفكير بكل ما يخطر في بالك. أم أنك تريد الرحيل على الطوف؟ سنرحلك في الحال.

وارتعب الضيف وأسف على مجيئه إلى هنا.

- لن أفكر في شيء بعد الآن، أيها الرفيق المعوّق. وسأتكلم همساً.

تطلّع شيكلين طويلاً إلى الجمهور المبتهج وشعر بالاطمئنان والطيبة تكتنف جوانحه. ومن علية المدخل شاهد صفاء القمر من بعيد ولمح كآبة الضوء الجامد وسبات العالم الخانع الذي أنفق الجميع على بنائه جهوداً وآلاماً اضطروا إلى نسيانها كيلا يخافوا العيش والحياة فيما بعد.

- ناستيا، تعالي إليّ وإلا ستبردين - ناداها شيكلين.

- لم أبرد إطلاقاً، فالناس هنا يتنفسون. - قالت ناستيا وهي تهرب من جاشيف الذي كان يزأر عليها بحنان:

- افركي يديك كيلا تتجمّدا. الريح كبيرة وأنت صغيرة.

- فركتُهما، فلا تتكلم.

وانقطعت الموسيقى فجأة في منتصف النغم. ولم يتمكن الراقصون من التوقف إلى أن قال المناضل:

- كفّوا عن الرقص حتى يبدأ النغم التالي.

أصلح المهندس بروشيفسكي الراديو بسرعة، لكنّ الموسيقى انتهت وجاء صوت بشري يقول:

- إليكم نشرة الأخبار. أعدّوا لحاء الصفصاف...

وتوقف الراديو من جديد. وعندما سمع المناضل هذا النبأ راح يتأمل حتى تحتفظ به الذاكرة ولا ينسى حملة لحاء الصفصاف كيلا يذيع صيته في الناحية كشخص مهمل مثلما حدث في المرة السابقة عندما نسي تنظيم حملة تشذيب الشجيرات وبقيت التعاونية كلها بدون أغصان. انهمك بروشيفسكي في تصليح الراديو من جديد. راح يعالجه مهتماً، بيدين مستبردتين، والوقت يمضي بدون جدوى، لأنه غير واثق مما إذا كان الراديو سيقدّم السلوى للفقراء أو يتحفه هو شخصياً بصوت رقيق من مكان ما.

يبدو أن منتصف الليل يقترب. فالقمر يطل عالياً فوق الأسيجة في القرية الشائخة الوادعة، وأوراق راعي الحمام الذاوية تلمع بنثار الثلج المتجلد عليها، وذبابة تائهة حاولت أن تحط على إحدى تلك الأوراق، لكنها فرّت في الحال مطنطنة في ضوء القمر مثل قبّرة في أشعة الشمس.

لم تتوقف التعاونية عن دبكتها الراقصة الثقيلة. وراح الحاضرون يغنّون تدريجياً بصوت واهن ضعيف. لم يكن بالإمكان فهم كلمات تلك الأغنية، لكنها على أية حال تنمّ عن سعادة متشكية أشبه بترتيل إنسان هائم على وجهه.

- يا جاشيف - قال شيكلين - اذهب وامنعهم من الرقص، فهل ماتوا من شدة الفرح ولا يكفون عن الرقص؟

مضى جاشيف بصحبة ناستيا إلى داخل المركز التنظيمي ورتّب للبنت مبيتاً هناك وعاد أدراجه.

- كفاكم رقصاً وفرحاً يا سفلة.

إلا أن الجمهور المبتهج لم يلتفت إلى كلمات جاشيف، وظل يدبك ثقيلاً في خضم الأغاني والأناشيد.

- تريدون أن تتلقوا جزاءكم من يدي، أليس كذلك؟ ستحصلون عليه في الحال.

هبط جاشيف من المدخل وحشر نفسه زاحفاً بين الأرجل المتراقصة وأخذ يسحب الرجال من أطرافهم السفلى ويلقي بهم أرضاً ليأخذوا قسطاً من الراحة. كانوا يتساقطون كالسراويل الخالية، حتى شعر جاشيف بالأسى لأنهم يهمدون رأساً وربما لا يحسّون بقوة ساعده.

- أين فوشيف؟ - سأل شيكلين قلقاً - عمَّ يبحث هذا البروليتاري الضئيل في الأماكن البعيدة؟

لم ينتظر شيكلين مجيء فوشيف، وإنما ذهب بنفسه للبحث عنه بعد منتصف الليل. اجتاز شارع القرية الخالي حتى آخره،

ولم يعثر على أثر لإنسان. ليس هناك سوى الدب يشخر في ورشة الحدادة ويغطي شخيره كل الأطراف المضاءة بنور القمر. والحدّاد يسعل من حين لآخر.

الهدوء يعمّ تلك الأنحاء، والجو رائع هناك. توقف شيكلين متأملاً ومتحيراً. الدب لا يزال يشخر وادعاً يستجمع قواه لعمل الغد ولشعور جديد بالحياة. لن يرى بعد الآن الريفيين الأثرياء الذين عذبوه، وسيفرح لحياته ووجوده. ولعل هذا الدب الحدّاد سيطرق الحدوات وهياكل العجلات الحديدية بمزيد من الجهد والولع طالما توجد في الدنيا قوة خفية تركت في القرية فقط أولئك الأشخاص المتوسطي الحال الذين يعجبونه ويعملون بصمت للصالح العام ويشعرون ببعض السعادة. فالمغزى الدقيق للحياة يستقر مع السعادة العالمية الشاملة في صدور الطبقة العاملة التي تحفر التربة حتى ينتعش الأمل في فؤاد شيكلين نفسه وفي حنايا الدب الحدّاد فيتنفسا النسيم، ولا تخطئ أيديهما الكادحة ولا ينفد صبرها.

أغلق شيكلين، مشغول البال، بوابة كانت مفتوحة، ثم تفقّد أمور الشارع ليتأكد من سلامة كل ما فيه، فلاحظ قفطاناً مرمياً في الطريق ورفعه وحمله إلى مدخل أقرب منزل، فليبق هناك لخير الكادحين.

انحنى بدن شيكلين تحت ثقل أمل ساذج دفعه للبحث عن فوشيف خلف المنازل. كان يعبر الأسيجة ويسير جنب جدران المساكن الطينية ويثبّت الأوتاد المائلة ويراقب في كل مكان الشتاء الخاوي اللانهائي الذي يبدأ رأساً من الحواجز النحيفة بين

البساتين. يمكن أن تصاب ناستيا بالبرد والرشح في هذا العالم الغريب. فهذه الأرض ليست من أجل الأطفال المرتجفين، ولا يتحمل الحياة فيها إلا الدب الحداد وأمثاله، بل وحتى هؤلاء شاب شعرهم من مصائبها ومصاعبها.

«أنت مرمية هنا، مطروحة بلا حراك قبل أن أولد أنا. فما أعظم صبرك. تعالي لتتدفئي» - تناهى صوت بشري هو صوت فوشيف ذاته من مكان قريب.

التفت شيكلين فرأى الرجل منحنياً وراء شجرة يلتقط شيئاً ويدسّه في كيسه المملوء أصلاً.

- ماذا تفعل هنا يا فوشيف؟

- لا شيء. - أجاب وشدّ عنق الكيس وحمله على ظهره.

مضى الاثنان ليبيتا الليل في المركز التنظيمي. تدلى القمر واطئاً، والقرية قابعة في ظلال سوداء، والسكون المطبق يخيّم عليها، ما عدا النهر الذي تكثفت مياهه من البرودة وراح يتململ بين ضفّتيه القرويتين المأهولتين.

التعاونية بجميع أعضائها تغط في نوم عميق في المركز التنظيمي، حيث يشتعل لهيب الأمان من قنديل واحد للقرية المطفأة بكاملها. وجنب القنديل جلس المناضل يمارس عمله الفكري. كان يرسم خانات القائمة التي يريد أن يسجل فيها كل المعلومات عن العمران لأجل الفلاحين الفقراء ومتوسطي الحال، حتى تتوفر لوحة رسمية أبدية وخبرة دائمية تتخذ كأساس للإعمار.

- سجّل ممتلكاتي أيضاً - طلب منه فوشيف وهو يحل كيسه.

كان قد جمع في دروب القرية كل الأشياء البائسة المرمية وكل الصغائر المجهولة والمتروكات المهجورة لكي يوثّق الثأر الذي ستأخذه الاشتراكية لأبنائها. فهذه الحاجيات البالية الصبورة لمست في حينه أبدان الأجراء، وفي هذه الأشياء انطبعت إلى الأبد مصاعب حياة الكادحين التي استهلكت بلا قصد ودون جدوى وهلكت ولم يبق لها ذكر تحت سنابل جودار الأرض. كان فوشيف يكدّس في كيسه ببخل وتقتير كل البقايا من حاجيات أناس مضيعين عاشوا، مثله، بدون الحقيقة وقضوا نحبهم قبل أن تأتي الخاتمة المظفرة. كدس تلك البقايا غير مدرك تماماً لما يفعل. وها هو يعرض مخلّفات أولئك الكادحين على السلطة والمستقبل حتى يتمكن، من خلال تنظيم المغزى الإنساني الخالد، أن يثأر للراقدين بهدوء في أعماق الأرض.

أخذ المناضل يسجل الحاجيات التي جلبها فوشيف، بعد أن أفرد لها خانة جانبية خاصة تحت عنوان «قائمة بأسماء الأثرياء الذين تمّت تصفيتهم حتى الموت كطبقة من قبل البروليتاريا وفقاً لبقايا ملكيتهم الهالكة المتروكة». وبدلاً من أسماء البشر سجَّل المناضل ما كان يدل على وجودهم: خف من القرن الماضي، قرط قصديري من أذن أحد الرعاة، خرقة سروال من الجنفاص، إلى جانب مختلف مستلزمات البدن الكادح الفقير.

في تلك الأثناء أيقظ جاشيف بالصدفة ناستيا، وكانت نائمة جنبه على الأرضية، وهو يحميها من برودة الباب. فقالت له:

– اغلقْ فمك يا أحمق. فأنت لا تنظف أسنانك. البرجوازيون بتروا رجليك، فهل تريد لأسنانك أن تسقط أيضاً؟

سدّ جاشيف فمه مرتعباً وراح يستخدم أنفه وحده في الشهيق والزفير. تثاءبت البنت وعدلت وضعية منديلها الدافئ الذي تنام فيه، لكنها لم تستطع أن تغفو ثانية، فقد عافت نفسها النوم.

- ما هذا؟ جلبوا نفايات؟ - سألت بخصوص كيس فوشيف.

- كلا. - أجاب شيكلين - إنها عرائس ولعب جمعوها من أجلك. انهضي وخذي منها ما تريدين.

نهضت ناستيا وعدلت قامتها وتمشت للتريض ثم جلست في مكانها واحتوت بساقيها المفتوحتين كومة الحاجيات التي سجّلها المناضل. أخذ شيكلين القنديل من الطاولة ووضعه على الأرضية كي ترى الطفلة ما يعجبها بوضوح. أما المناضل فيمكنه أن يكتب بدون أخطاء حتى في الظلام.

بعد حين من الوقت دلى المناضل القائمة إلى الأرض لتؤشر عليها الطفلة وتشهد بأنها تسلَّمت بالكامل كل ما كسبه الأجراء الذين قضوا نحبهم دون أن يخلفوا نسلاً وأنها ستنتفع بتلك الممتلكات في المستقبل. رسمت ناستيا ببطء على الورقة شارة المطرقة والمنجل وأعادت القائمة إلى المناضل.

خلع شيكلين بلوزه القطني المضرب وحذاءه وراح يجوب الأرضية بالجوارب مرتاحاً وادعاً، فلا أحد ينتزع من ناستيا بعد الآن حصتها من الحياة في هذه الدنيا، كما أن مجاري الأنهار تتجه إلى خضم البحار وليس إلى جهة أخرى وأن المرحَّلين على الطوف لن يعودوا ولن يعذّبوا الدب الحداد ميشكا، أما الأشخاص المجهولون الذين لم يبقَ منهم سوى الأخفاف وأقراط

القصدير فيجب ألّا يحزنوا أبداً في مضاجعهم تحت الثرى مع أنهم لن يستطيعوا النهوض.

- يا بروشيفسكي - قال شيكلين.

- نعم. - أجاب المهندس. كان جالساً في الركن مسنداً ظهره إلى الحائط ويكاد يغفو بلامبالاة. شقيقته لم تكتب له رسائل من زمان، ولو كانت قد ماتت فسيرتحل إلى هناك ليعدّ الطعام لأطفالها ويرهق نفسه إلى أبعد الحدود ويقضي نحبه في زمن ما عجوزاً تعوَّد على العيش بدون مشاعر، وهذا يشبه الموت الآن، لكنه يبعث حزناً واكتئاباً أشد من الموت، وإذا ارتحل يمكنه أن يعيش، بدلاً من أخته، أمداً أطول ويتذكر بمزيد من الحزن تلك الفتاة العابرة التي رآها في شبابه ومن المستبعد أن تكون الآن على قيد الحياة. ومن أمنياته أن تبقى فترة أخرى في الدنيا، في مشاعره الدفينة وحدها على الأقل، تلك المرأة الشابة المنفعلة التي نسيها الجميع لو كانت قد ماتت، أو أنها تطبخ الحساء لأطفالها لو كانت على قيد الحياة.

- يا بروشيفسكي، هل يتمكن العلم الراقي بمنجزاته الكبيرة أن يُحيي الموتى؟

- كلا. - أجاب بروشيفسكي.

- أنت تكذب. - وبّخه جاشيف دون أن يفتح عينيه. - الماركسية قادرة على كل شيء. لماذا يرقد لينين في موسكو سليماً حتى الآن؟ إنه ينتظر منجزات العلم، ينتظر البعث والنشور. وبوسعي أن أجد للينين عملاً - أفاد جاشيف - وسأشير

عليه أن يضيف عقوبات إلى البعض. فأنا، لسبب ما، أرى الأراذل منذ البداية مهما تستّروا.

- أنت أحمق. - أوضحت له ناستيا وهي تنبش في مخلّفات الأجراء - لأنك ترى فقط، بينما يجب عليك أن تعمل، أليس كذلك يا عم فوشيف؟

كان فوشيف قد التحف بكيسه الفارغ ورقد ينصت إلى نبضات قلبه الأبله الذي يجرّ بدنه كله إلى أفق حياتي بعيد لا لزوم له.

- لا أدري. - أجاب فوشيف - يعمل المرء ويكدح حتى النهاية وعندما يبلغها ويعرف كل شيء يخور ويضعف ويموت. لا تكبري يا بنت، فستشعرين بضجر قاتل.

ظلت ناستيا مستاءة.

- يجب أن يموت الأثرياء فقط، فأنت أحمق. يا جاشيف، احرسني من جديد، أريد أن أنام.

- تعالي يا ابنتي - ناداها جاشيف - تعالي إليَّ وابتعدي عن هذا الرجل المتعاطف مع الأثرياء ويريد أن يلقى جزاءه، وسيلقاه غداً.

هجع الجميع يواصلون ليلهم صابرين، ما عدا المناضل الذي استمر في الكتابة بلا انقطاع وانبسطت المنجزات متزايدة أمام ذهنه الواعي حتى صار يقول لنفسه: «أنت تُلحق الضرر بالاتحاد السوفيتي يا شيطان متقاعس، كان بوسعك أن تعبئ الناحية كلها في حملة إشاعة التعاونيات، لكنك قابع في تعاونية واحدة. حان الوقت لإرسال السكان بفيالق كاملة إلى الاشتراكية، أما أنت فلا تزال تجهد على نطاق ضيّق. يا ويلك».

طرقت يد على الباب من جهة السكون الصافي المضاء بنور القمر، وتناهى مع طرقة تلك اليد الخوف المتبقي من الماضي.

- ادخل، فليس عندي اجتماع. - قال المناضل.

- ظننتك مشغولاً بالتفكير. - أجاب الرجل دون أن يدخل.

فخاطبه جاشيف:

- ادخل عليه، ولا تستثرني.

دخل يليسي. كان قد شبع من النوم على الأرضية وعتمت عيناه من دمه الفوار بعد أن ازداد قوة من تعوّده على التنظيم.

- الدب يطرق على السندان في ورشة الحدادة [redacted] مترنماً حتى أيقظ التعاونية كلها، ولا نستطيع إسكاته بدونك.

- يجب، إذن، أن نذهب لإحلال النظام. - صمّم المناضل.

- سأذهب بنفسي. - قرر شيكلين - والأفضل أن تواصل الكتابة. مهمتك هي الجرد والحساب، وليس ترويض الدببة.

- أنا الأحمق الوحيد هنا حتى الآن. - حذر جاشيف مخاطباً المناضل - لكننا في القريب العاجل سنجعل الجميع طليعيين، فلتتخلص الجماهير من العذاب وليترعرع الأطفال.

مضى شيكلين إلى الورشة. لفعه الليل بجلبابه الفضفاض البارد، والنجوم تومض دون قصد فوق الأرض الثلجية الناصعة، وطرقات الدب الحداد تتناهى عريضة مدوية، حتى لكأنه يشعر بالخجل من النوم تحت تلك النجوم المتطلعة المنتظرة، فراح يردّ عليها بالطرق على السندان قدر المستطاع. وفكر شيكلين باحترام وتقدير: «هذا الدب بروليتاري عجوز يتحلى بالاستقامة». وطفق الدب [redacted] بارتياح مترنماً بأغنية متأنية سعيدة.

باب الورشة مفتوح على الليل المقمر أمام الأرض البيضاء، وفي الوجاق يتعالى لهيب متململ يغذيه الحدّاد نفسه وهو يسحب حبل المنفاخ مستلقياً على الأرضية. أما الدب فيطرق بمنتهى الارتياح على عجلة حديدية ساخنة ويغني أغنيته.

- لا يتركني أنام - تشكى الحدّاد - وقف وأخذ يزعق، فأولعت له الوجاق، وثارت ثائرته... كان هادئاً على الدوام، أما الآن فقد جنّ جنونه.

- ماذا به؟ - سأل شيكلين.

- من يدري؟ عاد أمس بعد تصفية الأثرياء وكان في أحسن مزاج. يدمدم بارتياح ويترنم بطيبة خاطر. أما اليوم فقد مرّ من هنا أحد أعوان المناضل وعلّق شعاراً على السياج، فأخذ ميشكا يتطلع إلى الشعار ويفكر: «لم يبقَ هنا أحد من الأثرياء، لكن الشعار الأحمر لا يزال معلقاً». أنا أرى شيئاً يطرق باب عقله ويتوقف هناك...

- نم أنت، وسأنفخ المنفاخ بدلاً عنك - قال له شيكلين وراح يسحب حبل المنفاخ والدب يصنع الإطارات لعربات التعاونية.

* * *

مع اقتراب الفجر تفرق الفلاحون من ضيوف الأمس عائدين إلى الأطراف التي جاءوا منها. أما أفراد التعاونية فليس بهم حاجة للذهاب إلى أي مكان. تركوا مبنى المركز التنظيمي

واتجهوا صوب ورشة الحدادة التي تتناهى منها طرقات الدب الكدود. وحضر بروشيفسكي وفوشيف مع الجميع، ووجدوا شيكلين يساعد الدب هناك. وعلى السياج جنب الورشة شعار مرسوم على قماش راية: «في سبيل الحزب والإخلاص له، في سبيل عمل طليعي يفتح أمام البروليتاريا أبواب المستقبل».

عندما يتعب الدب ميشكا يخرج إلى الشارع ويلتهم الثلج للتبرد ويعود من جديد ليغرز المطرقة في ليونة الحديد، وتتصاعد وتيرة الطرق بالتدريج. لم يعد الدب يترنم، فهو ينفق فرحته الصامتة الهائجة على الكد والعمل. أشفق عليه فلاحو التعاونية وراحوا يطلقون صيحة جماعية مع كل طرقة من مطرقته حتى تكون العجلات أكثر متانة وأماناً. تطلّع يليسي إلى الدب باهتمام ونصحه قائلاً:

- اطرقْ، يا ميشكا، على مهل، كيلا ينفلق الإطار ويتحطم. وإلا فأنت تضرب الحديد كما تضرب الأراذل والسفلة، لكن الحديد طيب، فلا تفسده.

إلا أن الدب كشر عن أنيابه في وجه يليسي، فتنحّى هذا عنه آسفاً على الحديد. بيد أن الفلاحين الآخرين لم يطيقوا صبراً على إتلاف الحديد، فضجّوا صائحين:

- خفِّف الطرق يا شيطان، لا تفسد الملكية العامة. الأملاك الآن كاليتامى لا أحد يشفق عليها... خفف الطرق يا ملعون.

- لماذا تضرب الحديد بهذه الشدة؟ هل هو عدو طبقي؟

- اخرج أيها الصنم الأشعث، وخفّف من غلوائك في الشارع أيها الشيطان الرجيم.

– يجب فصله من التعاونية. فهل يجوز أن نتحمل الخسائر بسببه؟

لكنّ شيكلين ظل ينفخ في الوجاق، والدب يبذل جهده ليلحق باللهيب وينقضّ على الحديد كما ينقض على الأعداء المهزومين وكأنما هو الدب الوحيد المتبقي في الدنيا بعد غياب أثرياء الريف.

– يا للمصيبة! – تنهّد بعض أعضاء التعاونية.

– يا ويلنا، سينفلق الحديد ويتشقق.

– غضب اللّه علينا. . . وليس بوسعنا أن نمس هذا الدب، فسيقولون إنه بروليتاري فقير يعمل من أجل التصنيع.

– لا يهم، لو قالوا إنه من الكادر لكانت المصيبة أعظم.

– الكادر أيضاً لا قيمة له لو جاء المفتش. والويل لنا لو جاء الرفيق باشكين بنفسه.

– من يدري؟ ربما لن يحدث شيء. هل نضربه؟

– ماذا تقول؟ جننت؟ إنه الأجير الوحيد في عموم المنطقة. وقبل أيام زاره الرفيق باشكين خصيصاً. فهو أيضاً يشعر بالملل لغياب الأجراء.

يليسي أقل المتكلمين، لكنه أكثرهم تألماً. فعندما كان يمتلك حوشاً لم يكن ينام الليل كيلا تموت الماشية ولا يفرط حصان في شرب الماء أو تناول العلف ولا يعتكر مزاج بقرة. أما الآن، وقد صارت التعاونية كلها والعالم حوله يشغلان باله ولا يطمئن للتعويل على الآخرين، فقد شعر بمغص في المعدة خوفاً على تلك الأموال.

- ستجفّ عروقنا جميعاً - قال هذا الفلاح المتوسط الحال الذي عاش الثورة كلها صامتاً - في السابق كنت أخشى على عائلتي وحدها، أما الآن فيجب أن نعيل كل فرد وسنتعذب أشد عذاب بسبب ذلك.

اكتأب فوشيف وهو يرى الدب يكدح وكأنه يفهم مغزى الحياة بوضوح، أما هو، فوشيف، فلا يحرك ساكناً ولا يطرق باب المستقبل. فلربما يوجد هناك بالفعل شيء ما جدير بالاهتمام. في تلك الأثناء فرغ شيكلين من العمل بالمنفاخ وانشغل مع الدب في صنع أسنان مسلفة. عمل الاثنان بلا كلل، وفقاً لما يمليه الضمير، دون أن يلتفتا إلى الجمهور الذي يراقبهما أو إلى ما يحيط بهما. الدب يطرق أسنان المسلفة وشيكلين يسقيها ويفولذها، لكنه لا يعرف على وجه التحديد الفترة اللازمة لبقائها في الماء بدون إعادة التسخين.

- وإذا ارتطمت سن المسلفة بحجر؟ - صاح يليسي مهتاجاً.

- إذا ارتطمت بشيء صلد تنشطر نصفين.

- اسحب الأسنان من السائل يا شيطان - صاح الجمهور بصوت واحد. - لا تعذب الحديد.

همَّ شيكلين بأن يسحب المعدن المطروق من الماء، لكن يليسي تقدّم في تلك الأثناء وأخذ الملقط منه وراح يسقي أسنان المسلفة بكلتا يديه. وهرع سائر الفلاحين إلى داخل الورشة وتنفّسوا الصعداء وراحوا يعملون بالأدوات الحديدية باهتمام بالغ لا يعمل به الناس إلا عندما تكون المنفعة أكثر من الضرر. وفكر يليسي بهدوء وهو منهمك في العمل: «ينبغي أن نطلي هذه الورشة

بالأبيض فيما بعد، وإلا فهي سوداء عن آخرها، فهل هذه مؤسسة اقتصادية يا ترى؟»

- فلأسحب أنا حبل المنفاخ - اقترح فوشيف على يليسي. - فالهواء الذي تضخّه أنت يدخل الوجاق ببطء.

- اسحبْه - وافقه يليسي. - ولكن ليس بشدة. الحبال غالية الآن، وليس بالإمكان شراء منفاخ جديد من كيس التعاونية.

- سأعمل برفق. - أجاب فوشيف وأخذ يسحب حبل المنفاخ ويفلته ناسياً نفسه في الجهد الدؤوب.

حل صباح ذلك اليوم الشتوي، وغمر الضوء المعتاد المنطقة كلها، لكن القنديل في المركز التنظيمي لا يزال ينير عبثاً إلى أن انتبه إليه يليسي. مضى إلى هناك وأطفأ القنديل حفاظاً على الكيروسين.

استيقظت الفتيات والبنات اللواتي بتن الليل في المنازل، ولم يُبدين، على العموم، اهتماماً بهموم الآباء. فإن آلامهم لا تشغل بالهن، ولذا عشن كالغريبات في القرية وكأنّ أفئدتهن متيّمة بشيء ناءٍ بعيد. لم يكنّ يعبأن باحتياجات الأسرة، فهن يعشن على شعورهن بالسعادة المنشودة التي يتوقعن لها أن تأتي من كل بد. توجهت جميع الفتيات تقريباً وكل أبناء الجيل الناشئ إلى المكتبة العامة منذ الصباح وظلوا هناك طول النهار بلا طعام. كانوا يتعلمون القراءة والكتابة والحساب في إطار الثورة الثقافية ويتعوّدون على الصداقة متصورين شيئاً ما في الانتظار.

كان بروشيفسكي لوحده واقفاً طول الوقت جنب السياج بلا

حراك، بينما انهمكت التعاونية في إصلاح حال ورشة الحدادة. وهو لا يدري لماذا أرسلوه إلى هذه القرية ولا يعرف كيف يعيش منسياً بين الجماهير، ولذا صمّم على تحديد اليوم الذي يُنهي فيه وجوده على الأرض. أخرج المفكرة وسجّل فيها ساعة متأخرة من مساء يوم شتوي كالح، عندما يأوي الجميع إلى الفراش وتهدأ الأرض المتجمدة وتتخلص من صخب البناء. سيرقد هو على ظهره أينما كان، ويكفّ عن التنفس. فليس بوسع أي مشروع للبناء وأية متعة أو صديق حميم وأي مكسب بين النجوم أن يتجاوز بؤسه الروحي وخواءه النفساني. وهو، في كل الأحوال، يدرك لاجدوى الصداقة المبنية ليس على التفوق والحب الجسدي، ويتفهّم ضجر النجوم البعيدة التي يحتوي باطنها على نفس الفلزات المعدنية وستحتاج إلى مجلس أعلى للاقتصاد الوطني مثلما على الأرض. خيّل إلى بروشيفسكي أن كل مشاعره واهتماماته وكآبته القديمة التقت في عقله وأدركت نفسها حتى المنشأ والأصل، حتى القضاء التام على السذاجة الملازمة لكل أمل. إلا أن أصل المشاعر ظل نقطة مؤثرة في الحياة، فإذا مات الإنسان يفقد هذا الموضع السعيد الحقيقي الوحيد للوجود قبل أن يلجه. فما العمل، يا إلهي، إذا انعدمت الاهتمامات التي ينسى المرء فيها نفسه وتتململ الحياة من خلالها وتنفعل، فتنهض وتمدّ يديها إلى الأمام، إلى الأمل؟

غطى بروشيفسكي وجهه بيديه. إذا كان العقل تركيبة من جميع المشاعر تتواءم وتستقر فيها كل مجاري الحركات المقلقة فما مصدر القلق والحركة؟ بروشيفسكي لا يعرف الجواب.

الشيء الوحيد الذي يعرفه أن شيخوخة العقل هي الولع بالموت، وهي شعوره الوحيد، وعندذاك ربما يغلق الحلقة ويعود إلى أصل المشاعر، إلى مساء ذلك اليوم الصيفي الذي جرى فيه لقاؤه الوحيد مع المرأة.

- يا رفيق، هل جئت إلينا من أجل الثورة الثقافية؟

رفع بروشيفسكي يديه عن عينيه. على مقربة منه سارت الفتيات والفتيان صوب المكتبة. توقفت أمامه إحدى الفتيات في جزمة لبادية ومنديل رخيص على رأس ساذج. سلّطت نظرتها على المهندس بحب ودهشة، وهي تجهل قوة المعرفة الكامنة في هذا الإنسان. كانت ستوافق على حب هذا الرجل الغريب الأشيب بإخلاص وإلى الأبد. كانت ستوافق على أن تحمل وتلد منه وتعذب بدنها كل يوم بشرط أن يعلّمها معرفة العالم كله والمشاركة فيه. شبابها عدم، وسعادتها عدم. لا يهم، فقد شعرت، عن كثب، بحركة ساخنة منطلقة، وانتفض فؤادها في ريح الحياة العامة التواقة، لكنها عاجزة عن النطق بكلمات الفرحة، وها هي واقفة أمام المهندس ترجوه أن يلقّنها تلك الكلمات ويعلّمها القدرة على الشعور بالدنيا كلها في الذهن لتساعد على ازدهارها. لم تكن الفتاة تعرف هل سيذهب معها هذا الرجل المتعلم أم لا. ولذا تطلعت إليه بتردد وهي مستعدة للانصراف كي تواصل تعليمها على يد المناضل في المكتبة.

- سأذهب معكم. - قال بروشيفسكي. وكادت الفتاة تبتهج وتهتف فرحة، لكنها لم تفعل كيلا تغيظ الرجل.

- فلنذهب. - أضاف المهندس.

مضت الفتاة في الأمام لتدلّه على الطريق دون موجب. فلا مجال للضياع هناك، لكنها راغبة في التعبير عن الامتنان، وليس لديها ما تعبّر به عن الامتنان للرجل السائر خلفها.

* * *

استهلك أعضاء التعاونية كل الفحم الموجود في ورشة الحدادة وحوّلوا كل موجودات الحديد إلى مصنوعات نافعة وأصلحوا جميع الأدوات المتروكة وغادروا الورشة مكتئبين لانتهاء العمل وخائفين من تكبّد التعاونية خسارة بعد ذلك. كان الدب ميشكا قد تعب قبل الآخرين، فخرج منذ حين لِيَلْتهم الثلج لشدة عطشه. كان الثلج يذوب في فمه عندما غفا وهجع بعد أن خرَّ بدنه الثقيل على الأرض.

خرج أفراد التعاونية من الورشة وجلسوا عند السياج يتطلعون إلى القرية والثلج يذوب من تحتهم. فيما كفّ فوشيف عن العمل وغرق فجأة في تفكير عميق متجمداً في مكانه.

- عد إلى رشدك. - قال له شيكلين. - ارقد مع الدب وانسَ نفسك.

- الحقيقة لا تنسى، يا رفيق شيكلين.

احتضن شيكلين فوشيف من خصره وأرغمه على الرقاد مع الدب النائم، وقال له:

- نم ولا تتكلم. الدب يتنفس ويعيش فلمَ لا تستطيع أنت؟ البروليتاريا تتحمّل وتصبر وأنت خائف. يا لك من سافل دنيء.

التصق فوشيف بالدب، فتدفأ وغفا.

ظهر في الشارع فارس جاء من الناحية على ظهر حصان جامح، وصاح بالفلاحين الجالسين على الأرض دون أن يخفف سرعة الحصان:

- أين المناضل؟

- هناك، اذهب إلى الأمام ولا تستدر لا إلى اليمين ولا إلى اليسار - أوضحوا له الطريق.

- طيب. - صاح الفارس مبتعداً وحقيبة التوجيهات تضرب فخذه.

بعد بضع دقائق مرق الفارس نفسه عائداً يلوح في الهواء بدفتر التسليم والاستلام ليجفف حبر توقيع المناضل.

وفي لمح البصر اختفى الحصان المكتنز ونثار الثلج يتطاير من تحت سنابكه.

- هذا البيروقراطي يؤذي حصاناً رائعاً. - فكر الجالسون - منظر الحصان يثير الشفقة.

التقط شيكلين سفوداً حديدياً من الورشة وحمله هدية إلى الطفلة ناستيا. كان يعجبه أن يجلب لها بصمت مختلف الأشياء والحاجيات حتى تفهم البنت حنانه عليها وفرحته بها.

وكان جاشيف قد استيقظ من زمان، لكن ناستيا ظلت نائمة بفم متعب شبه مفتوح، وحزينة بالفطرة.

حدّق شيكلين في الطفلة باهتمام ليتأكد هل أصيبت بأذى يوم

أمس وهل هي سليمة البدن تماماً. وتأكد له أنها سليمة، لكن وجهها محتقن بقوى الطفولة الباطنية.

سقطت دمعة من عين المناضل على ورقة التوجيه ولاحظها شيكلين رأساً. هذا الرجل القيادي جالس وراء المكتب بلا حراك مثلما كان في يوم أمس. بعث مع رسول الناحية بارتياح قائمة كاملة بخصوص تصفية العدو الطبقي بالإضافة إلى كل نجاحات نشاطه الشخصي، لكنه تلقّى توجيهاً جديداً موقعاً، لسبب ما، من قبل المحافظة، ما يدل على تخطي الناحية والقضاء معاً. وهذا التوجيه المطروح أمامه الآن يشير إلى ظواهر غير مرغوب فيها مثل التمادي والإفراط والتجاوزات واستباق الأحداث ومختلف الانحرافات اليمينية واليسارية عن الخط العام المرسوم بمنتهى الوضوح والدقّة والحدّة. وإلى ذلك طلبوا من المناضل أن يبدي يقظة بالغة تجاه الفلاحين المتوسطي الحال، فطالما اندفعوا إلى التعاونيات أفلا ينطوي تصرّفهم هذا على تعمّد مبيّت جاء بإيحاء من جماهير الفلاحين المتعاطفين مع الأثرياء بغية احتواء التعاونيات بموجة عاتية تذوّب شواطئ القيادة، وعندذاك تفتقر تلك التعاونيات إلى السلطة الكافية، فتذوي وتموت؟

وجاء في ختام التوجيه: «يتضح من المواد الأخيرة المتوفرة لدى لجنة المحافظة أن نشطاء العاملين في تعاونية «النهج العام» الفلاحية، مثلاً، أسرعوا إلى المستنقع اليساري للانتهازية اليمينية. فإن منظم التعاونية يسأل مرجعيته: هل هناك شيء أسمى وأكثر نوراً من التعاونية والكومونة حتى نحرك إلى هناك فوراً جماهير الفقراء ومتوسطي الحال المندفعة بكل قواها إلى أبعاد

التاريخ وإلى ذرى العصور العالمية غير المسبوقة؟ ويطلب هذا الرفيق من المرجعية التنظيمية أن ترسل له ميثاقها النموذجي، إن كان موجوداً، ومعه استمارات وقلماً بريشة عريضة ولترين من الحبر. وهو لا يفهم مدى متاجرته بالمشاعر الصادقة، والسليمة أساساً، التي يكنّها متوسطو الحال في إقبالهم على التعاونيات الفلاحية. ولا بدّ من القول إن هذا الرفيق حشرة مضرّة بالحزب وانه من الناحية الموضوعية عدو للبروليتاريا ويجب أن يُنحّى من القيادة فوراً وإلى الأبد».

في هذه اللحظة ارتجف قلب المناضل الواهن فبكى، وسقطت دمعته على ورقة المحافظة.

- ماذا بك يا سافل؟ - سأله المعوّق جاشيف.

لكن المناضل لم يحر جواباً. فهل تذوّق الفرحة في الآونة الأخيرة، وهل أكل ونام حتى الشبع أو هل أحب واحدة من بنات الفلاحين الفقراء على الأقل؟ كان في شبه هذيان، قلبه يكاد يتوقف من شدة الإرهاق بعد أن بذل جهده لتنظيم السعادة خارج نفسه، بعيداً عنها، لمجرد أن يستحق في المستقبل منصباً في الناحية.

- أجب، يا طفيلي، وإلا ستلقى جزاءك مني. - قال جاشيف من جديد. - يبدو أنك أفسدت جمهوريتنا يا وغد، يا سافل.

سحب جاشيف التوجيه من المكتب وانكبّ على دراسته شخصياً على الأرضية.

- أريد ماما. - استيقظت ناستيا وشعرت بالملل.

انحنى عليها شيكلين:

- ماما ماتت يا ابنتي، وأنا الباقي.

- لماذا تحملني؟ أين فصول السنة الأربعة؟ انظر إلى السخونة الفظيعة تحت جلدي. اخلع ثوبي وإلا سيحترق ولن يبقى عندي ما أرتديه عندما أشفى.

لمس شيكلين ناستيا فوجدها ساخنة عرقة، وقد نتأت عظامها من الداخل وكأنها تتشكى وتتألم. ينبغي للعالم الخارجي أن يكون في منتهى الرقّة والهدوء لترغب هي في البقاء على قيد الحياة.

- غطني، أريد أن أنام كيلا أتذكر شيئاً، وإلا فالمرض محزن كئيب، أليس كذلك؟

خلع شيكلين كل ثيابه الفوقانية، وانتزع من جاشيف والمناضل سترتيهما القطنيتين ولفَّ ناستيا بكل تلك الألبسة الدافئة. فأغمضت عينيها وهان حالها في الدفء والنوم وكأنها تحلّق في النسيم العليل. خلال ما مضى من وقت كبرت البنت بعض الشيء وصارت أكثر شبهاً بأمها.

- كنت أعرف من زمان أنه نذل. - قال جاشيف عن المناضل - فماذا نفعل؟

- وماذا يقولون هناك؟ - سأل شيكلين.

- يصعب الاعتراض على ما كتبوه.

- ومن يتجرأ على الاعتراض؟ - قال المناضل منتحباً.

- يا ويلي، آه على الثورة - اكتأب جاشيف بجدّ - أين أنت

يا أشد الناس خطراً على الثورة؟ تعال، يا عزيزي، لتنال جزاءك من المحارب القديم المبتور الساقين.

أخذ المناضل سترته من ناستيا، فقد شعر بالوحدة ولم يعد راغباً في إنفاق ماله جزافاً على الدولة وعلى الجيل الناشئ. وطالما ينحّونه من منصبه فلتتدفأ الجماهير بنفسها. وقف والسترة بيده، وسط المركز التنظيمي، دون رغبة في مواصلة الحياة. دموع غزيرة تنهمر من عينيه، والشكوك تنهش روحه، فلربما تعود الرأسمالية!

- لماذا رفعت السترة عن الطفلة؟ أتريد لها أن تأخذ برداً؟ - سأله شيكلين.

- فلتذهب طفلتك إلى الشيطان. - أجاب المناضل.

التفت جاشيف إلى شيكلين ونصحه قائلاً:

- خذ السفود الحديدي الذي جلبته من الورشة.

- أعوذ بالله. - أجاب شيكلين - أنا، عمري، لم أمس شخصاً بسلاح أبيض. وإلا كيف أشعر بالعدالة؟

ثم سدّد بلا انفعال ضربة شديدة إلى صدر المناضل، كي يشعر الأطفال بالدفء ويعولوا على الآخرين. تناهى من الأضلاع صرير خافت، وهوى الرجل على الأرض. تطلّع إليه شيكلين بارتياح وكأنه فرغ تواً من عمل ذي منفعة. سقطت السترة من يد المناضل واستقرت لحالها على مقربة منه دون أن تغطي أحداً.

- غطه، حتى يتدفأ. - طلب شيكلين من جاشيف.

ألبس جاشيف المناضل سترته وقرصه في الوقت ذاته ليتأكد هل هو على قيد الحياة؟

- حي؟ - سأل شيكلين.

- شيء من هذا القبيل. - أجاب المعوّق مسروراً. - لا تهتم يا رفيق شيكلين، فإن يدك، من تلقاء ذاتها، كالمطرقة، وهي المسؤولة، فلا ذنب لك.

- كان يستطيع أن يغلي شاياً ويتدفأ، فلماذا رفع السترة عن الطفلة المحمومة؟ - قال شيكلين.

هبَّت على القرية زوبعة ثلجية مع أن أحداً لم يسمع صفير العاصفة. فتح جاشيف النافذة ليتأكد منها، فرأى أفراد التعاونية يكنسون ثلج الشوارع وينظفونها، ذلك لأنهم لم يعودوا راغبين في رؤية الذباب رابضاً على الثلج، بل يريدون شتاءً أنظف.

وعندما ابتعدوا عن المركز التنظيمي كفّوا عن العمل وجلسوا تحت السقيفة مطرقين متحيّرين من حياتهم القادمة. لم يتناولوا طعاماً من زمان، ومع ذلك لم يشعروا بميل إليه الآن أيضاً، فإن بطونهم مليئة بما تناولوه من لحوم الأيام السالفة. انتهز شيخ معمل القاشاني وسائر العناصر الغامضة المحتجزة في المركز التنظيمي فرصة الكآبة الوادعة التي استولت على التعاونية وغياب المناضل فتركوا المحابس الخلفية واجتازوا مختلف عوائق الحياة الخفية وتيمَّموا شطر الأنحاء البعيدة لأداء أشغالهم الملحّة.

مال شيكلين وجاشيف على ناستيا من الجانبين ليسهرا عليها بشكل أفضل، وقد غدت أكثر سمرة وهجوعاً بسبب الدفء الذاتي الذي لم يجد منفذاً، لكن عقلها ظل يفكر لوحده بحزن واكتئاب.

- من جديد أريد أن أذهب إلى ماما. - تفوّهت البنت دون أن تفتح عينيها.

- أمك غير موجودة. - أجاب جاشيف عابساً - الجميع يملّون من الحياة ويموتون، ولا يبقى منهم سوى العظام.

- أريد عظامها. - توسّلت الصغيرة - من ذاك الذي يبكي في التعاونية؟

شنف شيكلين أسماعه، إلا أن الهدوء في كل مكان، ولا أحد يبكي. ولا موجب للبكاء أصلاً. انتصف النهار والشمس الباهتة تنير الأطراف من أعالي السماء، وحشد بعيد يتحرك في الأفق قاصداً اجتماعاً يعقد لعدة قرى. لا أحد يمكن أن يثير صخباً أو ضجيجاً. خرج شيكلين إلى مدخل البناية. أنين لاشعوري خافت تهادى في التعاونية الصامتة، ثم تكرر. بدأ في مكان منزوٍ واتجه صوب الأنحاء الخالية، وما كان ينشد المشاطرة أو الشكوى.

- مَن هذا؟ - صاح شيكلين من علية المدخل مخاطباً القرية كلها حتى يسمعه ذاك المتذمّر المستاء.

- الدب ميشكا يندب ويئن، بينما كان البارحة يقهقع مترنماً بالألحان. - أجاب أفراد التعاونية المستلقون تحت السقيفة.

حقاً، فلا أحد، سوى الدب، يمكنه أن يبكي الآن. لعله غرز بوزه في الأرض وراح ينعب حزيناً في خواء التربة دون أن يدرك مصيبته.

- ميشكا حزين يئنّ لسبب ما. - قال شيكلين لناستيا عندما عاد إلى الغرفة.

- تعال به إليّ، فأنا أيضاً حزينة. - توسّلت إليه ناستيا. - احملني إلى ماما. الجو خانق هنا.

- في الحال يا ناستيا. جاشيف، اذهب واحضر الدب، فليس عنده عمل على أية حال. لا معادن هنا.

وما كاد جاشيف يختفي حتى عاد أدراجه. فالدب جاء بنفسه مع فوشيف إلى المركز التنظيمي. أمسك فوشيف بقائمته الأمامية كالرجل الضعيف، فيما سار الدب جنبه بخطى حزينة.

دخل الدب المركز، وراح يتشمّم المناضل الراقد هناك ثم انزوى في الركن بلامبالاة.

- جئتُ به شاهداً على غياب الحقيقة. - قال فوشيف - فهو يستطيع أن يعمل فقط، وعندما يستريح ويتأمل تستولي عليه الأحزان. فليبقَ إذن كمادة للذكرى إلى الأبد، كهدية تذكارية للجميع.

- هدية لأجلاف المستقبل. - وافقه جاشيف. - احتفظ بهذا النتاج الزهيد لأجلهم.

انحنى فوشيف وأخذ يجمع الحاجيات البائدة، بعد أن نثرتها ناستيا، ويدسّها في كيسه، فهي ضرورية للثأر المرتقب. رفع شيكلين ناستيا بيديه، ففتحت عينيها الغائرتين الناشفتين كأوراق الشجر. ومن خلال النافذة حدّقت البنت في الفلاحين التعاونيين الراقدين متلاصقين تحت السقيفة يلفعهم النسيان والصبر. وسألت مهمومة:

- يا فوشيف، هل ستأخذ الدب أيضاً إلى نقطة تسليم النفايات؟

- كيف لا؟ أنا أحرص على تسليم حاجيات تافهة لا قيمة لها، فكيف لا أحرص على هذا الكائن المسكين؟

- وهؤلاء؟ - مدّت ناستيا يدها الخائرة، النحيفة كقائمة نعجة، مشيرة إلى الفلاحين المستلقين في الباحة.

ألقى فوشيف على الباحة نظرة ملؤها حسن التدبير، ثم أشاح بوجهه منكمشاً وأطرق مدلياً رأسه المفعم بالحنين إلى الحقيقة.

ظل المناضل مطروحاً بلا حراك على الأرض إلى أن انحنى عليه فوشيف متأملاً وهزه بشعور من الفضول الذي يدفعه إلى كل ما يقلل من شأن الحياة. لكن المناضل لم يردّ على فوشيف. ربما كان يتظاهر أو ربما قد مات فعلاً. فجلس فوشيف جنبه وراح يتطلّع طويلاً في وجهه المكشوف الأعمى الغائص في أعماق وعيه الحزين.

صمت الدب برهة ثم أخذ يئنّ من جديد، فجعل صوته الفلاحين يتركون الباحة ويدخلون إلى مبنى المركز التنظيمي.

- كيف سنعيش لاحقاً يا رفاقنا العمال الطليعيين؟ - سأل أعضاء التعاونية - اهتموا بنا، فقد نفد صبرنا. أدواتنا صالحة وبذورنا نقية، ونحن في الشتاء ولا نشعر بأن الأمور تسير، فابذلوا جهدكم.

- لا أحد يمكنه أن يبذل جهداً - أجاب شيكلين - فإن مناضلكم الأول مطروح أرضاً.

ألقى الفلاحون نظرة هادئة على المناضل المطروح دون أن يشفقوا عليه. إلا أن أحداً لم يفرح للحادث، فالمناضل كان على الدوام يتكلم بدقّة وصواب، وفقاً للتوصيات والتوجيهات، لكنه ممقوت لدرجة جعلت حتى الدميمات من النساء والفتيات ينتحبن

كدراً وأسىً عندما أراد المجتمع ذات مرة تزويجه لكي تتقلص نشاطاته.

- قضى نحبه. - أفاد فوشيف ونهض. - كان يعرف كل شيء ومع ذلك قضى نحبه.

- ربما لا يزال حياً. - أعرب جاشيف عن شكوكه. - افحصه جيداً من فضلك. فهو لم يتلقَّ مني شيئاً، وسأضيف له إذا كان حياً.

انبطح فوشيف من جديد جنب البدن الذي كان يعمل في حينه بأهمية وحشية ضارية جعلت الحقيقة العالمية كلها ومغزى الحياة كله كامنين فيه وحده، ولم يبق أمام فوشيف سوى تعذيب العقل، والانصياع الأعمى، واللاشعور في مجرى الوجود المندفع.

- يا ويلك يا سافل - همس فوشيف في أذن البدن الهامد - أنت الذي جعلتني أجهل مغزى الحياة. يبدو أنك، أيها الروح الأعجف، شربت الطبقة كلها ولم تشربني وحدي، بينما نهيم على وجوهنا، كالعصيدة الراكدة، دون أن نعرف شيئاً.

سدّد فوشيف ضربة إلى جبهة المناضل ليضمن هلاكه ويشعر، هو شخصياً، بالسعادة عن وعي وإدراك.

أحس فوشيف باكتمال العقل مع أنه لا يجيد بعد تحريك قوته الأولى أو التعبير عنها، فنهض وقال لأعضاء التعاونية:

- سأبذل جهدي من أجلكم بدلاً منه.

- موافقون. - أعرب الفلاحون عن رأيهم بالإجماع.

فتح فوشيف باب المركز التنظيمي على الخلاء وشعر برغبة

في العيش في هذا الأفق غير المسيّج، حيث القلب ينبض ليس بفعل الهواء البارد وحده، بل بسبب الفرحة الحقيقية بعد تذليل المادة العكرة التي تفسد الأرض.

- احملوا جثة الميت بعيداً - أمر فوشيف.

- إلى أين؟ - سأل الفلاحون. - هل يجوز أن ندفنه بدون موسيقى؟ افتح الراديو على الأقل.

وهنا تفتّق ذهن المعوّق جاشيف عن فكرة:

- ارموه في النهر ليحمله إلى البحر مثلما فعل بالأثرياء.

- ممكن.. - وافقه الفلاحون - فالماء لا يزال يجري.

رفع عدة أشخاص جثة القتيل وحملوها إلى ضفة النهر. وكان شيكلين يحمل ناستيا طول الوقت وينوي الذهاب معها إلى عنبر حفرة الأساس، لكن هذه الأحداث أخّرته.

- العرق يتصبّب من بدني كله. - قالت ناستيا. - خذني إلى ماما بأسرع ما يمكن أيها العجوز الأحمق. لقد مللت.

- في الحال يا ابنتي، سأحملك راكضاً. وأنت يا يليسي خبّر بروشيفسكي بأننا ذاهبون وسيبقى فوشيف ممثلاً عنا، فالطفلة مريضة.

مضى يليسي وعاد لوحده، فقد رفض بروشيفسكي الذهاب إلى الحفرة وقال إنه ملزم أن يعلّم كل الشباب هنا في البداية، وإلا سيهلكون في المستقبل وسيأسف عليهم.

- فليبقَ إذن. - وافق شيكلين - المهم أن لا يهلك هو.

جاشيف لا يجيد السير بسرعة. ولذا سلّم شيكلين البنت إلى

يليسي وحمل المعوّق بدلاً منها. على هذه الصورة سلكوا الطريق الشتوي إلى الحفرة باستعجال. والتفتت ناستيا إلى الوراء آمرة:

- حافظوا على الدب ميشكا، وسأزوره قريباً.

- كوني على ثقة، يا آنسة. - وعدها الفلاحون.

عند المساء رأى الأربعة أنوار المدينة من بعيد. وتعب جاشيف من الجلوس على يدي شيكلين، فقال: كان ينبغي أن نأخذ حصاناً من التعاونية. وأجابه يليسي:

- على الأقدام نصل بأسرع من خيولنا التي نسيت الركوب. فهي واقفة من عهد نوح، حتى تورّمت قوائمها، ولا تسير إلا لسرقة العلف.

عندما بلغ رفاق الطريق الموضع الذي قصدوه رأوا الحفرة المهملة مليئة بالثلج عن آخرها، والعنبر مظلماً خالياً. شيكلين وضع جاشيف على الأرض واهتم بإشعال الموقد لتدفئة ناستيا، لكنها قالت له:

- اجلبْ عظام ماما، أريدها.

جلس شيكلين القرفصاء قبالة البنت وهو يحاول أن يشعل الموقد طلباً للدفء والنور، وأرسل جاشيف لعله يجد لبناً عند أحد. فيما اقتعد يليسي عتبة العنبر وراح يتطلع طويلاً إلى المدينة القريبة المنارة بالكهرباء والتي تعجّ بضجيج متواصل وتتململ بانتظام في حركة شاملة، ثم رقد على جنبه وغفا دون أن يذوق شيئاً من طعام.

مرَّ كثيرون جنب العنبر، لكن أحداً لم يعرّج عليه لزيارة الطفلة

المريضة، فالكل واجمون مطرقون يفكرون طول الوقت بإشاعة التعاونيات الفلاحية في كل مكان.

وفي بعض الأحيان يخيّم السكون فجأة، لكن صفارات القطارات البعيدة تدوي من جديد، ويتصاعد البخار مديداً من أبراج المناجم، وتتعالى صيحات الفرق الطليعية وهي ترفع أو تزحزح شيئاً ثقيلاً، ففي كل مكان يجري العمل على قدم وساق للصالح العام.

- يا شيكلين، لماذا يتفتح ذهني دوماً ولا أستطيع أن أنسى دماغي؟ - سألت ناستيا مندهشة.

- لا أدري يا ابنتي، ربما لأنك لم تري شيئاً طيباً في حياتك.

- لماذا يعملون في المدينة ليلاً ولا ينامون؟

- لأنهم مهتمون بك.

- وأنا أرقد مريضة. . . يا شيكلين ضع عظام ماما جنبي، حتى أحتضنها وأغفو. أنا أشعر بملل شديد.

- جرّبي أن تنامي، فقد تنسين دماغك.

حاولت ناستيا أن تنهض خائرة واهنة، وقبّلت شيكلين المنحني عليها في شاربيه، مثلما كانت أمها تفعل عندما تبادر إلى تقبيل الآخرين دون سابق إنذار.

تجمّد شيكلين وتخدّرت أوصاله من تكرار السعادة في حياته، وراح يتنفس صامتاً فوق بدن الطفلة وانتابه من جديد القلق على هذا البدن الصغير المحموم.

رفع شيكلين يليسي الغافي من العتبة ووضعه جنب الطفلة لحمايتها من الريح وتوفير الدفء للجميع. وقال يهدئ الرجل الذي ارتعب في المنام:

- ارقد جنب البنية، عانقها وتنفس باتجاهها.

فعل ينيسي ما أمره به شيكلين، بينما استلقى الأخير على مرفقه قريباً منهما وراح ينصت باهتمام، والنعاس يراوده، إلى الصخب المقلق في مباني المدينة.

حوالى منتصف الليل جاء جاشيف بزجاجة قشدة وكعكتين. فلم يتمكن من الحصول على المزيد، لأن جميع المسؤولين الجدد غير متواجدين في شققهم، فهم يرفلون بالنعيم في أماكن أخرى خارجها. وبعد أن كلّ وتعب عزم جاشيف في آخر المطاف على تغريم الرفيق باشكين بوصفه الاحتياطي الأكثر أماناً بالنسبة له. إلا أن باشكين لم يكن في البيت. كان مع زوجته في مسرح المدينة، ما اضطر جاشيف أن يحضر التمثيلية وسط الظلمة والأنظار المسلطة على العناصر التي تتعذب فوق الخشبة. وصاح بأعلى صوته طالباً حضور باشكين في البوفيه، فتوقف الأداء الفني. خرج باشكين بلمح البصر واشترى القشدة والكعكتين من البوفيه صامتاً وعاد إلى قاعة المسرح على عجل لينفعل من جديد.

- لا بدّ من الذهاب إلى باشكين غداً أيضاً. - قال جاشيف وهو يهدئ نفسه في الركن الأبعد. - لينصب لنا فرناً. في هذا القطار الخشبي لن نصل إلى الاشتراكية...

في الصباح الباكر استيقظ شيكلين مرتجفاً من البرد وراح

ينصت إلى ناستيا. بزغت تباشير الفجر والجو هادئ سوى تمتمة جاشيف تفضح قلقه في المنام. وقال شيكلين مخاطباً يليسي:

- هل تتنفس يا شيطان؟

- نعم، يا رفيق شيكلين. كيف لا وقد قضيت الليل كله أنفخ الدفء على الطفلة؟

- وهي؟

- إنها لا تتنفس، يا رفيق، وقد بردت.

نهض شيكلين على مهل ووقف متحجراً في مكانه. ثم مضى إلى حيث يرقد جاشيف المعوّق ليرى هل أجهز على القشدة والكعكتين، فوقع نظره على مكنسة هناك. كنس العنبر كله مما تجمّع فيه من أوساخ وغبار أثناء خلوّه من الناس.

أعاد المكنسة إلى موضعها ورغب في حفر التربة، فحطم قفل المستودع المنسي الذي تُحفظ فيه الأدوات الاحتياطية وأخذ معولاً وتوجّه إلى حفرة الأساس بدون استعجال. شرع يحفر التربة، فوجدها متجلدة، واضطر إلى تقطيعها قطعاً كاملة متجمدة يقلبها ويزيحها قليلاً فتتكشف تحتها تربة أهون وأدفأ. ظل يغرز فيها معوله الحديدي بضربات تقطيعية إلى أن غاص في باطن الأرض بكامل قامته. لكنه لم يشعر بالتعب، فراح يحطم التربة من جانبيها ليوسع ضيق الأرض. وقع معوله على حجر طبيعي، فالتوَت حافته من شدة الضربة. رماه شيكلين مع مقبضه إلى فوق، إلى سطح النهار، ومال برأسه إلى الطين العاري.

كان يريد أن ينسى دماغه، لكن دماغه يفكر جامداً: ماتت ناستيا، ماتت.

- يجب أن أحضر معولاً آخر. - قال وقفز من الحفرة.

اقترب من ناستيا في العنبر الخشبي ولمس رأسها، فهو لا يريد أن يصدق ما يقول له دماغه، ثم وضع يده على جبين يليسي ليتأكد، من حرارة بدنه، هل هو حي أم لا.

- لماذا برد جسمها وأنت ساخن؟ - سأل شيكلين ولم يستمع إلى الجواب، فقد غرق ذهنه في النسيان.

وبعد ذلك ظل طول الوقت جالساً على الأرضية الترابية، وجلس معه جاشيف بعد أن استيقظ من النوم، وهو يمسك بزجاجة القشدة والكعكتين بلا حراك. أما يليسي الذي ظل طول الليل ينفخ الدفء على البنت دون أن يغمض له جفن فقد استولى عليه النعاس الآن ونام جنبها إلى أن أيقظه صهيل خيول قريته المؤمَّمة.

دخل العنبر فوشيف وخلفه الدب ميشكا وجميع أعضاء التعاونية الفلاحية، وبقيت الخيول تنتظر في الخارج. وقال جاشيف مندهشاً عندما رأى فوشيف:

- لماذا تركت القرية؟ أم أنك تريد لأرضنا كلها أن تموت؟ أو تريد أن تلقى جزاءك من البروليتاريا؟ تعال إليَّ وستحصل مني نيابة عن الطبقة كلها.

لكن فوشيف خرج إلى الخيول من جديد في تلك الأثناء، ولم يسمع كلام الرجل المعوّق. فقد جلب هدية إلى ناستيا، هي كيس من النفايات المختارة خصيصاً، وبينها عرائس نادرة لا تباع في الأسواق، وكل منها تذكار أبدي لإنسان منسي. لم يلاحظ

فوشيف أمارات الفرحة على وجه ناستيا مع أنها كانت تنظر إليه، فلمسها وهو يحدّق في فمها الصامت المفتوح وبدنها المتعب اللاأبالي. وقف متحيراً أمام الطفلة الهامدة لا يدري بعد الآن أين ستقوم الشيوعية في هذه الدنيا إذا لم تكن قائمة بادئ ذي بدء في مشاعر الطفولة وفي الانطباعات والمعتقدات الراسخة؟ وما حاجته، هو، الآن إلى مغزى الحياة وحقيقة منشأ العالم إذا لم يعد موجوداً ذلك الإنسان الصغير الوفي الذي تغدو فيه الحقيقة فرحة وحركة؟

كان بوسع فوشيف أن يوافق من جديد على الجهل بكل شيء والعيش بدون أمل، في غمرة ملذات الذهن العابث المعتكر، بشرط أن تبقى الطفلة سليمة مستعدة للحياة رغم العذاب الذي تواجهه على مرّ الأيام. رفع الرجل ناستيا وقبّلها في شفتيها الغائرتين وضغطها إلى صدره متلهفاً إلى السعادة بعد أن لمس فيها أكثر مما كان يبحث عنه ويتوق إليه.

- لماذا جئت بالتعاونية إلى هنا؟ أسألك للمرة الثانية. - خاطبه جاشيف دون أن يفلت زجاجة القشدة والكعكتين. فأجابه فوشيف:

- الفلاحون يريدون الالتحاق بالعمال.

- فليلتحقوا. - قال شيكلين من مربضه على الأرض - ينبغي أن نعمّق الحفرة ونوسّعها حتى يتسع منزلنا العمومي لكل فرد من سكنة العنابر وأكواخ الطين. ابعثوا في طلب سلطات القرية مع بروشيفسكي، وأنا ذاهب لأحفر الأرض.

أخذ شيكلين مخلاً حديدياً ومعولاً جديداً وسار الهوينى صوب الطرف الأبعد من حفرة الأساس. وبدأ من جديد يقطّع التربة الجامدة، فهو عاجز عن البكاء. ظل يحفر الأرض بلا كلل حتى المساء وطول الليل إلى أن شعر بالعظام تطقطق في بدنه المكدود. توقف وجال ببصره فيما حواليه. والفلاحون يحفرون التربة وراءه بلا انقطاع. كل الفلاحين الفقراء ومتوسطي الحال يبذلون قصارى جهدهم وكأنهم ينشدون النجاة إلى الأبد في أعماق الحفرة.

ولم تبقَ الخيول في معزل عن الجهد العام. فقد امتطاها بعض الفلاحين وراحوا ينقلون حجر الأساس جلوساً على ظهورها، فيما أخذ الدب ميشكا ينقل الحجر ماشياً فاغراً فاه من ثقل حمله.

جاشيف هو الشخص الوحيد الذي لم يشارك في أي نشاط، فقد راح يتطلع بنظرة ملؤها الأسى إلى أعمال الحفر الجارية على قدم وساق. فهو ليس لديه قدم ولا ساق.

وقال له شيكلين عندما عاد إلى العنبر في صباح اليوم الثاني:

- لماذا تجلس كالموظفين؟ حبذا لو قمت بصقل حافات المعاول.

- لا أستطيع، يا أخي. لم أعد أثق بشيء.

- لماذا يا سافل؟

- ألا ترى أنني معوّق بسبب الإمبريالية؟ أما الشيوعية فهي قضية الطفولة، وكنت أحب ناستيا لهذا الغرض بالذات. . . سأذهب لأقتل الرفيق باشكين في الوداع الأخير.

ذهب جاشيف إلى المدينة، ولم يعد منها إلى الحفرة أبداً.

عند الظهر بدأ شيكلين يحفر قبراً لناستيا في مكان مميز. ظل يحفره خمس عشرة ساعة متواليات حتى يكون عميقاً لا تطاله الديدان ولا جذور النباتات ولا حر أو برد، وحتى لا يشوش على الطفلة أبداً صخب الحياة وضجيجها من فوق الأرض. نحت موضعاً للتابوت في صخرة جبلية طبيعية وأعدّ لوحاً خاصاً من الجرانيت ليكون غطاء يقي الطفلة من ثقل تراب القبر.

التقط شيكلين أنفاسه، ثم رفع ناستيا وحملها برفق وعناية ليضعها في الصخرة ويهيل على القبر التراب. الوقت ليل والتعاونية كلها نائمة في العنبر، إلا أن الدب ميشكا استيقظ في تلك اللحظة، فسمح له شيكلين أن يلمس ناستيا في الوداع الأخير.

ديسمبر 1929- أبريل 1930

أندريه بلاتونوف

الحفرة



قالوا عن أندريه بلاتونوف:

❊ «هذا كاتب خبيث. فهل يعقل أن رواد حركتنا التعاونية بهذا القدر من الخسة والدناءة كما يصورهم؟»

يوسف ستالين

❊ «تأملات أندريه بلاتونوف السوداوية لا تصلح للنشر الآن. أقترح تركها للمستقبل»

مكسيم غوركي

❊ «فاتني أن أمنع نشر قصة «شكوك ماكار». فتلقيت توبيخاً شديد اللهجة من ستالين. فهي فوضوية»

ألكسندر فادييف

دار سؤال
ISBN: 978-614-8020-23-0
9 786148 020230
www.darsoual.com
dar_souaal@outlook.com
@darsouall2014
Dar Soual